

مفاتيح

البركات والخيرات

في ضوء الكتاب والسنة

تأليف
جاسر بركات

أسباب تعصيل البركة
بركة الإيمان والتقوى
بركة العمل الصالح

بركة الطاعة - البركة في الرزق
بركة الفقار والرضا بحضرة الله
بركة العلم والعمل به
بركة الرزق والصدقة

بركة الذكر ومجالسة الصالحين
بركة كتاب الله عز وجل

بركة أسماء الله الحسنى

بركة الألقاب

بركة الاستغفار والتسوية



قدم له

الفضيلة الشيخ العلامة

عبد الرزاق عيد

والفضيلة الشيخ العلامة

أ.د. حسني حمدان حمامة

مكتبة الصف

تقديم فضيلة الشيخ العلامة عبد الرازق عيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى خلق فسوى وقدر فهدى، خلق الأرض فى يومين وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين، وأصلى وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

أما بعد...

من رحم المعاناة خرج هذا البحث والمعاناة التى أقصدها أننا أصبحنا نفتقد البركة فى حياتنا نفتقدها فى أموالنا، فى محاصيلنا الزراعية مع كثرة الإنتاج وفى أموالنا ربما مع زيادة الدخل وهذا النقص فى البركة لا يقتصر على قطر دون قطر ولا مكان دون آخر وصدق الله ربنا حين قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرؤم: ٤١].

ولعل هذا إجابة مجملة على تساؤل يشغل بال الجميع لكن الأمر يحتاج إلى مزيد تفصيل وبيان وهذا ما تناوله أخونا الشيخ / جاسر بركات فى هذا البحث الشامل الذى استقصى فيه مصادر البركة

وأسبابها وموانعها، ومما تميز به بعد شموله أمران:

الأول: صحة الأحاديث التى أوردها وعزوها لمصادرها.

والثانى: صيانة العقيدة وحماية جناب التوحيد والزود عنهما.

والله سبحانه أسأل ؛ أن يتقبل منه هذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه وأن ينفع به إخوانه المسلمين.

كتبه / عبد الرازق السيد عيد

أمين عام جماعة أنصار السنة بالدقهلية

ومن دعاة الجماعة وكتاب مجلة التوحيد

تقديم فضيلة الشيخ العلامة : حسني حمدان حمامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: تتنظم حياة الإنسان ما بين قول وفعل، وقد يسبق أحدهما الآخر أو يتلازمان. ويتطلع الإنسان في قوله وفعله. وليس أعظم من أن تحل البركة في القول والفعل معاً، وفي الحركة بركة وفي القول بركة إذا اقترن القول والفعل بتعاليم الإسلام. وهذا ما حققه المؤلف في كتابه فيض البركات في ضوء الكتاب والسنة. ففي مبحثه الأول ركز على تحصيل البركات بالطريق الإيجابي وهو المتمثل في حركة الإنسان المتعلق بالله تبارك وتعالى، وأكد على أن في الأفعال بركات، ففي الإيمان والعمل الصالح والرزق والشكر والإنفاق والعلم... إلخ. ولا بد أن ينبع العمل من فلسفه عقلية تمثلت عند المؤلف في بركات القول، وأعلاها بركات القول في كتاب الله، وأسمائه الحسنى، وفي الصلاة على النبي ﷺ، وفي الاستغفار والتوبة.

وكم وقف العقل متأملاً في كلمة (تبارك) التي أثنى الله بها على نفسه، وإذا بالمؤلف يدندن حولها، ويخلص المؤلف الشيخ جاسر بركات إلى أن البركة الحقيقة لا تتأتى إلا إذا كان تحصيل البركة متفقاً مع الأقوال والأفعال النابعة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وفي النهاية أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يبارك في جهد الشيخ جاسر وأن تحل البركة في كل من قرأ هذا الكتاب وبلغ ما فيه لغيره في زمن يخيل للناس أن البركات كثيرة، وفي نفس الوقت النكد أكثر. ولذا فالمسلمون أولاً والبشرية ثانياً في حاجة إلى تحصيل البركات الحقيقة من خلال تعاليم الإسلام.

بل إننا في أشد الحاجة إلى الاحتراس من أسباب محق البركات وهذا ما أكد عليه المؤلف في مبحثه الأخير في ذلك الكتاب المبارك بإذن الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه/ حسين حمدان الدسوقي حمامة

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

ومستشار الهيئة العالمية للإعجاز العلمي للقرآن والسنة

السبت الموافق: ٨ ذو القعدة ١٤٣١ - ١٦/١٠/٢٠١٠م

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

إِلَى مَنْ أَحَبَّهُمْ كُلُّ الْحَبِّ

إلى أبى وأمى عرفاناً بفضلهما، أسأل الله لهما الرحمة والمغفرة وأن يجعل أعمالى كلها فى ميزان حسناتهما....

إلى من أودعت سرَّ التحنان والعطاء وتحملت معى المشاق والمصاعب فى سبيل إرضاء الله.....

زوجتى الغالية... جزاها الله خير الجزاء.

إلى ابنى الغالى والحبيب....

عمرو

إلى ريحانة السكن والرحمة ابتنى.....

علياء

إلى كلِّ الذين كانت قلوبهم معى فى كلِّ خطوة.....

إخوتى وأخواتى وجميع أفراد العائلة.....

إلى الوالد المفضل.. العالم الربانى النبيل، صاحب الخلق الرفيع والفهم الثاقب الشيخ التقيّ النقى الداعى إلى الله على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة، نحسبه والله حسيبه ولا نركى على الله أحداً فضيلة الشيخ/ عبد الرازق السيد عيد، وإلى أخى الكبير المتواضع الربانى فضيلة الشيخ/ محمد بيومى، على إرشادهما الدائم لى فى كل خطوات البحث، ورعايتهما للبحث وصاحبه.

وقد قمت بعرض ما جمعته على شيخنا المفضل الذى طوق عنقي بجميل كرمه.. الدكتور/ حسنى حمدان حفظه الله من كل سوء، فراجعته على ديدنه فى سماحة خلقه، وبره لطلاب العلم، وقدم له، فجزاه الله خير الجزاء وأوفاه، وجعل ما قدمه فى ميزان حسناته يوم يلقي مولاه، وأن يجعل جنة الفردوس مأواه، وأن ينفع بعلمه وسعيه المبذول للإسلام والمسلمين، وأن يبارك له فى أهل وذريته أجمعين.

إلى العالم الربانى والرجل القرآنى فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العظيم بدوى -
 حفظه الله ورعاه. أسأل الله له التوفيق والسداد. فإن العبارات تعجز عن إعطائه حقه،
 فلم أجد منه إلا حسن الخلق وطيب الحديث وتوجيهات حكيمة بأدب جمٍّ وخُلُقٍ
 حميد، مما حفزنى وشجعنى على مواصلة طلب العلم فجزاه الله عنى خير الجزاء.
 ومن توفيق الله تعالى لعبده أن يرزقه أستاذاً من جهابذة الأساتذة وفضلائهم،
 وهو شيخى وأستاذى الفاضل الأستاذ/ عبد اللطيف عبد الفتاح عوض.
 بارك الله له فى علمه، وبارك له فى ذريته.

إلى كل ذى يد بيضاء....

إلى كل أخ مسلم وإلى كل أخت مسلمة. إليهم جميعاً أقدم هذا الجهد
 المتواضع. وأهدى هذا العمل.
 إلى إخوانى فى مكتبة الصفا حفظهم الله وبارك فى جهودهم ونفع بهم الإسلام
 والمسلمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أما بعد....

أيُّها المسلمون، حقٌّ على كلِّ مسلم ومتبصِّرٍ أن يقفَ موقفَ تأملٍ وتدبُّرٍ ونظرٍ وتفكُّرٍ، لقد فتح الله على أهل هذا العصر ما فتح من فتوح لا تحصى، لم يعرفها السابقون، ولم ينعم بها الأسلاف في العلم والتعليم والإعلام والتواصل والطبِّ والعلاج، في الكسبِ والاحتراف والمالِ والاقتصاد والنقل والمواصلاتِ والتجارة والصناعة والزراعة واللباس والزينة، في كلِّ ميادين الحياة وشؤونها، تطوَّرت عظيم واسع، غيَّر ظروفَ الناسِ وأحوالهم، مكَّن الله لهم في الأرض ما لم يمكنَ لمن قبلهم، فتح الله الأسواق والأرزاق وتبادَّلَ المنافع بين أهل الدنيا وأرجاء المعمورة.

إنَّ المسلمَ ذا القلب الحيِّ والعقل المتبصِّر ممن يلقى السمع وهو شهيد ليتساءل: أين البركة؟! أين الطمأنينة؟! أين الحياة الطيبة الموعود بها في مثل قوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]؟!

العلوم والمخترعات والمكتشفات والمنجزات والمصنوعات والمنتجات مهما اتسع ميدانها هل تحقق بذاتها الطمأنينة؟! وهل تجلب سعادة؟! وهل ينتزل بها بركة؟! العصر عصر علم وعصر سرعة وعصر تقنية، ولكن هل هو عصر فضيلة؟! هل هو عصر طمأنينة؟! هل هو عصر بركة؟!

كم من أمة قوية غنية، ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، تخشى تقطع أوصالها، يسدوها قلق، يهددها انحلال، قوة في خوف، ومتاع بلا رضا، ووفرة من غير صلاح، وحاضر نضر ومستقبل مظلم، بل لعلّه ابتلاء يعقبه نكال.

أيها الإخوة الأحبة، كل هذه التأملات تدعو إلى التساؤل: ما هي البركة؟ وأين البركة؟ وأين الحياة الطيبة والعيشة الهنيئة؟ حيث يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والإجابة على هذه الأسئلة المهمة في هذا الكتاب المبارك الذي بين يديك فقد بينت فيه ما هي البركة؟، وما هي الأسباب الجالبة للبركة وما هي الأسباب الماحقة للبركة.

خطة البحث:

ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد وباين وخاتمة على التفصيل التالي:
المقدمة: أهمية البحث وخطته.

التمهيد: (وفيه):

معنى البركة

البركة من الله عز وجل

معنى تبارك

معنى القدوس يجمع معنى الطهر والبركة

اختصاص الله بعض خلقه بما شاء من الفضل والبركة

الباب الأول: أسباب تحصيل البركات والخيرات

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بركة الأفعال. (وفيه عدة مطالب):

المطلب الأول: بركة الإيمان والتقوى.

المطلب الثاني: بركة الطاعة.

المطلب الثالث: بركة العمل الصالح.

المطلب الرابع: البركة في العمر.

المطلب الخامس: البركة في الصحة والبدن والسمع والبصر.

المطلب السادس: البركة في الحفظ.

المطلب السابع: البركة في الرزق.

المطلب الثامن: البركة في القنَاعَة والرضا بعطية الله.

المطلب التاسع: البركة في شكر نعم الله وعدم كفرانها.

المطلب العاشر: السلام: تحية مباركة طيبة.

المطلب الحادي عشر: البركة في النكاح.

المطلب الثاني عشر: البركة في إقامة الدين وتطبيق شرع رب العالمين.

المطلب الثالث عشر: بركة العدل.

المطلب الرابع عشر: بركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الخامس عشر: بركة الزكاة والصدقة.

المطلب السادس عشر: بركة الإنفاق وكرَاهة الإحصاء.

المطلب السابع عشر: بركة الحجامة.

المطلب الثامن عشر: بركة اتخاذ الخيل.

المطلب التاسع عشر: بركة الغنم وغيرها من الأنعام.

المطلب العشرون: البركة مع أكابرهم.

المطلب الحادي والعشرون: البركة في البيت.

المطلب الثاني والعشرون: بركة العلم والعمل.

المطلب الثالث والعشرون: البركة في من دعا إلى الإسلام.

المبحث الثاني بركة الأقوال (وفيه مطالب):

المطلب الأول: بركة الذكر ومجالسة الصالحين.

المطلب الثاني: بركة كتاب الله عز وجل.

المطلب الثالث: بركة أسماء الله الحسنى.

المطلب الرابع: بركة تعظيم اسم الله.

المطلب الخامس: بركة «لا حول ولا قوة إلا بالله».

المطلب السادس: بركة الأذان.

المطلب السابع: الصلاة على النبي ﷺ وما فيها من البركة.

المطلب الثامن: بركة الاستغفار والتوبة.

الباب الثاني: أسباب محق البركة:

وفيه أَحَدَ عَشَرَ سببًا من أسباب محق البركة مستنبطة من كتاب الله تعالى وسنة

النبي ﷺ.

والله أسأل ؛ أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، وأن يجعله عامًّا

النفع والبركة بفضلِهِ ورحمته إنه على كل شيء قدير ، وصلى الله وسلم على نبينا

محمد ؛ وعلى آله وأصحابه ؛ والتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب

العالمين.

كتبه

أبو عمرو

جاسر بركات

غفر الله له ، ولوالديه ، ولشايعه ، ولجميع المسلمين

تمهيد

معنى البركة: البركة النماء والزيادة والتبريك في اللغة مصدر برك، يقال: بركت عليه تبريكا أى قلت له: بارك الله عليك، وبارك الله الشئ وبارك فيه وعليه: وضع فيه البركة، ويكون معنى التبريك على هذا: الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة، وهى النماء والزيادة والسعادة.

والتبريك فى الاصطلاح: الدعاء بالبركة وهى الخير الإلهى الذى يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، ولذا قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة، وإلى هذه الزيادة أشير بما روى أنه «ما نقصت صدقة من مال»^{(١)(٢)}.

وقال الفراء فى قوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٧٣] قال: البركات السعادة.

قال أبو منصور: وكذلك قوله فى التشهد السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته لأن من أسعده الله بما أسعد به النبى ﷺ فقد نال السعادة المباركة الدائمة^(٣). وفى حديث الصلاة على النبى ﷺ وبارك على محمد وعلى آل محمد أى أثبت له وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة وهو من برك البعير إذا أناخ فى موضع فلزمه وتطلق البركة أيضا على الزيادة والأصل الأول وفى حديث أم سليم فحنكه وبرك عليه أى دعا له بالبركة^(٤).

-
- (١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبى هريرة باب استحباب العفو والتواضع.
 - (٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٩٦/١٤) ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت. الطبعة: (١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ).
 - (٣) تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (١٠/١٣١): دار النشر: دار إحياء التراث العربى. بيروت - الطبعة: الأولى - ٢٠٠١ م. تحقيق: محمد عوض مرعب.
 - (٤) وفى الحديث المتفق عليه. عن أسماء بنت أبى بكر أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة قالت: فولدت بقاء ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعت فى حجره ثم دعا بتمره فمضغها ثم تغل فى فيه ثم حنكه ثم دعا

ويقال: بَارَكَ اللهُ لَكَ وَفِيكَ وَعَلَيْكَ... وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] يعنى ليلة القدر نزل فيها جُمْلَةٌ إلى السماء الدنيا ثم نزل على سيدنا رسول الله ﷺ شيئاً بعد شيء وطعام بَرِيكٌ مبارك فيه وما أَبْرَكَهُ، جاء فعلُ التعجب على نية المفعول، وتبارك الله: تقدَّس وتنزه وتعالى وتعاضم لا تكون هذه الصفة لغيره أى تطهَّرَ والقُدُس الطهر.

وقال الزجاج: تَبَارَكَ تفاعلٌ من البركة كذلك يقول أهل اللغة وروى ابن عباس ومعنى البركة: الكثرة فى كل خير وقال فى موضع آخر: تَبَارَكَ تعالى وتعاضم وقال ابن الأنبارى: تَبَارَكَ اللهُ أى: يُتَبَرَكُ باسمه فى كل أمر وقال الليث فى تفسير تَبَارَكَ اللهُ تمجيد وتعظيم وتَبَارَكَ بالشىء: تَفَاعَلَ به وقال الزجاج فى قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥] قال المبارك: ما يأتى من قبله الخير الكثير وهو من نعت كتاب^(١).



= له وبرك عليه فكان أول مولود وُلِدَ فى الإسلام. أخرجه البخارى (٣٦٩٧) باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ومسلم (٢١٤٦) باب استحباب تحنيك المولود.

(١) لسان العرب / ابن منظور (١٠ / ٣٩٥).

البركة من الله عز وجل

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال الإمام الطبري رحمه الله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي: كل ذلك بيدك وإليك، لا يقدر على ذلك أحد، لأنك على كل شيء قدير دون سائر خلقك، ودون ما اتخذته المشركون من أهل الكتاب والأميين من العرب إلهاً ورباً يعبدونه من دونك، كالمسيح والأنداد التي اتخذها الأميون رباً^(١).

وأخرج البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسمعمائة وتسعة وتسعين»^(٢). وعن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض». إلى أن قال: «لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك»^(٣).

وإذا كانت الخيرات والنعم - في الدنيا والآخرة من فضل الله سبحانه وتعالى على عباده، فإن ثبوتها ودوامها للناس، وكثرتها وزياتها - كل ذلك من الله سبحانه وتعالى وهو ما يسمى بالبركة، فالبركة كلها لله تعالى ومنه، وهو المبارك جل وعلا^(٤).

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (٣١٧٠) باب قصة يأجوج ومأجوج.

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٤) وقد أوضح الإمام ابن القيم رحمه الله يف كتابه (بدائع الفوائد) عندما بحث تحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) أوضح الحكمة في إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى، وتجريد السلام من هذه الإضافة. فمما ذكره: أن الرحمة والبركة لا يضافان إلا إلى الله وحده، ولهذا لا يقال: (رحمتي وبركاتي عليكم) ويقال: (سلام مني عليكم، وسلام من فلان على فلان) وأن الرحمة والبركة أتم من مجرد السلامة، فإن السلامة تباعد عن الشر، وأما الرحمة والبركة فتحصيل للخير وإدامة له وتثبيت

ومن الأدلة الصريحة في السنة ما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً ^(١) وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَقَالَ الْمَاءُ فَقَالَ: «اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ» فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الطَّهْرِ الْمُبَارَكِ وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ ^(٢).

معنى تبارك: قال ابن القيم رحمه الله: وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أفلا تراها كيف اطردت ^(٣) في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاضم ونحوهما فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دالٌّ على كمال العلو ونهايته فكذلك تبارك دالٌّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها وهذا معنى قوله من قال من السلف تبارك تعاضم.

وقال آخر معناه: أن تجيء البركات من قبله فالبركة كلها منه. وقال غيره: كَثُرَ خيره وإحسانه إلى خَلْقِهِ وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، ومن هنا قيل معناه تعالى وتعاضم وقيل تبارك تقدس

= وتنمية، وهذا أكمل، فإنه هو المقصود لذاته... والأول وسيلة إليه انظر بدائع الفوائد (٢/ ٤٠٧).

(١) (بركة): فضلاً وتكرماً من الله تعالى.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٦) باب علامات النبوة في الإسلام.

(٣) الاطراد الإتيان بأسماء الممدوح أو غيره. واطراد الشيء متابعة بعضه بعضاً تقول: اطراد الأمر اطراداً اتبع بعضه بعضاً واطراد الماء كذلك والأنهار جرت ومنه اطرادت العادة وقولهم: اطراد الحد معناه تتابعت أفراده وجرت مجرى واحداً كجرى الأنهار. انظر التعاريف - المناوى. ص: (٧٢)، والمصباح المنير. ص: (١٩٢).

والقدس الطهارة وقيل تبارك أى باسمه يبارك فى كل شىء وقيل تبارك ارتفع والمبارك المرتفع. ذكره البغوى وقيل: تبارك أى البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة وقيل معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوى أيضاً، وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه تبارك وتعالى. وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعظم ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه وإنما معناها فى نفس من نسبت إليه فهو المتعالى المتقدس فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها برك فى غيره وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى هذا لازم وهذا متعديّ فعلت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك فى غيره لم يصب معناها وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل وبارك من باب أعطى وأنعم ولما كان المتعدي فى ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيان فقال: مجىء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله وهذا فرع على تبارك فى نفسه...

فالبركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك ولهذا كان كتابه مباركاً وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التى شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة وما حول الأقصى مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة فى أربعة مواضع من كتابه أو خمسة وتدبر قول النبى ﷺ فى حديث ثوبان الذى رواه مسلم فى صحيحه عند انصرافه من الصلاة «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^{(١)(٢)}.

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿نَبِّزَكَ أَتَمُّ رَيْبِكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] أن اسم الله مبارك تُنال معه

(١) أخرجه مسلم (٥٩١) باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته.

(٢) انظر بدائع الفوائد (٢/ ٤١٠-٤١٢) ط. مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة.

البركة لاسيما الرحمن.

ويقول ابن القيم رحمه الله: وتأمل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة متعلقاً باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿نَبِّزَكَ أَنتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة؛ إذ مجيء البركة كلها منه وضعت البركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه. وكل ما أخلى منه نزعت منه البركة^(١).

قال الراغب الأصفهاني: وقوله تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] فتنبه على ما يفيضه علينا من نعمه بواسطة هذه البروج والنيرات المذكورة في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] كل ذلك تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر تبارك^(٢).

ويقول ابن القيم: مبيناً حاجة الموجودات إلى الخالق، وعظيم نعمة الله وخيره وبركته على خلقه أجمعين.

يقول رحمه الله: وكل كمال وخير فيها فهو مستفاد من خيره وكماله في نفسه وهي تستمد منه وهو لا يستمد منها وهي فقيرة إليه وهو غني عنها، كل منها يسأله كماله فالملائكة تسأله ما لا حياة لها إلا به وإعانتته على ذكره وشكره، وحسن عبادته وتنفيذ أوامره، والقيام بما جعل إليهم من مصالح العالم العلوي والسفلي، وتسأله أن يغفر لبنى آدم والرسل تسأله أن يعينهم على أداء رسالاته وتبليغها، وأن ينصرهم على أعدائهم وغير ذلك من مصالحهم في معاشهم ومعادهم، وبنو آدم

(١) شرح اسم الله القدوس/ فوزي السعيد ص: (١٧-٢٠)، ومختصر الصواعق (٢/ ١٢٤).

(٢) غريب القرآن للأصفهاني. ص: (١/ ٤٤).

كلهم يسألونه مصالحهم على تنوعها واختلافها، والحيوان كله يسأله رزقه وغذاه وقوته، وما يقيمه، ويسأله الدفع عنه، والشجر والنبات يسأله غذاه وما يكمل به، والكون كله يسأله إمداده بقاله وحاله، سأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن. فأكف جميع العالم ممتدة إليه بالطلب والسؤال ويده مبسوطة لهم بالعطاء والنوال يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار والفجار له كل كمال ومنه كل خير، له الحمد كله وله الشاء كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله تبارك اسمه وتباركت أوصافه وتباركت أفعاله وتباركت ذاته فالبركة كلها له ومنه لا يتعاضمه خير سُؤله ولا تنقص خزائنه على كثرة عطائه وبذله^(١).

فالحير كله من الله وإليه ويديه، فربنا سبحانه له كل كمال، ومنه كل خير، وله الحمد كله، وله الشاء كله، تبارك اسمه، وتباركت أوصافه، وتبارك فعله، وتباركت ذاته، فالبركة كلها منه وبيده، لا يتعاضمه شيء سُؤله، ولا تنقص خزائنه على كثرة عطائه وجزيل نواله، أكف جميع العالم إليه ممتدة تطلبه وتسأله، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءُ^(٢) اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» وَقَالَ «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ^(٣) مَا فِي يَدِهِ»^(٤) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا عَلَى خَيْرِهِ الْجَزِيلِ وَفَضْلِهِ الْعَمِيمِ وَبَرَكَاتِهِ الدَّائِمَةِ وَنِعَمِهِ الْوَافِرَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَتَبَارَكَ سُبْحَانَهُ بِدَوَامِ جُودِهِ وَكَثْرَةِ خَيْرِهِ وَمَجْدِهِ وَعُلُوِّ عِزَّتِهِ وَجَلَالِ قُدْسِهِ. الْخَيْرَاتُ وَالنَّعَمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ كُلُّهَا مِنْ

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل / ابن القيم - ص: (١٨٣-١٨٤).

(٢) قوله: سحاء أي: كثير العطاء والخير والبركة. يقال: سح المطر والدمع وغيرهما سحوحًا وسحاحًا.

انصب وسال. شرح ابن بطال (٨٩/٢٠).

(٣) قوله (فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ): أَي يَنْقُصُ.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٠٧) باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، ومسلم (٩٩٣) باب الحث على

النفقة وبتبشير المنفق بالخلف.

فضله في وجودها وثبوتها ودوامها وكثرتها وبركتها، فله الحمد والمنة.

وهو سبحانه (القدوس): الذي له المنتهى أكمل الكمال في الطَّهارة وصفًا وملكًا، وله المنتهى وأكمل الكمال في البركة وصفًا وملكًا، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه.

فأما كمال الطَّهارة وصفًا فهو كمال النقاء والصفاء والجمال والعظمة والنزاهة المتناهية من الأدناس، فذلك وصف لازم لكل كمالات الله في ذاته وأسمائه وصفاته (من عظمة وعزة ورحمة وكرم ومجد وحمد وغيره) وأفعاله، فالنزاهة كاملة عن العيب والنقص والشر والمثل والشريك، وأما كمال الطَّهارة ملكًا فهو الذي يُطَهَّر من أراد أن يُطَهَّر من خلقه، ومن لم يرد أن يُطَهَّر فقد هلك في الأرجاس والأنجاس والأدناس؛ إذ لا يملك الطَّهارة إلا الله، وأما كمال البركة وصفًا فهو أن كل كمال لله فهو خير مطلق (حتى في صفات البطش والقهر والانتقام فهي عدل والعدل خير) وهذا الخير المطلق، المتنوع بتنوع الكمالات، هو من لوازم الذات، فهو خير دائم باقٍ ببقاء الله الحي الذي لا يموت، وذلك هو التبارك الذي يختص به الله سبحانه (خير مطلق بدوام مطلق) فلا يتطرق إلى الله زوال أو تغير أو تحول أو تبدل، وأما كمال البركة ملكًا فهو الذي يملكها ولا يملك أحدٌ من خلقه مثقال ذرة منها؛ بل هو الذي يبارك على من شاء أن يجعله مباركًا من خلقه من الملائكة والنبين والصالحين والأزمنة والأمكنة وغيرها.

عن أبي بن كعب قَالَ: كان رسول الله ﷺ: «يَقْرَأُ فِي الْوُتْرِ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(١).

هذا الذكر بعد صلاة الوتر، أي بعد نهاية عمل اليوم والليلة كمسك الختام للعمل اليومي، الذي هو تقديس لله عز وجل ثم هو تقديس (تطهير وتبريك) للروح والقلب ليكون لائقًا بمقام القدوس ولقائه عز وجل.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٨٤).

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»^(١).

معنى القدوس يجمع معنى الطهر والبركة لغة وشرعاً: قَالَ ابْنُ فَارِسٍ فِي الْمَقَائِيسِ («قُدُس» الْقَافُ وَالِدَالُ وَالسَّيْنُ أَصْلُ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى الطَّهْرِ. الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ: الْمُطَهَّرَةُ) وَكَذَا فِي اللِّسَانِ.

(القدس: الطَّهارة، روح القدس: جبريل عليه السلام لأنه خلق من طهارة، ومعناه روح الطَّهارة، القدس: البركة. الأرض المقدسة: المباركة، لا قُدَّسه الله: لا بَارِكْ عَلَيْهِ، التَّقْدِيسُ: التَّطْهِيرُ وَالتَّبَرُّكُ).

والماء موصوف في القرآن بالطهر وموصوف بالبركة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ [ق: ٩]، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ كِتَابُ الْمَنَاقِبِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَيَّ عَلَى الطَّهْرِ الْمُبَارِكِ وَالْبَرَكَةِ مِنَ اللَّهِ»^(٢).

وحول الأقصى أرض مقدسة. قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]، وَكَذَلِكَ هِيَ أَرْضُ مَبَارَكَةٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وَهَذِهِ الْأَرْضُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ حَكَمَ الْإِسْلَامِ وَشِرَائِعِهِ (وهذا تقديس عظيم) وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُحَلًّا لِلْجِهَادِ وَإِهْرَاقِ الدِّمَاءِ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (وذلك أيضاً تقديس عظيم) وَالتَّطَهُّرُ وَالتَّطَهُّرُ كَالْمُتَلَاذِمِينَ، فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا طَهَّرَ وَتَنَظَّفَ مِمَّا يَفْسِدُهُ زَكَوْنًا وَصَلَحَ وَزَادَ فِي نَفْسِهِ كَالزَّرْعِ يَنْقَى مِنَ الدَّغْلِ، وَالنَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالتِّيْ مَعْنَاهَا كَثْرَةُ الْخَيْرِ وَدَوَامِهِ.

وأيضاً المسجد الأقصى هو بيت المقدس لأنه يتطهر فيه من الذنوب، وفي ذلك بركة عظيمة؛ إذ ليس بعد المغفرة إلا الجنة.

وأيضاً: الجنة فهي (حظيرة القدس)^(٣) إذ ليس فيها إلا طاهر طهارة تليق بمجاورة

(١) أخرجه مسلم (٤٨٧) باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٢) تقدم.

(٣) لما رواه البزار بإسناد حسن. من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ وَهُوَ يَقْدِرُ

القدوس عز وجل ولا يدخلها على المؤمنين إلا طاهر مُطَهَّر.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ الآية [الرعد: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وبركاتها تفتح على أهلها بمزيد لا ينتهى، فهى جنة عرضها السماوات والأرض وموضع سوط فيها خير من الدنيا وما فيها كما فى حديث سهل بن سعد الساعدي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١). فكم يكون خيرها !! رزقها ما له من نفاذ ودوامها أبد الآباد، ومن ثم لا تنتهى بركاتنا فلا يحصى إلا رب العباد. إن رزق الحياة الدنيا منذ بدء الخلق وإلى يوم القيامة لا يعد شيئاً يذكر أمام رزق الجنة وخيرها، بل من الظلم البين مقارنة الضئيل المنقطع بدائم لا يحصى، فالجنة التى هى (حظيرة القدس) هى موضع بركات الملك القدوس الذى تبارك سبحانه، وتبارك اسمه. فتبين غاية البيان أن مادة (قدس) تجمع مادتي الطهر والبركة^(٢).



= عليه لأسقيه منه فى حظيرة القدس من ترك الحرير وهو يقدر عليه لأكسونه إياه فى حظيرة القدس». وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٠٦٤)، (٢٣٧٥) وانظر مجمع الزوائد (١١٩/٥) رقم: (٨٢١٨).
(١) أخرجه البخارى (٣٠٧٨) باب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ.، ومسلم (١٨٨١) باب فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله.

(٢) انظر شرح اسم الله القدوس/ فوزى السعيد ص: (١٥-١٧).

أسباب تحصيل البركات والخيرات

١- بركة الإيمان والتقوى

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لتبدلت الحال، ولحلت عليهم البركات، ولأفاض الله عليهم من رزقه في السماء والأرض، ولأنعم عليهم نعيمه المبارك الذي تطمئن به الحياة، ولا يعقبه النكال والوبار..^(١)

فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح. وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال. فهي قوة بلا أمن. وهو متاع بلا رضى. وهى وفرة بلا صلاح. وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد. وهو الابتلاء الذى يعقبه النكال..

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات فى الأشياء، وبركات فى النفوس، وبركات فى المشاعر، وبركات فى طيبات الحياة.. بركات تنمى الحياة وترفعها فى آن. وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردى والانحلال^(٢).

وقال الفخر الرازى: بركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، وكثرة المواشى والأنعام، وحصول الأمن والسلامة، وذلك لأن السماء تجرى مجرى الأب، والأرض تجرى مجرى الأم، ومنها يحصل جميع المنافع والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره^(٣). وقال الإمام البغوى: يعنى: المطر من السماء والنبات من

(١) فى ظلال القرآن - سيد قطب (٣/ ١٣٣٥).

(٢) المرجع السابق (٣/ ١٣٣٩، ١٣٤٠).

(٣) مفاتيح الغيب/ فخر الدين الرازى (١٤/ ١٥١) دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م الطبعة: الأولى.

الأرض.

وأصل البركة: المواظبة على الشيء، أى: تابعنا عليهم المطر والنبات ورفعنا عنهم القحط والجذب، ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال الخبيثة^(١)

أولاً: بركات الإيمان: ومن بركات الإيمان تحريم مال المؤمن ودمه: لقوله عليه الصلاة والسلام: عن أبي مالك عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم الله ماله ودمه وحسابه على الله»^(٢).

وعن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقات من جهينة فصباحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشينا قال لا إله إلا الله فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتله قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لى: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله» قال قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً قال: فقال: أقتلته: «بعد ما قال لا إله إلا الله» قال فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم^(٣).

ومن بركات الإيمان الثواب العظيم للمؤمنين: فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه»^(٤).

(١) معالم التنزيل/ أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى (٣/ ٢٦٠)، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م - حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣) باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(٣) أخرجه البخارى (٤٠٢١) باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، ومسلم (٩٦) باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله.

(٤) أخرجه البخارى (٦٠٤٠) باب فضل التهليل، ومسلم (٢٦٩٢) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» ^(١).

وعباد بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله من أي أبواب الجنة الثانية شاء» ^(٢).

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام ديناً غفر له ذنبه» ^(٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فتلك تسعة وتسعون وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر» ^(٤).

ومن بركات الإيمان راحة البال وهدوء النفس: قال تعالى في حق أهل بدر الموحدين الذين لم يشركوا برهم شيئاً ولا يستغيثون إلا به ولا يرجون إلا هو: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِ بْنِ الْمَلِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ۚ﴾ [الأنفال: ٩-١١].

فتوحيد الله وصدق التوجه إليه، والاستغاثة به وحده كان سبباً في نزول الملائكة

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٢) باب قوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨) باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٦) باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه.

(٤) أخرجه مسلم (٥٩٧) باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته

للبشارة والاطمئنان.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ «إذا تضور من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السماوات الأرض وما بينهما العزيز الغفار» ^(١).

فهذا رسول الله ﷺ يأمر الأمة بالتوحيد إذا أصابهم قلق عند النوم لتهدأ أنفسهم.

ومن بركات الإيمان كشف الكرب وذهاب الغم: قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٨٧) **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** ^(٨٨) ﴿[الأنبياء: ٨٧، ٨٨]﴾. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ^(١٤٣) **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ^(١٤٤) ﴿[الصفافات: ١٤٣-١٤٤]﴾ وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٨٧) **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** ^(٨٨) ﴿[الأنبياء: ٨٧، ٨٨]﴾ قاله سعيد بن جبير وغيره ^(٢).

عَنِ أَنَسٍ رَفَعَهُ: «أن يونس النبي ﷺ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه فى البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعرء» ^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب لا إله إلا الله

(١) صحيح: أخرجه النسائي والحاكم، وصححه الألبانى صحيح الجامع (٤٦٩٣)، والصحيحة (٢٠٦٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٩/٧).

(٣) إسناده ضعيف: رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره رقم (١٤٥٧٦)، ورواه ابن جرير فى تفسيره (١٠٩/٢١) عن أنس مرفوعاً. وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف زاهد.

العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم^(١). وعن أسماء بنت عميس قالت قال لى رسول الله ﷺ «ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب أو فى الكرب الله الله ربى لا أشرك به شيئاً»^(٢).

الإيمان أثقل ما وضع فى الميزان: فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتذكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبى الحافظون؟ فيقول: لا يارب فيقول: أفلك عذر؟ قال لا يارب فيقول بلى. إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول احضر وزنك. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم قال: فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء»^(٣).

الإيمان أساس قبول العمل: قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال ابن كثير: أى: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ^(٤).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»^(٥).

(١) أخرجه البخارى (٥٩٨٥) باب الدعاء عند الكرب، ومسلم (٢٧٣٠) باب دعاء الكرب.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (١٥٢٥).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذى وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٤٣٠٠)، والمشكاة (٥٥٥٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢٠٥/٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) باب من أشرك فى عمله غير الله، وفى رواية لابن ماجه: قال الله عز وجل أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال أرأيت رجلاً غزاً يلمس الأجر والذكر ما له فقال رسول الله ﷺ «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات يقول رسول الله ﷺ «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه»^(١).

مغفرة الذنوب من بركات الإيمان: لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل: «قال أذنب عبد ذنباً فقال اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أى رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى عبدى أذنب ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أى رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى عبدى ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب اعمل ما شئت فقد غفرت لك»^(٢).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما من نفس تموت وهى تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا غفر الله لها^(٣).

عن أبى ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئاً لقيته بمثلها مغفرة^(٤).

(١) حسن: أخرجه النسائي، وحسنه الألبانى فى سنن النسائي (٣١٤٠) الصحيحة (٥٢)، صحيح الترغيب والترهيب، (١٣٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٨) باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٢٧٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»^(١).

المؤمنون شفعاء في الدنيا والآخرة وهم أسعد الناس بشفاعه النبي ﷺ:

عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال تقول هم أربعون قال نعم قال أخرجه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفّعهم الله فيه»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيأتون موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بـعيسى فإنه روح الله وكلمته فيأتون عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد فيأتوني فأقول أنا لها فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محمداً أحده بها لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وقل تعطه واشفع تشفع فأقول يارب أمتي أمتي فيقال انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان فأنتطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وقل تعطه واشفع تشفع فأقول يارب أمتي أمتي فيقال انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردلة من إيمان فأخرجه من النار فأنتطلق فأفعل ثم أعود الرابعة

(١) حسن: أخرجه الترمذي وقال حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (٩٤٨) باب من صلى عليه أربعون شفّعوا فيه.

فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وقل تعطه واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال ليس ذلك لك ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»^(٢).

من بركات الإيمان التمكين في الأرض: قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وتتجلى هذه الصورة فيما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «سمعت بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر قالوا نعم يا رسول الله قال لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بنى إسحاق فإذا جاءوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم قالوا لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها قال ثور لا أعلمه إلا قال الذي في البحر ثم يقولوا الثانية لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الآخر ثم يقولوا الثالثة لا إله إلا الله والله أكبر فيدخلوها فيغنموا فبينما هم يقتسمون المغنم إذ جاءهم الصريخ فقال إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون»^(٣).

قال القاضي: كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم: (من بنى إسحاق). قال: قال بعضهم: المعروف المحفوظ من (بنى إسماعيل)^(٤)، وهو الذي يدل عليه الحديث

(١) أخرجه البخارى (٧٠٧٢) باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم (١٩٣) باب أدنى أهل الجنة منزلة فيه.

(٢) أخرجه البخارى (٩٩) باب الحرص على الحديث.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٢٠) باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٣/١٨-٤٤)، وانظر الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ عبدالرحمن بن أبي بكر أبو الفضل السيوطي. (٦/٢٣٥-٢٣٦).

وسياقه؛ لأنه إنما أراد العرب، وهذه المدينة هي القسطنطينية. فعلى المسلمين إن أرادوا التمكين في الأرض أن يأتوا بالتوحيد كاملاً غير منقوص قبل أى إعداد من علوم ومن عدد وعدد، فهذا الفتح المنصوص عليه في الحديث بدون سلاح، وإنما بالتوحيد الفعلى، ثم القولى، فهو قذائف الحق من قلوب شهدت أنه لا إله إلا الله ففتح الله لها، ولا يأتى الفتح لأقوام أشربت قلوبهم الشرك والبدعة مهما أوتوا من قوة.

ومن بركات الإيمان أن أهل الإيمان لا يخلدون في النار وإن دخلوها:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»^(١). وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان قال أبو سعيد فمن شك فليقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يعذب ناس من أهل التوحيد في النار، حتى يكونوا فيها حمماً، ثم تدركههم الرحمة، فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة، قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء، فينبتون كما ينبت الغشاء في حمالة السيل، ثم يدخلون الجنة»^(٣).

(١) أخرجه البخارى (٤٤) باب زيادة الإيمان ونقصانه، ومسلم (١٩٣) باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.
(٢) صحيح: أخرجه أحمد والترمذى والنسائى وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٥٩٨)، والصحيحة (٢٤٥٠).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٥٩٧)، والصحيحة (٢٤٥١).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمماً فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل أو قال حمية السيل» وقال النبي ﷺ ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية»^(١).

وقد لا تمس النار المؤمن أصلاً لما رواه أبو هريرة و أبو سعيد أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل: صدق عبدى لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال العبد: لا إله إلا الله وحده، قال: صدق عبدى لا إله إلا أنا وحدى، وإذا قال: لا إله إلا الله لا شريك له، قال: صدق عبدى لا إله إلا أنا ولا شريك لى، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد: قال: صدق عبدى لا إله إلا أنا لى الملك و لى الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدى لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بى، من رزقهن عند موته لم تمسه النار»^(٢).

وعن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال «يا معاذ بن جبل قال: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا قال: «إذا يتكلموا وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً»^(٣).

وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة التى نوه إليها الطحاوى رحمه الله فى العقيدة الطحاوية بقوله: وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فى النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين «مؤمنين»^(٤) وهم فى مشيئته

(١) أخرجه البخارى (٢٢) باب تفاضل أهل الإيمان فى الأعمال.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذى وابن ماجة وابن حبان، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٣٩٠).

(٣) أخرجه البخارى (١٢٨) باب من خص بالعلم قومادون قوم كراهية أن لا يفهموا، ومسلم (٣٢) باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(٤) وفى بعض المخطوطات زيادة، وهى زيادة هامة لم تثبت فى بعض النسخ ومنها نسخة الشارح فقد قال:

وحكمه: إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضلهم كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وإن شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته^(١).

الكبائر هي الذنوب التي دون الشرك وفوق الصغائر، وضابط الكبيرة هو: كل ذنب رُتب عليه حد، أو ختم بغضب أو لعنة أو نار، أو تبرى الرسول ﷺ من فاعله، فإن هذا كبيرة، كقوله: «من غشنا فليس منا»^(٢)، «من حمل علينا السلاح فليس منا»^(٣). كل هذه الاعتبارات تدل على أن الذنب كبيرة، ولكنها دون الشرك، فصاحبها لا يخرج من الإيمان، وإنما يكون مؤمناً ناقص الإيمان، أو يسمى فاسقاً، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، لا يكفرون بالكبائر التي دون الشرك، ولكن لا يمنحون صاحبها اسم الإيمان المطلق، ولكن يمنحونه إيماناً مقيداً؛ فيقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. فلا يقال: هو مؤمن كامل الإيمان، كما تقوله المرجئة، ولا يقال: هو خارج من الإسلام، كما تقوله الخوارج والمعتزلة. إذاً: فالناس في صاحب الكبيرة التي هي دون الشرك ثلاث طوائف: الخوارج والمعتزلة: أخرجوه من الإسلام، لكن الخوارج أدخلوه في الكفر، والمعتزلة لم يدخلوه، وقالوا: هو في منزلة بين المنزلتين، ولكنهم أخرجوه من الإسلام.

المرجئة قالوا: هو مؤمن كامل الإيمان، طالما أنه يعتقد في قلبه الإيمان عند

= وقوله: (عارفين)، لو قال: مؤمنين، بدل (عارفين) كان أولى، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر، وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم وقوله مردود باطل... انظر - التعليقات الأثرية على العقيدة الطحاوية لأئمة الدعوة السلفية. جمع وإعداد/ أحمد بن يحيى الزهراني.

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص: (٣٦٩) ط: المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الرابعة، ١٣٩١.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١) باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٥٩) باب قول النبي ﷺ من حمل علينا السلاح فليس منا، ومسلم

جمهورهم وينطق بلسانه عند بعضهم، فإنه مؤمن كامل الإيمان، ولا تنقص هذه المعاصي من إيمانه، وإن كانت كبائر، وهذا ضلال أيضًا.

أما القول الحق فهو مذهب أهل السنة والجماعة: أن صاحب الكبيرة دون الشرك مؤمن، وليس بكافر، لكنه ناقص الإيمان. فهذا يجب معرفته، ويجب أن ترسخه في عقلك، فأهل الشر زاد شرهم في هذا الوقت، وصاروا يظهر من مذهب الإرجاء ليروجوه على الناس، وليستروا على أنفسهم ما هم فيه من الضلال. فهذا معرفته من أوجب الواجبات على طالب العلم اليوم.

هذا هو المذهب الحق: أن أصحاب الكبائر التي دون الشرك ليسوا كفارًا، وأنهم إذا لقوا الله ولم يتوبوا من هذه الكبائر فإنهم تحت المشيئة، إن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم، ثم يخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بتوحيدهم وإيمانهم، لا يخلدون في النار، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وإن شاء الله أمضى فيهم الوعيد، ولكنهم لا يخلدون في النار، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا هو المذهب الحق، بخلاف

الخوارج الذين يقولون: إنهم في النار على أى حال، وإنهم خالدون فيها، فمن دخل النار عندهم لا يخرج منها. وخلاف المرجئة القائلين: إنهم لا يمرون على النار أبدًا، فهذا غير صحيح، بل لا نضمن لهم النجاة، فهم تحت المشيئة.

إن شاء عفا عنهم بفضلهم، وإن شاء عذبهم بعدله، وما ظلمهم الله سبحانه وتعالى، بل عذبهم بأعمالهم التي أوجبت لهم ذلك، فالله لا يعذب من لم يعصه، ولا يساوى بين العاصي وبين المؤمن المستقيم، ﴿فَنَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْجُزْءِ الْبَرِّ﴾ [٢٥] ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [٣٦] ﴿[القلم: ٣٥، ٣٦] أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٢٨] ﴿[ص: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٢١] ﴿[الجاثية: ٢١] إِلَى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله لا يسوى بين أهل طاعته وأهل معصيته، ولا بين أهل الإيمان وأهل الكفر، بل يجازى كلًا بعمله. ولم يجعلهم في الدارين

كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته بل ميز بينهم سبحانه في الدنيا وفي الآخرة، ميز بين أهل الطاعة والمعصية، وبين أهل الكفر والإيمان، في الدنيا وفي الآخرة، ميز بينهم في الدنيا في صفاتهم وعلاماتهم وأفعالهم، فليست أفعال أولياء الله وأهل الطاعة مثل أفعال أعدائه ولا أقوالهم ولا تصرفاتهم، انظر إلى الناس الآن، وانظر إلى تصرفاتهم، انظر إلى تصرفات المتقين والمؤمنين، وانظر إلى تصرفات الفسقة والعاصين، وانظر إلى تصرفات الكفار والملحدين، هذا في الدنيا.

وفي الآخرة كذلك يميز الله بينهم، فهو لاء يكرمهم بجنته، وهو لاء يعذبهم بناره وعقوبته؛ لأنه سبحانه حكيم يضع الأمور في مواضعها، فلا يضع الرحمة إلا فيمن يستحقها، ولا يضع سبحانه وتعالى العذاب إلا فيمن يستحقه.

وبهذا يتبين أن المؤمنين من هذه الأمة لا يخلدون في النار، وإن دخلوها، فإنهم بعد ما تكفر عنهم سيئاتهم يخرجون منها، هذه عقيدة أهل السنة، وإن خالفهم في ذلك من خالفهم فلا عبرة بمخالفتهم.^(١)

البشرى لهم في الحياة الدنيا وعند الممات: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. عن سهل بن حنيف وعن زيد بن خالد الجهني مرفوعاً: بشر الناس أنه من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وجبت له الجنة.^(٢)

(١) انظر التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية/ صالح الفوزان: ص: (٩١-٩٤)، وشرح

العقيدة الطحاوية/ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبرين - الدرس رقم: (٥٣).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد، والنسائي في الكبرى (٢٧٣/٦) رقم: (١٠٩٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٤)، والصحيحة (٢/٢١١) (٧١٢)، والمجمع (١/١٨) من رواية الطبراني في «الكبير» عن زيد بن خالد وقال: «و رجاله موثقون».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائتي مرة في يوم لم يسبقه أحد كان قبله ولم يدركه أحد بعده إلا من عمل بأفضل من عمله» ^(١).

عن عتبان بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» ^(٢). وقد روى عن عبد الله بن مسعود وأبي ذر وعمران ابن حصين وجابر بن عبد الله وابن عباس وأبي سعيد الخدري وأنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «سيخرج قوم من النار من أهل التوحيد ويدخلون الجنة هكذا» روى عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغير واحد من التابعين في تفسير هذه الآية: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الحجر: ٢] قالوا إذا أخرج أهل التوحيد من النار وأدخلوا الجنة ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ^(٣). عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال: «يا معاذ بن جبل» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا قال: «إذا يتكلموا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً ^(٤).

أى خوفاً من أن يحمل إثماً بسبب كتمان هذا الحديث العظيم الجليل الذي يحمل البشرى لكل مؤمن مخلص الإيمان لله تعالى ^(٥).

وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالتثبيت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال في كتابه العزيز:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ

(١) حسن: أخرجه أحمد بإسناد جيد والطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٥) باب المساجد في البيوت، ومسلم (٣٣) باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر.

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (٢٦٣٨)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي (١٣٨/٦).

(٤) تقدم.

(٥) النفائس الزكية من الخطب المنبرية ص: (٢٨٠).

الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

عن البراء بن عازب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾» (١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال نبي الله ﷺ: «فيراها جميعاً» قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملاً عليه خضراً إلى يوم يبعثون (٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يُصْعِدَانِهَا. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبَل الأرض، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدِكَ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من نتنها وذكر مقتاً، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردَّ رسول الله ﷺ رِبْطَةً كانت عليه على أنفه هكذا (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٢) بَاب ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ واللفظ له، ومسلم (٢٨٧١) بَاب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٣) بَاب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم (٢٨٧٠) بَاب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه. واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٢) بَاب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه.

ليناولوه بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأتنت ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض» (١).

وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسع له في قبره مد بصره. وأما الكافر فتنزّل عليه الملائكة، فيسبطون أيديهم - «والبسط»: هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذي بُعث إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين. (٢).

ثانياً: بركة التقوى: كما وعد الله عز وجل أهل التقوى بالمخرج من كل ضيق فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ولا شك أن العبد في حال السكرات في شدة وحرّج، والمخرج والنجاة في الذكر والطاعة، والنطق بكلمة التوحيد كما وعد الله عز وجل المتقين باليسر بعد الشدة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] (٣).

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه وهو عند ابن ماجه بنحوه بإسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٥٠٢/٤).

(٣) تذكير النفوس المؤمنة ص: (٩٨) وانظر النفائس الزكية من الخطب المنبرية (٢٨١).

وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك وهو فعل طاعته واجتنابُ معاصيه^(١).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عن عبد الله بن مسعود: قال: قال رسول الله ﷺ: «حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، أن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»^(٢).

قال ابن رجب وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة - وسئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريق ذا شوك؟ قال نعم، قال: فكيف فعلت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ قال الحسين بن الفضل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أداء الفرائض، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ من العقوبة. ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الثواب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أى يبارك له فيما آتاه. وقيل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجًا بالكفاية. وقال ابن عيينة: هو البركة في الرزق.

وقال قتادة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أى: من شبهات الأمور والكرب عند الموت، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل^(٣).

وقال أبو ذر: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم - ثم تلا - ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فما زال يكررها ويعيدها»^(٤).

(١) جامع العلوم والحكم/ ابن رجب الحنبلي: ص (١٥٨). - ط: دار المعرفة - بيروت.

(٢) صحيح موقوف: أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٢٩٤) من حديث مسعر، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود، مرفوعاً فذكره. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر أنه موقوف والله أعلم، وصححه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ١٤٧).

(٤) ضعيف: أخرجه أحمد في الزهد، وابن ماجه، والدارمي، وابن حبان والحاكم من حديث أبى ذر مرفوعاً وهو في مسند أحمد مطولاً (ج ٥: ص: ١٧٨)، وضعفه الألباني في المشكاة (٦/ ٥٣٠).

وقال محمد بن إسحاق: جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال: له أسر ابني عوف. فقال له رسول الله ﷺ: «أرسل إليه أن رسول الله يأمر أن تكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله». وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد^(١) عنه، فخرج، فإذا هو بناقة لهم فركبها، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه فصاح بهم، فاتبع أولها آخرها، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب، فقال أبوه: عوف ورب الكعبة. فقالت أمه: واسوأ تاه. وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد - فاستبقا الباب والخادم، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا فقص على أبيه أمره وأمر الإبل، فقال أبوه: قفا حتى آتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها. فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل، فقال له رسول الله ﷺ: «اصنع بها ما أحببت، وما كنت صانعاً بهالك. ونزل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٢) وَزَرْقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(٣).



(١) القد: القيْد. والقدُّ: السير الذي يُقَدُّ من الجلد. والقدُّ بالكسر: سَيْرٌ يُقَدُّ من جلد غير مدبوغ. لسان العرب مادة (قدد) (٣/٣٤٣)، و(٣/٣٧٢).

(٢) **موضوع:** أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/٨٩) من حديث ابن عباس، والضَّحَّاكُ ضَعِيفٌ، ولم يسمع من ابن عَبَّاسٍ وجوهر كَيْسٍ بشيء، وإِسْمَاعِيلُ كَذَابٌ، وإِسْمَاعِيلُ رَوَى لَهُ ابْنُ مَاجَةٍ، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٢/١٣٧)، وابن الجوزي في الموضوعات الكبرى (٢/٢٢٩) وللحديث طرق أخرى، وروى أيضًا من طريق سالم بن أبي الجعد، مرسلًا نحوه، وَقَالَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢/٥٣٤) رقم: (٣٨٢٠): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: بل منكر.

٢- بركة الطاعة

المسلم يعيش مباركاً في العمل وفي الزمن، وأعظم البركة في العمل الطاعة؛ إذ هي بركة على أهلها كما يقول تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وكما قال ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، ومن همَّ بسيئة فعملها كتبها الله سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك»^(١). وهذا يدل على أن الطاعة بركة في القول؛ إذ الكلمة الواحدة من الطاعة بعشر حسنات يكتب الله بها رضوانه، فيحفظ بها عبده حتى يُدخله الجنة، ويرضى عليه في الجنة فلا يسخط عليه أبداً.

والطاعة بركة في العمل؛ إذ الصلاة بعشر صلوات كما في الحديث القدسي: «أُمضيت فريضتي وخففت عن عبادي وأجزى بالحسنة عشر أمثالها»^(٢).

فهى خمس في الفعل وخمسون في الأجر والثواب. وصوم رمضان بعشرة أشهر كما في الحديث: عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من صام ستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها»^(٣).

و«صيام شهر رمضان بعشرة أشهر وصيام ستة أيام بعده بشهرين فذلك صيام السنة»^(٤)، والصدقة بسبعمائة ضعف فعن خريم بن فاتك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه البخارى (٦١٢٦) باب من هم بحسنة أو بسيئة، ومسلم (١٣١) باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب. من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٧٤) باب المعراج.

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه والنسائى ولفظه جعل الله الحسنة بعشر أمثالها فشهر بعشرة أشهر وصيام ستة أيام بعد الفطر تمام السنة. والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه ولفظه قال صيام شهر رمضان بعشرة أشهر وصيام ستة أيام بشهرين فذلك صيام السنة. وابن حبان فى صحيحه ولفظه من صام رمضان وستاً من شوال فقد صام السنة. وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٠٠٧).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٥١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

«من أففق نفقة في سبيل الله كتبت بسبعمائة ضعف»^(١)، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٢).

والطاعة طهرة من الذنوب، فالصلاة طهرة من الذنوب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرايتم لو أن نهراً بياض أحدمكم يغتسل فيه كل يوم خمسا هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»^(٣) وفي رواية «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غمر على باب أحدكم يغتسل منه خمس مرات قال: قال الحسن: وما يبقى ذلك من الدرنة»^(٤).

والصوم طهرة من الآثام كما في الحديث: عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احضروا المنبر» فحضرنا فلما ارتقى درجة قال: «آمين» فلما ارتقى الدرجة الثانية قال: «آمين» فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال: «آمين» فلما نزل قلنا يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسמע قال: «إن جبريل عليه السلام عرض لي فقال بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له قلت: آمين فلما رقيت الثانية قال بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين فلما رقيت الثالثة قال بعد من أدرك أبويه الكبير عنده أو أحدهما فلم يدخلا الجنة قلت آمين»^(٥)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من

(١) صحيح: أخرجه النسائي والترمذي وقال حديث حسن وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٢٣٦)، والمشكاة: (٣٨٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٨٣) باب وجوب العمرة وفضلها، ومسلم (١٣٤٩) باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٥) باب الصلوات الخمس كفارة، ومسلم (٦٦٧) باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات.

(٤) أخرجه مسلم (٦٦٨).

(٥) صحيح: رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٩٩٥)، (١٦٧٧).

ذنبه»^(١)، و«الصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار»^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٣). والطاعة بركة في التعامل؛ إذ بالتعامل الحسن يدرك الإنسان درجة الصائم القائم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»^(٤).

ويجاور الرسول ﷺ، ويحظى ببيت في أعلى الجنة، ويكمل إيمانه، ويثقل ميزانه. عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»^(٥).

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»^(٦). قال ابن القيم رحمه الله: مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها كمثال نواة غرستها فصارت شجرة ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه وكذلك تداعى المعاصي، فليتدبر اللبيب هذا المثال فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها^(٧). ومن المعلوم أن

(١) أخرجه البخارى (٣٨) باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان، ومسلم (٧٦٠) باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وابن ماجه، والبيهقى في شعب الإيمان، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٣) أخرجه البخارى (١٤٤٩) باب فضل الحج المبرور، ومسلم (١٣٥٠) باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) وصححه الألبانى في المشكاة (٥٠٨٢).

(٥) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٠٠) واللفظ له وابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن، وحسنه الألبانى في الصحيحة (٢٧٣).

(٦) صحيح: أخرجه أبو داود والترمذى، قال أبو عيسى هذا حديث غريب من هذا الوجه. وصححه الألبانى في صحيح الترمذى (٢٠٨٧)، الصحيحة (٨٧٦)، الإرواء (٩٤١).

(٧) الفوائد/ ابن القيم (٣٥ / ١) دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

الطاعة تتبع أختها، والمعصية كذلك، وكلما ازداد العبد طاعة وقرّباً كلما يُسرّ له في عمل الصالحات، وأضحت أهون عليه من كل شيء، وأحب إليه من أي شيء. ومن أعظم بركات الطاعة أنها سبب لحسن الخاتمة فإن من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بعث عليه، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: «من مات على شيء بعثه الله عليه»^(١).

من عاش في كنف الإيمان كان له أمناً عاش رضى النفس مغتبطاً

فانظر لنفسك أيها المسلم على أي حال أنت الآن فإن كنت على الطاعة والخير والذكر ومحبة ما يحب الله ورسوله فأبشر بالخير لأن العزيز على ربه هو الذي يوظفه فيما يحبه ويرضاه وإن كنت على الفسق والتفريط والغفلة ومجالسة الأشرار فإنها الطامة الكبرى والداھية العظمى فإن الهين على ربه يشتغل بما يسخط الله من رذائل الأعمال وقبائحها.

قال ابن القيم رحمه الله: ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأذنه إليها أژاً وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله إليه الشياطين فتأذنه إليها أژاً فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا أكثر من أعوانه وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه^(٢).

وقال الحافظ ابن كثير: فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياًذاً بالله من خلاف ذلك^(٣).

فإن أردت أخى الحبيب أن تبعث على طاعة فأطع الله جل وعلا في دنياك، وإن زلت قدمك في معصية فأحدث بعد المعصية توبة، فإذا ما جاءك ملك الموت وأنت

(١) صحيح: أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٣)، وصحيح الجامع (٦٥٤٣).

(٢) الجواب الكافي/ ابن القيم: ص (٣٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٨٧/٢).

على طاعة. قبضك وأنت على ذات الطاعة. وحشرت يوم القيامة في زمرة الطائعين تحت لواء سيد النبيين وقائد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ^(١).

الاستقامة والتقوى تجلب البركة على العباد والبلاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي بَعْثًا لَّكُمْ تَجْنِبُونَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمْتُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ [البجن: ١٦].

قال الحسن: لو استقاموا على طاعة الله، وما أمروا به لأكثر الله لهم الأموال حتى يغتنوا بها. ثم يقول الحسن: والله إن كان أصحاب محمد لكذلك، كانوا سامعين لله مطيعين له، فتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمْتُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ قال: طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ قال: لأعطيناهم ما لا كثيرًا^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق.



(١) نفخة البعث - للشيخ / محمد حسان.

(٢) الدر المشثور (٨ / ٣٠٥).

٣- بركة العمل الصالح

قال ابن تيمية - رحمه الله: والبركة تتناول البركة في الدين، والبركة في الدنيا وكلاهما معلوم لا ريب فيه ^(١).

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ أَنْطَلَقَ ثَلَاثَةَ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوْوَا الْمَيِّتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَأَنْحَدَرْتُ صَخْرَةً مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ: كَانَ لِي أَبَوَانِ ^(٢) شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ ^(٣) قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا ^(٤) فَأَتَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أَرُحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَبَلْتُ لَهُمَا عُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَيْشْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاطَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا عُبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَأَنْفَرَجْتُ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَمْتَعْتُ مِنِّي حَتَّى لَمْتُ بِهَا سَنَةً ^(٥) مِنَ السَّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُحَلِّيَ بَنِيَّ وَيَبْنِي نَفْسَهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تُفْضَرَ

(١) مجموع الفتاوى: (٢٧/ ٤٤).

(٢) قوله: (أَبَوَانِ) هُوَ مِنَ التَّغْلِبِ وَالْمُرَادُ الْأَبُ وَالْأُمُّ.

(٣) فقوله (لَا أَغْبِقُ) أَى: مَا كُنْتُ أَقْدِمُ عَلَيْهِمَا أَحَدًا فِي شُرْبِ نَصِيْبِهِمَا عِشَاءً مِنَ اللَّبَنِ، وَالْعُبُوقُ شُرْبُ الْعِشَاءِ، وَالصُّبُوحُ شُرْبُ أَوَّلِ النَّهَارِ.

(٤) وقوله «أَهْلًا وَلَا مَالًا» الْمُرَادُ بِالْأَهْلِ مَا لَهُ مِنْ رُوحٍ وَوَلَدٍ وَبِالْمَالِ مَا لَهُ مِنْ رَقِيقٍ وَخَدَمٍ، وَرَعَمَ الدَّوْدِيُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَالِ الدَّوَابَّ وَتَعَقُّبُهُ وَلَهُ وَجْه. قَالَ الدَّوْدِيُّ: يُرِيدُ بِذَلِكَ الزَّوْجَةَ وَالْأَوْلَادَ وَالرَّقِيقَ وَالدَّوَابَّ، وَتَعَقُّبُهُ إِنْ التَّيَّنَ بَأَنَّ الدَّوَابَّ لَا مَعْنَى لَهَا هُنَا. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ: إِنَّمَا قَالَ الدَّوْدِيُّ ذَلِكَ «وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا» وَهُوَ مُتَّجِهٌ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِمَا أَوْلَادَهُ فَكَذَلِكَ لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِمَا دَوَابَّهُ مِنْ بَابِ الْأَوَّلَى.

(٥) قوله: «الْمَتُّ بِهَا سَنَةً»: أَى: وَقَعْتُ فِي سَنَةٍ قَحْطٍ.

الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ^(١) فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَاَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَاَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءً فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَنَمَرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَأَقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَاَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ ^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ^(٣).

قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الجواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها؛ فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف. وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح، وفيه دليل لصحة أصل الوقف، وعظيم ثوابه، وبيان فضيلة العلم، والحث على الاستكثار منه. والترغيب في توريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع. وفيه أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت، وكذلك الصدقة، وهما مجتمع عليهما، وكذلك قضاء الدين ^(٤).

- (١) قَوْلُهَا: «لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تُفَضَّصَ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ» الْخَاتَمُ كِنَايَةٌ عَنْ بَكَارَتِهَا، «بِحَقِّهِ» أَيُّ: بِنِكَاحٍ لَا بَزْنًا.
- (٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢١٥٢) بَابٍ مِنْ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَتَرَكَ أَجْرَهُ فَعَمِلَ فِيهِ الْمُسْتَأْجَرُ فَرَادَ. وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٣) بَابٍ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْغَارِ الثَّلَاثَةِ وَالتَّوَسُّلِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ.
- (٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٦٣١) بَابٍ مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانُ مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ.
- (٤) شَرْحُ النُّوَى عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٨٥/١١).

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا فلما ولى قال النبي ﷺ: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»^(٢).



(١) صحيح: أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٨)، وصحيح الترغيب (١٦٩٢)، (١٩٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٣) باب وجوب الزكاة، ومسلم (١٤) باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة.

٤- البركة في العمر

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] أى: ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿وَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس.

قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندى ثوب ونصفه» أى: ونصف آخر.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١]، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، وإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قَضِيَتْ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١]، يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قال: ما لَفَظْتَ الأرحام من الأولاد من غير تمام، وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس، يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا.

وقال قتادة: والذى ينقص من عمره: فالذى يموت قبل ستين سنة.

وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أى: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه، بالغ ما بلغ. وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أى: ما يكتب من الأجل ﴿وَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن

أبى مالك، وإليه ذهب السُّدِّيُّ، وعطاء الخراساني. واختار ابن جرير [القول] الأول، وهو كما قال.

قال ابن كثير وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١) أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه شيء (١).

وقال الطبري: إن إحصاء أعمار خلقه عليه يسير سهل، طويل ذلك وقصيره، لا يتعذر عليه شيء منه (٢).

وأخرج النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «مَنْ سَرَّه أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُؤْتَى لَهُ فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ» (٣).

وأخرج ابن أبي حاتم: عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر» (٤).

والتعمير يكون بطول الأجل وعد الأعوام؛ كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقاً مثمراً، واحتشاده بالمشاعر والحركات والأعمال والآثار. وكذلك يكون نقص العمر بقصره في عد السنين؛ أو نزع البركة منه وإنفاقه في اللهو والعبث والكسل والفراغ. ورب ساعة تعدل عمراً بما يحتشد فيها من أفكار ومشاعر، وبما يتم فيها من أعمال وآثار. ورب عام يمر خاوياً فارغاً لا حساب له في ميزان الحياة، ولا وزن له عند الله! (٥).

(١) تفسير ابن كثير (٥٣٩/٦)

(٢) تفسير الطبري (٤٤٩/٢٠)

(٣) أخرجه البخاري (١٩٦١) باب من أحب البسط في الرزق، ومسلم (٢٥٥٧) باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها

(٤) منكر: السلسلة الضعيفة للألباني حديث رقم: (٥٣٢٣).

(٥) في ظلال القرآن (٢٩٣٣/٥).

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» ^(١).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلاً قال يا رسول الله أى الناس خير؟ قال ﷺ: «من طال عمره وحسن عمله» قال: فأى الناس شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله» ^(٢).

وعن أبي مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين اللهم إني أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه وأعوذ بك من شر ما فيه ومن شر ما بعده ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك» ^(٣).

قال الطيبي رحمه الله: إن الأوقات والساعات كرأس المال للتاجر فينبغي أن يتجر فيما يربح فيه وكلما كان رأس ماله كثيراً كان الربح أكثر، فمن انتفع من عمره بأن حسن عمله فقد فاز وأفلح، ومن أضاع رأس ماله لم يربح وخسر خسراناً مبيئاً انتهى ^(٤).



(١) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي وقال حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٣٦٤)، والمشكاة (٢٢٧٠).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي والدارمي وقال الترمذي حديث حسن صحيح وأخرجه الطبراني بإسناد صحيح والحاكم والبيهقي في الزهد وغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٣٦٣).

(٣) حسن: أخرجه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢).

(٤) تحفة الأحوذى - المباركفوري (٥١٢/٦).

٥- البركة في الصحة والبدن والسمع والبصر

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا ^(١) فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ ^(٢) يَحْفَظْكَ ^(٣) احْفَظْ اللَّهَ تَحِذْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ ^(٤) فَاسْأَلِ اللَّهَ ^(٥) وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ^(٦).

«احفظ الله» أى فى أمره ونهيه «يحفظك» أى: يحفظك فى الدنيا من الآفات والمكروهات وفى العقبى من أنواع العقاب والدركات «احفظ الله تجده تجاهك» قال الطيبى رحمه الله: أى: راع حق الله وتحير رضاه تجده تجاهك أى مقابلك وحذاءك... أى احفظ حق الله تعالى حتى يحفظك الله من مكاره الدنيا والآخرة «إذا سألت» أى: أردت السؤال «فاسأل الله» أى: وحده لأن غيره قادر على الإعطاء والمنع ودفع الضرر وجلب النفع «وإذا استعنت» أى: أردت الاستعانة فى الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة فاستعن بالله فإنه المستعان وعليه التكلان ^(٧).

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ» ^(٨).

قال ابن حجر رحمه الله فى الفتح: قوله «مَنْ يَضْمَنْ» وَالْجَزْمُ مِنَ الضَّمَانِ بِمَعْنَى

- (١) قوله: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا: أى رَافِقُهُ.
- (٢) احْفَظْ اللَّهَ: أى فى أمره ونهيه.
- (٣) يَحْفَظْكَ: أى يَحْفَظُكَ فى الدُّنْيَا مِنَ الْآفَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَفِي الْعُقْبَى مِنْ أَنْوَاعِ الْعِقَابِ وَالذَّرَكَاتِ.
- (٤) إِذَا سَأَلْتَ: أى أَرَدْتَ السُّؤَالَ.
- (٥) فَاسْأَلِ اللَّهَ: أى وَحْدَهُ لِأَنَّ غَيْرَهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ وَجَلْبِ النَّفْعِ.
- (٦) صحيح: أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وقال الترمذى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥٧).
- (٧) تحفة الأحوذى - المبار كفورى (٧/ ١٨٥-١٨٦).
- (٨) أخرجه البخارى (٦١٠٩) باب حفظ اللسان.

الْوَفَاءُ بِتَرْكِ الْمَعْصِيَةِ فَأُطْلِقَ الضَّمَانُ وَأَرَادَ لَا زِمَهُ وَهُوَ أَدَاءُ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ، فَالْمَعْنَى مَنْ أَدَّى الْحَقَّ الَّذِي عَلَى لِسَانِهِ مِنَ النُّطْقِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَوْ الصَّمْتُ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ وَأَدَّى الْحَقَّ الَّذِي عَلَى فَرْجِهِ مِنْ وَضْعِهِ فِي الْحَلَالِ وَكَفَّهِ عَنِ الْحَرَامِ ^(١).

قوله (لَحْيِيه): هُمَا الْعِظَمَاتُ فِي جَانِبَيْ الْفَمِ وَالْمُرَادُ بِمَا بَيْنَهُمَا اللِّسَانُ وَمَا يَتَأَتَّى بِهِ النُّطْقُ، وَبِمَا بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ الْفَرْجُ. وَقَالَ الدَّوْدِيُّ الْمُرَادُ بِمَا بَيْنَ اللَّحْيَيْنِ الْفَمُ، قَالَ: فَيَتَنَاوَلُ الْأَقْوَالُ وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَسَائِرُ مَا يَتَأَتَّى بِالْفَمِ مِنَ الْفِعْلِ، قَالَ: وَمَنْ تَحَفَّظَ مِنْ ذَلِكَ أَمِنْ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، كَذَا قَالَ وَخَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّهُ بَقِيَ الْبَطْشُ بِالْيَدَيْنِ، وَإِنَّمَا مَحْمَلُ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ النُّطْقَ بِاللِّسَانِ أَصْلٌ فِي حُصُولِ كُلِّ مَطْلُوبٍ فَإِذَا لَمْ يَنْطِقْ بِهِ إِلَّا فِي خَيْرٍ سَلِمَ.

وَقَالَ إِبْنُ بَطَّالٍ: دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ الْبَلَاءِ عَلَى الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا لِسَانُهُ وَفَرْجُهُ، فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهُمَا وَفِيَ أَعْظَمُ الشَّرِّ ^(٢) عَنْ أَبِي الْوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ قَالَ حَكَى لِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْقَاضِي أَبَا الطَّيِّبِ صَعِدَ مِنْ سَمِيرِيَّةٍ وَقَدْ تَمَّ لَهُ عَشْرُ الْمِائَةِ فَقَفَزَ مِنْهَا إِلَى الشَّطِّ فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ يَا سَيِّدَنَا لَا تَفْعَلْ هَذَا فَإِنَّ أَعْضَاءَكَ تَضَعُفُ وَرَبَّمَا أَوْرَثَ مِثْلَ هَذِهِ الطُّفْرَةِ فَتَقَا فِي الْمَعَى فَقَالَ يَا هَذَا إِنْ هَذِهِ أَعْضَاءُنَا حَفَظْنَاهَا مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ فَحَفَظَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْغَامِي ابْتَدَأَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ الطَّبْرِيُّ يَدْرُسُ الْفِقْهَ وَيَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ وَلَهُ أَرْبَعُ عَشْرَ سَنَةٍ فَلَمْ يَخْلُ بِهِ يَوْمًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ مَاتَ. قَالَ الْخَطِيبُ وَتَوَفَّى فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِعَشْرِ بَقِيَيْنِ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَدُفِنَ مِنَ الْغَدِ فِي مَقْبَرَةِ بَابِ حَرْبٍ وَحَضَرَتْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ فِي الْمَنْصُورِ وَكَانَ إِمَامًا فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْمُهْتَدِي وَبَلَغَ مِنَ السِّنِّ مِائَةً سَنَةٍ وَسَتِينَ وَكَانَ صَحِيحَ الْعَقْلِ ثَابِتَ الْفَهْمِ يَقْضِي وَيَفْتِي إِلَى حِينِ وَفَاتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٣).

(١) فتح الباري (١١/٣٠٩).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٨٦)، وانظر فتح الباري (١١/٣١٠).

(٣) صفة الصفوة/ ابن الجوزي (٢/٤٩٣-٤٩٤) ط: دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٩ -

٦ - البركة في الحفظ

أبو هريرة رضي الله عنه لا ينسى الحديث أبدًا ببركة دعاء النبي ﷺ له: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَوْ لَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا ثُمَّ يَتْلُو ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الرَّحِيمُ ١٦﴾ ﴿إِنْ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ وَإِنْ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَبَعِ بَطْنِهِ وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ ^(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ قَالَ: «ابْسُطْ رِدْءَكَ» فَبَسَطْتُهُ قَالَ: فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «ضُمَّهُ» فَضَمَمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ ^{(٢)(٣)}.

وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ لِلْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: «كُنْتُ أَنَا وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَآخَرُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُوا. فَدَعَوْتُ أَنَا وَصَاحِبِي وَأَمَّنَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ دَعَا أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِثْلَ مَا سَأَلَكَ صَاحِبَايَ، وَأَسْأَلُكَ عِلْمًا لَا يُنْسَى». فَأَمَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «سَبَقَكُمْ الْغُلَامُ الدَّوْسِيُّ» ^(٤).

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: فَضِيلَةُ ظَاهِرَةِ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَمُعْجَزَةٌ وَاضِحَةٌ مِنْ عِلَامَاتِ

(١) أخرجه البخاري (١١٨) باب حِفْظِ الْعِلْمِ.

(٢) قال ابن حجر قوله: (فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَ) هُوَ مَقْطُوعُ الْإِصَافَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ، وَتَنْكِيرُ شَيْئًا بَعْدَ النَّفْيِ ظَاهِرُ الْعُمُومِ فِي عَدَمِ النَّسْيَانِ مِنْهُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ. وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ عُيَيْنَةَ وَغَيْرِهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي الْحَدِيثِ الْمَاضِي «فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ»، وَفِي رِوَايَةِ يُونُسَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «فَمَا نَسِيتُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ شَيْئًا حَدَّثَنِي بِهِ» وَهَذَا يَقْتَضِي تَخْصِيسَ عَدَمِ النَّسْيَانِ بِالْحَدِيثِ. وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ شُعَيْبٍ: «فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ».

(٣) أخرجه البخاري (١١٩) باب حِفْظِ الْعِلْمِ.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک حديث رقم: (٦٢١٥)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الطبرانی في الأوسط وقيس هذا كان قاص عمر بن عبد العزيز لم يرو عنه غير ابنه محمد، وبقيّة رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد (٩/٦٠٤).

النُّبُوَّةَ ؛ لِأَنَّ التَّسْيَانَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ بِأَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ مِنْهُ ثُمَّ تَخَلَّفَ عَنْهُ بِبَرَكََةِ النَّبِيِّ ﷺ (١).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَرَاعًا يَنْتَرَعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» (٢).

قال ابن حجر في الفتح: قوله: (لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَرَاعًا) أَيْ: مَحْوًا مِنَ الصُّدُورِ، وَكَانَ تَحْدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: لَمَّا كَانَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خُذُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ أَوْ يُرْفَعَ» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: كَيْفَ يُرْفَعُ؟ فَقَالَ: أَلَا إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ ذَهَابُ حَمَلَتِهِ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (٣).

قَالَ ابْنُ الْمُنِير: مَحَوِ الْعِلْمَ مِنَ الصُّدُورِ جَائِزٌ فِي الْقُدْرَةِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ دَلَّ عَلَى عَدَمِ وَقُوعِهِ.

وقال: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ تَرْتِيسِ الْجَهْلَةِ، وَفِيهِ أَنَّ الْفَتْوَى هِيَ الرِّيَاسَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَذِمٌّ مَنْ يُقَدِّمُ عَلَيْهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِخُلُوعِ الزَّمَانِ عَنْ مُجْتَهِدٍ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ بِفَعْلٍ مَا يَشَاءُ.

وَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُ: أَوَّلُ الْعِلْمِ الْاسْتِمَاعُ، ثُمَّ الْإِنْصَاتُ، ثُمَّ الْحِفْظُ، ثُمَّ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّشْرُ. وَعَنِ الْأَصْمَعِيِّ تَقْدِيمُ الْإِنْصَاتِ عَلَى الْاسْتِمَاعِ (٤).

وقال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ (١) فَوَالْتِلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَتِّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سُلِّفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ وَرَوَى مِنْ طَرِيقِ قَتَادَةَ ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أَثْبَتَ فِي الْخَيْرِ ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

(١) فتح الباري (١/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠) باب كَيْفَ يَقْبِضُ الْعِلْمُ، ومسلم (٢٦٧٣) باب رَفَعَ الْعِلْمَ وَقَبِضَهُ وَظَهَرَ الْجَهْلُ وَالْفِتْنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/ ٥) رقم: (٢٢٣٤٤)، والطبراني في الكبير (٧٨٦٧)، (٧٩٠٦).

(٤) فتح الباري (١/ ٢١٧).

أَبْلَغَ فِي الْحِفْظِ ^(١). وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفَظَهُ» ^(٢) حَتَّى يُبْلَغَهُ قُرْبَ حَامِلٍ فَقِهِ ^(٣) إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ^(٤) وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِه ^(٥) ^(٦).

(نَضَرَ اللَّهُ): الْمَعْنَى خَصَّهُ اللَّهُ بِالْبَهْجَةِ وَالشُّرُورِ لِمَا رُزِقَ بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ مِنَ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَنَعَمِهِ فِي الْآخِرَةِ حَتَّى يُرَى عَلَيْهِ رَوْنُقُ الرَّخَاءِ وَالنُّعْمَةِ، ثُمَّ قِيلَ إِنَّهُ إِخْبَارٌ يَعْنِي جَعَلَهُ ذَا نَضْرَةٍ، وَقِيلَ دُعَاءٌ لَهُ بِالنَّضْرَةِ وَهِيَ الْبَهْجَةُ وَالْبَهَاءُ فِي الْوَجْهِ مِنْ أَثَرِ النُّعْمَةِ ^(٧).

قَالَ صَاحِبُ عَوْنِ الْمَعْبُودِ: (نَضَرَ اللَّهُ): قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ الدُّعَاءُ لَهُ بِالنَّضَارَةِ وَهِيَ النُّعْمَةُ وَالْبَهْجَةُ ^(٨). وَقَالَ فِي النَّهَايَةِ: نَضَرَهُ وَنَضْرَهُ وَأَنْضَرَهُ أَيْ نَعَّمَهُ وَيُرَوَّى

(١) المرجع السابق (٢٣/٣).

(٢) فَحَفَظَهُ: أَيْ بِالْقَلْبِ أَوْ بِالْكِتَابَةِ.

(٣) قُرْبَ: قَالَ الْعَيْنِيُّ: رُبَّ لِلتَّقْلِيلِ لِكِنَّةٍ كَثُرَ فِي الْأَسْتِعْمَالِ لِلتَّكْثِيرِ بَحِثْ غَلَبَ حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا حَقِيقَةٌ فِيهِ. حَامِلٍ فَقِهِ: أَيْ عِلْمٌ قَدْ يَكُونُ فَقِيهًا وَلَا يَكُونُ أَفْقَهُ فَيَحْفَظُهُ وَيُبْلَغُهُ.

(٤) إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ: أَيْ قُرْبَ حَامِلٍ فَقِهِ قَدْ يَكُونُ فَقِيهًا وَلَا يَكُونُ أَفْقَهُ فَيَحْفَظُهُ وَيُبْلَغُهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ فَيَسْتَنْبِطُ مِنْهُ مَا لَا يَفْهَمُهُ الْحَامِلُ أَوْ إِلَى مَنْ يَصِيرُ أَفْقَهُ مِنْهُ، إِشَارَةً إِلَى فَائِدَةِ النُّقْلِ وَالِدَّاعِي إِلَيْهِ. قَالَ الطَّبْطَبِيُّ: هُوَ صِفَةُ لِمَدْحُولٍ رُبَّ اسْتَعْنَى بِهَا عَنْ جَوَابِهَا أَيْ رُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ أَذَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

(٥) وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِه: بَيَّنَّ بِهِ أَنَّ رَاوِيَ الْحَدِيثِ لَيْسَ الْفَقَهُ مِنْ شَرَطِهِ إِنَّمَا شَرَطُهُ الْحِفْظُ وَعَلَى الْفَقِيهِ التَّقَهُمُ وَالتَّدَبُّرُ قَالَهُ الْمُتَاوِيُّ. (حَامِلٍ فَقِهِ): أَيْ عِلْمٌ (لَيْسَ بِفَقِيهِه): لَكِنْ يَحْصُلُ لَهُ الثَّوَابُ لِنَفْعِهِ بِالنُّقْلِ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى كَرَاهِيَةِ اخْتِصَارِ الْحَدِيثِ لِمَنْ لَيْسَ بِالْمُتَنَاهِي فِي الْفَقْهِ لِأَنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَطَعَ طَرِيقَ الْأَسْتِنْبَاطِ وَالْإِسْتِدْلَالِ لِمَعَانِي الْكَلَامِ مِنْ طَرِيقِ التَّقَهُمِ، وَفِي ضِمْنِهِ وَجُوبُ التَّقَهُمِ، وَالْحَثُّ عَلَى اسْتِنْبَاطِ مَعَانِي الْحَدِيثِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْمَكْنُونِ مِنْ سِرِّهِ.

(٦) **صحيح:** أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٥٦) وَالنَّسَائِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ مِنْ حَدِيثِ عَبَادِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ ابْنِ مَاجَهَ (٢٣٠)، وَصَحِيحُ التَّرْغِيبِ (٩٠).

(٧) تحفة الأحوذى (٣٤٨/٧).

(٨) عون المعبود شرح سنن أبي داود/ العظيم آبادي (١٠/٦٨) ط. دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤١٥.

بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ مِنَ النَّصَارَةِ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ حُسْنُ الْوَجْهِ وَالْبَرِيقِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ حُسْنَ خُلُقِهِ وَقَدْرَهُ أَنْتَهَى. قَالَ السُّيُوطِيُّ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جَابِرٍ: أَيْ أَلْبَسَهُ نَضْرَةً وَحُسْنًا وَخُلُوصَ لَوْنٍ وَزِينَةً وَجَمَالًا، أَوْ أَوْصَلَهُ اللَّهُ لِنَضْرَةِ الْجَنَّةِ نَعِيمًا وَنَضَارَةً. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ﴾ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يَطْلُبُ حَدِيثًا إِلَّا وَفَى وَجْهَهُ نَضْرَةً.

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ الطَّبْرِيُّ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ قُلْتَ نَضَرَ اللَّهُ إِمْرًا فَذَكَرْتَهُ كُلُّهُ وَوَجْهَهُ يَسْتَهْلِفُ فَقَالَ: نَعَمْ أَنَا قُلْتُهُ. أَنْتَهَى.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى^(١) وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَفِيقٌ^(٢) قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَاءُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ^(٣) أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ^(٤) فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(٥).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ: ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ مَثَلًا بِالْغَيْثِ الْعَامِّ الَّذِي يَأْتِي فِي حَالِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَكَذَا كَانَ النَّاسُ قَبْلَ مَبْعَثِهِ، فَكَمَا أَنَّ الْغَيْثَ يُحْيِي الْبَلَدَ الْمَيِّتَ فَكَذَا عُلُومُ الدِّينِ تُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ. ثُمَّ شَبَّهَ السَّامِعِينَ لَهُ بِالْأَرْضِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَنْزِلُ بِهَا الْغَيْثُ، فَمِنْهُمْ الْعَالِمُ الْعَامِلُ الْمَعْلَمُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ شَرِبَتْ فَانْتَفَعَتْ فِي نَفْسِهَا وَأَنْبَتَتْ فَفَنَعَتْ غَيْرَهَا. وَمِنْهُمْ الْجَامِعُ لِلْعِلْمِ الْمُسْتَغْرِقُ لِرِزْمَانِهِ فِيهِ

(١) قَوْلُهُ: الْهُدَى: أَيْ: الدَّلَالَةُ الْمُوصَّلَةُ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَالْعِلْمُ الْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

(٢) قَوْلُهُ: نَفِيقٌ: مِنَ النَّقَاءِ. وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي مُسْلِمٍ: «طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ» وَالْمُرَادُ بِهَا الْقِطْعَةُ الطَّيِّبَةُ كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ بَقِيَّةُ النَّاسِ، وَمِنْهُ: ﴿فَلَوْلَاكَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾.

(٣) «أَجَادِبُ»: جَمْعُ جَدَبٍ وَهِيَ الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ الَّتِي لَا يَنْضَبُ مِنْهَا الْمَاءُ.

(٤) قَوْلُهُ: فَقَهُ: بِضَمِّ الْقَافِ أَيْ صَارَ فَقِيهًا.

(٥) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٧٩) بَابَ فَضْلِ مَنْ عِلْمٍ وَعِلْمٍ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٨٢) بَابَ بَيَانِ مِثْلِ مَا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ

غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِنَوَافِلِهِ أَوْ لَمْ يَتَّقَهُ فِيمَا جَمَعَ لَكِنَّهُ آدَاهُ لِغَيْرِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الَّتِي يَسْتَقَرُّ فِيهَا الْمَاءُ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِ، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا». وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ الْعِلْمَ فَلَا يَحْفَظُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَنْفُلُهُ لِغَيْرِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ السَّبْخَةِ أَوِ الْمَلْسَاءِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْمَاءَ أَوْ تُفْسِدُهُ عَلَى غَيْرِهَا. وَإِنَّمَا جَمَعَ الْمَثَلُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ الْمَحْمُودَتَيْنِ لِإِشْتِرَاكِهِمَا فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهِمَا، وَأَفْرَدَ الطَّائِفَةَ الثَّلَاثَةَ الْمَذْمُومَةَ لِعَدَمِ النَّفْعِ بِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(١).

عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون منه الشيء ^(٢) فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه ^(٣). ثم قال حذيفة: ما أدرى أنسى أصحابي أم تناسوه والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سمَّاه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً.



(١) فتح الباري (١/ ١٧٧).

(٢) ليكون منه الشيء: الذي أخبر ﷺ عن وقوعه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٣٠) باب وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ومسلم (٢٨٩١) باب إخبار النبي ﷺ فيما

يكون إلى قيام الساعة.

٧- البركة في الرزق

إذا أراد الله بالعبد خيرًا بارك له في رزقه، وكتب له الخير فيما أولاه من النعم، البركة في الأموال، والبركة في العيال، والبركة في الشؤون والأحوال، نعمة من الله الكريم المتفضل المتعال، الله وحده منه البركة ومنه الخيرات والرحمات، فما فتح من أبوابها لا يغلقه أحد سواه، وما أغلق لا يستطيع أحد أن يفتحه.

لذلك إذا أراد الله بالعبد خيرًا بارك له في رزقه وقوته، إنها البركة التي يصير بها القليل كثيرًا، ويصير حال العبد إلى فضل ونعمة وزيادة وخير، فالعبرة كل العبرة بالبركة، فكم من قليل كثره الله، وكم من صغير كبره الله، وإذا أراد الله أن يبارك للعبد في ماله هيأ له الأسباب وفتح في وجهه الأبواب. ومما يشغل بال كثير من الناس، طلب الرزق، وكيف يكون؟ ويلجأ بعضهم إلى طرق ملتوية ومحرمة للحصول على الأرزاق وما علم أولئك أن الحرام يمحى البركة، وجعلوا الأسباب الشرعية التي بها يستجلب الرزق، وبها تفتح بركات السماء.

ومن أعظم الأسباب التي تفتح بها أبواب الرحمات والبركات تقوى الله جل جلاله، تقوى الله التي يفتح الله بها أبواب الرحمات ويجزل بها العطايا والخيرات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٦٦]. الخير كل الخير، وجماع الخير في تقوى الله جل وعلا، ومن اتقى الله جعل له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب، فلن تضيق أرض الله على عبد يتقى الله، ولن يضيق العيش والرزق على من خاف الله واتقاه.

ومن الأسباب التي يفتح الله بها أبواب البركات على العباد. الدعاء والالتجاء إليه جل وعلا، فهو الملاذ وهو المعاذ، فإن ضاق عليك رزقك وعظم عليك همك وغمك وكثر عليك دينك فاقرع باب الله الذي لا يخيب قارعه، وأسأل الله جل جلاله فهو الكريم الجواد، وما وقف أحد ببابه فنجاه، ولا رجاه عبد فخييه في دعائه ورجاه، «دخل النبي يومًا إلى مسجده المبارك فنظر إلى أحد أصحابه وجده وحيدًا فريدًا

ونظر إلى وجه ذلك الصحابي فرأى فيه علامات الهمِّ والغمِّ رآه جالساً في مسجده في ساعة ليست بساعة صلاة فدنى منه الحليم الرحيم صلوات الله وسلامه عليه وكان لأصحابه أبر وأكرم من الأب لأبنائه - وقف عليه رسول الهدى ﷺ فقال: «يا أبا أمامة ما الذي أجلسك في المسجد في هذه الساعة؟» قال: يا رسول الله، هموم أصابتنى وديون غلبتنى - أصابنى الهمُّ وغلبنى الدين الذى هو همُّ الليل وذل النهار فقال: «ألا أعلمك كلمات إذا قلتهم أذهب الله همك وقضى دينك» صلوات ربي وسلامه عليه، ما ترك باب خير إلا ودلنا عليه، ولا سبيل هُدى ورشد إلا أرشدنا إليه فجزاه الله عنا خير ما جزی نبياً عن أمته «ألا أدلك على كلمات إذا قلتهم أذهب الله همك وقضى دينك؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت وأمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال وأرضاه: فقلتهم فأذهب الله همي وقضى ديني»^(١).

الدعاء جبل متين وعصمة بالله رب العالمين ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فإذا أراد الله أن يرحم المهموم والمغموم والمنكوب في ماله ودينه ألهمه الدعاء، وشرح صدره لسؤال الله جل وعلا من بيده خزائن السموات والأرض، يده سحاء الليل والنهار، لا تغيبها نفقة.

عَنْ أَنَسٍ عَنْ أُمِّ سُلَيْمٍ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَسُ خَادِمُكَ ادْعُ اللَّهَ لَهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ»^(٢).

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَثَرَ صُفْرَةٍ فَقَالَ «مُهَيِّمٌ» أَوْ «مَهْمٌ» قَالَ: قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاقٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ أَوَّلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ»^(٣).

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود، وضعفه الألبانى في ضعيف سنن أبي داود (١٥٥٥).

(٢) أخرجه البخارى (٥٩٨٤) باب دعوة النبى ﷺ لخدامه بطول العمر وبكثرة ماله، ومسلم (٢٤٨٠) من فضائل أنس بن مالك.

(٣) أخرجه البخارى (١٩٤٤) باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «هَلَكَ أَبِي وَتَرَكَ سَبْعَ أَوْ تِسْعَ بَنَاتٍ فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَزَوَّجْتُ يَا جَابِرُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: «بِكُرٍّ أَمْ تَيْبًا؟» قُلْتُ: تَيْبًا قَالَ: «هَلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ أَوْ تُضَاحِكُهَا وَتُضَاحِكُكَ» قُلْتُ: هَلَكَ أَبِي فَتَرَكَ سَبْعَ أَوْ تِسْعَ بَنَاتٍ فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِئَهُنَّ بِمِثْلِهِنَّ فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً تَقُومُ عَلَيْهِنَّ قَالَ: «فَبَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(١).

قال ابن حجر: ومناسبة قوله ﷺ لعبد الرحمن: «بارك الله لك» ولجابر «بارك الله عليك» أن المراد بالأول اختصاصه بالبركة في زوجته وبالثاني شمول البركة له في جودة عقله حيث قدّم مصلحة أخواته على حظّ نفسه فعدل لأجلهن عن تزوج البكر مع كونها أرفع رتبة للمتزوج الشاب من الشيب غالباً^(٢).

ومن أسباب البركات التي يوسع بها أرزاق العباد صلة الأرحام، والمقصود بالرحم هم الأقارب، وهم كل من بينك وبينهم نسب من جهة الولادة سواء كان ذلك من طريق الأب أو الأم.

وصلة الرحم معناه تقديم الإحسان بكل أنواعه حسية ومعنوية، وسواء كانوا صغاراً أو كباراً نساءً أو رجالاً، يسكنون في بلدك أو بعيدون عنك، روى الإمام البخاري في صحيحه عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٣).

قال النووي: «ينسأ، أي: يؤخر، والأثر: الأجل؛ لأنه تابع للحياة في أثرها، وبسط الرزق: توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه»^(٤).

صِلُوا الْأَرْحَامَ؛ فَإِنْ صَلَّتْهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ يَرْحَمُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ، أَدْخَلَ السَّرُورَ عَلَى الْأَعْمَامِ وَالْعَمَاتِ، وَالْأَخْوَالَ وَالْخَالَاتِ، وَسَائِرِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ.

= فَضَّلَ اللَّهُ ﷻ، ومسلم (١٤٢٧) باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) باب الدعاء للمتزوج.

(٢) فتح الباري/ ابن حجر (١١/ ١٩١).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٦١) باب من أحب البسط في الرزق.

(٤) شرح مسلم (١١٤/ ١٦).

فمن وصلهم وصله الله وبارك له في رزقه ووسع له في عيشه.

عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «إِنْ أَعْجَلَ الطَّاعَةُ ثَوَابًا صَلَوةَ الرَّحِمِ، حَتَّى إِنْ أَهْلَ الْبَيْتِ لِيَكُونُوا فَجْرَةً، فَتَنُمُو أَمْوَالَهُمْ، وَيَكْثُرَ عَدَدُهُمْ إِذَا تَوَاصَلُوا، وَمَا مِنْ أَهْلٍ بَيْتٍ يَتَوَاصَلُونَ فِيحْتَاجُونَ»^(١). إِنْ هَذَا الْحَدِيثُ يَفْسِرُ لَنَا ظَاهِرَةً رُبَّمَا كَانَتْ مَوْضِعَ اسْتِغْرَابٍ عِنْدَ كَثِيرِينَ، نَعَمْ أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ: «إِنْ أَهْلُ الْبَيْتِ لِيَكُونُوا فَجْرَةً، فَتَنُمُو أَمْوَالَهُمْ، وَيَكْثُرَ عَدَدُهُمْ، إِذَا تَوَاصَلُوا».

قال العلماء: معنى البسط في الرزق: البركة فيه، وفي العمر: حصول القوة في الجسد؛ لأن صلة أقاربه صدقة والصدقة تربي المال وتزيد فيه فينمو بها ويزكو؛ لأن رزق الإنسان يكتب وهو في بطن أمة فلذلك احتيج إلى هذا التأويل.

أو المعنى أنه يكتب مقيدا بشرط كان يقال أن وصل رحمه فله كذا وإلا فكذا، أو المعنى بقاء ذكره الجميل بعد الموت. وأغرب الحكيم الترمذي فقال: المراد بذلك قلة البقاء في البرزخ. وقال ابن قُتَيْبَةَ: يحتمل أن يكتب أجل العبد مائة سنة وتركته عشرين فإن وصل رحمه زاد التزكية. وقال غيره: المكتوب عند الملك الموكل به غير المعلوم عند الله عز وجل، فالأول يدخل فيه التغيير. وتوجيهه أن المعاملات على الظواهر والمعلوم الباطن خفى لا يعلق عليه الحكم. فذلك الظاهر الذي اطلع عليه الملك هو الذي يدخله الزيادة والنقص والمحو والإثبات، والحكمة فيه إبلاغ ذلك إلى المكلف ليعلم فضل البر وشؤم القطيعة^(٢).

قال ابن التين: ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْقَدُونَ﴾^(٣٤)، [الأعراف: ٣٤]، والجمع بينهما من وجهين:

أحدهما: أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة وصيائته عن تضييعه في غير ذلك. ومثل هذا ما جاء

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير، وابن حبان في صحيحه (٤٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩١٨)، وصحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٢) فتح الباري (٣٠٢/٤).

أن النبي ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه الله ليلة القدر. وحاصله أن صلة الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يموت. ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه. والخلف الصالح.

ثانيهما: أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى، كأن يقال للملك مثلاً: أن عمر فلان مائة مثلاً أن وصل رحمه، وستون إن قطعها. وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر: والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه ألبتة. ويقال له القضاء المبرم، ويقال للأول القضاء المعلق. والوجه الأول أليق بلفظ حديث الباب، فإن الأثر ما يتبع الشيء، فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور. وقال الطيبي: الوجه الأول أظهر وإليه يشير كلام صاحب «الفائق» قال: ويجوز أن يكون المعنى أن الله يبقى أثر واصل الرحم في الدنيا طويلاً فلا يضمحل سريعاً كما يضمحل أثر قاطع الرحم. ولما أنشد أبو تمام قوله في بعض المراثي:

تُوِّفِّتِ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ

قَالَ لَهُ أَبُو دُلْفٍ: لم يموت من قيل فيه هذا الشعر ومن هذه المادة قول الخليل عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقد ورد في تفسيره وجه ثالث فأخرج الطبراني في «الصغير» بسند ضعيف عن أبي الدرداء قال: ذُكِرَ عند رسول الله ﷺ من وصل رحمه أنسى له في أجله، فقال: إنه ليس بزيادة في عمره قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ الآية، ولكن الرجل تكون له الذرية الصالحة يدعون له من بعده وله في «الكبير» من حديث أبي مشجعة الجهني رفعه «إن الله لا يؤخر نفساً إذا

جاء أجلها وإنما زيادة العمر ذرية صالحة» الحديث^(١). وجزم ابن فورك بأن المراد بزيادة العمر نفى الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله. وقال غيره في أعم من ذلك وفي وجود البركة في رزقه وعلمه ونحو ذلك^(٢).

وسأل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٣):

هل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصلة الرحم كما جاء في الحديث أفوتونا مأجورين؟

فأجاب: قد قال بعض الناس إن المراد به البركة في العمر بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمل به غيره إلا في الكثير قالوا لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان، فيقال لهؤلاء تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع هي أيضًا مقدرتان مكتوبتان وتتناول لجميع الأشياء.

والجواب المحقق أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «إن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم فرأى فيهم رجلاً له بصيص فقال: من هذا يارب؟ فقال: ابنك داود قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة؟ قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنة فكتب عليه كتاب وشهدت عليه الملائكة فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنة قالوا: وهبتها لابنك داود فأنكر ذلك فأخرجوا الكتاب قال النبي ﷺ: فنسى آدم فنسيت ذريته ووجد آدم فجحدت ذريته» وروى أنه كمل لآدم عمره ولداود عمره.

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين وهذا معنى ما روى

(١) ضعيف جداً: أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٧١)، والضعيفة (١٥٤٣).

(٢) فتح الباري (٤١٦/١٠)

(٣) انظر مجموع الفتاوى/ ابن تيمية (١٤/ ٤٨٨ - ٤٩٢) بتصرف.

عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت.

والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به فلا محو فيه ولا إثبات.

ومن أسباب البركات التي توجب على العباد الرحمات والنفقات والصدقات، فمن يسر على معسر؛ يسر الله له في الدنيا والآخرة، ومن فرج كربة المكروب فرج الله كربته في الدنيا والآخرة، فارحموا عباد الله يرحمكم من في السماء، والله يرحم من عباده الرحماء، وما من يوم تصبح فيه إلا وملكاً ينزلان. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْسِكًا تَلْفًا»^(١).

يا ابن آدم أنفق ينفق الله عليك، وارحم الضعفاء يرحمك من في السماء، فرجوا الكربات وأغدقوا على الأراامل والمحتاجين، فإن الله يرحم برحمته عباده الراحمين، وعن أسماء قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك ارضخي ما استطعت»^(٢). امرأة يقول لها: أنفقي ينفق الله عليك، فمن أنفق لوجه الله؛ ضاعف الله له الأجر؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله، ولك الخلف من الله، فما نقصت صدقة من مال. كان الناس إلى عهد قريب يعيشون حياة شديدة صعبة، ومع ذلك فرج الله همومهم ونفس الله غمومهم بفضله ثم بما كان بينهم من الرحمات، كانوا متراحمين متواصلين

(١) أخرجه البخارى (١٣٧٤) باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾، ومسلم (١٠١٠) باب في المنفق والممسك.

(٢) أخرجه البخارى (٢٤٥١) باب هبة المرأة لغير زوجها، ومسلم (١٠٢٩) باب الحث في الإنفاق.

متعاطفين فجعل الله القليل كثيراً، وانظر إلى أصحاب رسول الله كيف كانوا رحماء بينهم فرحمهم الله من عنده. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ (٣٩) ﴿سَبَأُ: ٣٩﴾. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أى مهما أنفقتُم من شيء مما أمركم الله به وأباحه لكم فهو يخلفكم ويخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب^(١)، ولذا لما أمر الله عز وجل بالإنفاق في سبيل الله قال بعد ذلك الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم. وقال ابن القيم رحمه الله: إن وعد الشيطان لابن آدم بالفقر ليس شفقة عليه وليس نصيحة له، وأما الله عز وجل فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه وفضلاً بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه، إما في الدنيا أو في الآخرة^(٢). روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال الله تبارك وتعالى: «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك»^(٣). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أنفق يا بلال ولا تحش من ذا العرش إقلاقاً»^(٤).

ومن الأسباب التي يبارك الله بها في الأرزاق، بل يبارك بها في الأعمار وفي أحوال الإنسان العمل والكسب الطيب، الإسلام دين العمل، دين الكسب، الحلال الذي يعف الإنسان به نفسه عن القيل والقال وسؤال الناس، فمن سأل الناس تكثر أحواله يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم والعياذ بالله. فعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ»^{(٥)(٦)}.

(١) تفسير ابن كثير (٦/٥٢٣).

(٢) انظر طريق الهجرتين/ ابن قيم الجوزية (١/٥٥٤)، والتفسير القيم لابن القيم (١/٢٧٣).

(٣) أخرجه مسلم (٩٩٣) باب الحث على النفقة وتبشير المتفق بالخلف.

(٤) صحيح: أخرجه البيهقي (١٤٤٧)، وأخرجه البزار عن بلال وعن أبي هريرة، وأخرجه الطبراني في

الكبير عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥١٢).

(٥) قوله: مُزْعَةٌ لَحْمٍ أى: قِطْعَةٌ.

(٦) أخرجه البخاري (١٤٠٥) باب مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّراً.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَأْتِي سَاقِطًا لَا قَدْرَ لَهُ وَلَا جَاهَ، أَوْ يُعَذَّبُ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَسْقُطَ لَحْمُهُ لِمُشَاكَلَةِ الْعُقُوبَةِ فِي مَوَاضِعِ الْجِنَايَةِ مِنَ الْأَعْضَاءِ لِكَوْنِهِ أَذَلَّ وَجْهِهِ بِالسُّؤَالِ، أَوْ أَنَّهُ يُبْعَثُ وَوَجْهُهُ عَظُمَ كُلَّهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ شِعَارَهُ الَّذِي يُعْرِفُ بِهِ انْتَهَى. وَالْأَوَّلُ صَرَفٌ لِلْحَدِيثِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَقَدْ يُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَزَارُ مِنْ حَدِيثِ مَسْعُودِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَسْأَلُ وَهُوَ غَنِيٌّ حَتَّى يَخْلُقَ وَجْهَهُ فَلَا يَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهٌ» ^(١) وَقَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْحُسْنِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ حُسْنَ الْوَجْهِ هُوَ بِمَا فِيهِ مِنَ اللَّحْمِ. وَمَالَ الْمُهَلَّبُ إِلَى حَمْلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَإِلَى أَنَّ السِّرَّ فِيهِ أَنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلِذَا جَاءَ لَا لَحْمَ بِوَجْهِهِ كَانَتْ أَذْيَةً الشَّمْسِ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، قَالَ: وَالْمُرَادُ بِهِ مَنْ سَأَلَ تَكْثُرًا وَهُوَ غَنِيٌّ لَا تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ، وَأَمَّا مَنْ سَأَلَ وَهُوَ مُضْطَرٌّ فَذَلِكَ مُبَاحٌ لَهُ فَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ انْتَهَى. قَالَ ابْنُ الْمُثَنِّ فِي الْحَاشِيَةِ: لَفْظُ الْحَدِيثِ دَالٌّ عَلَى ذَمِّ تَكْثِيرِ السُّؤَالِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمُتَوَعَّدُ عَلَيْهِ عَلَى مَا تَشْهَدُ بِهِ الْقَوَاعِدُ هُوَ السَّائِلُ عَنْ غِنَى وَأَنَّ سُؤَالَ ذِي الْحَاجَةِ مُبَاحٌ. نَزَلَ الْبُخَارِيُّ الْحَدِيثَ عَلَى مَنْ يَسْأَلُ لِيُكْثِرَ مَالَهُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ غُرْمٍ مُفْطَعٍ، أَوْ جَانِحَةٍ» ^(٢) وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ «إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ سَائِلًا فَاسْأَلِ الصَّالِحِينَ» ^(٣) وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ، وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ جَائِزٌ لِأَنَّهُ طَلَبُ مُبَاحٍ فَاشْبَهَ الْعَارِيَّةَ، وَحَمَلُوا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ عَلَى مَنْ سَأَلَ مِنَ الزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ مِمَّنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، لَكِنْ قَالَ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ» ^(٤): اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى النَّهْيِ عَنِ السُّؤَالِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ. قَالَ:

(١) **ضعيف:** أخرجه الطبراني والبزار، وأبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٥٥٤٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٤٨٨).

(٢) **أخرجه مسلم** (١٠٤٤) باب من تحل له المسألة.

(٣) **ضعيف:** أخرجه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢٩٢)، وضعيف سنن النسائي (١٦٢/٢٥٨٧)، والمشكاة (١٨٥٣)، ضعيف الجامع الصغير (١٢٩٩).

(٤) **شرح مسلم** (١٢٧/٧).

وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي سُؤَالِ الْقَادِرِ عَلَى الْكَسْبِ عَلَى وَجْهَيْنِ أَصَحَّهُمَا التَّحْرِيمُ لِظَاهِرِ الْأَحَادِيثِ.

وَالثَّانِي: يَجُوزُ مَعَ الْكَرَاهَةِ بِشُرُوطِ ثَلَاثَةٍ: أَنْ لَا يُلْحَقَ وَلَا يُذَلَّ نَفْسُهُ زِيَادَةً عَلَى ذَلِّ نَفْسِ السُّؤَالِ، وَلَا يُؤْذَى الْمَسْئُولُ. فَإِنْ فُقِدَ شَرْطُ مَنْ ذَلِكَ حَرَمٌ. وَقَالَ الْفَاكِهَانِيُّ: يَتَعَجَّبُ مِمَّنْ قَالَ بِكَرَاهَةِ السُّؤَالِ مُطْلَقًا مَعَ وُجُودِ السُّؤَالِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ، فَالْشَّارِعَ لَا يُقَرَّرُ عَلَى مَكْرُوهِهِ. قُلْتُ: لَعَلَّ مَنْ كَرِهَهُ مُطْلَقًا أَرَادَ أَنَّهُ خِلَافُ الْأَوَّلَى، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وَفُوعِهِ أَنْ تَتَغَيَّرَ صِفَتُهُ وَلَا مِنْ تَقْرِيرِهِ أَيْضًا، وَيَتَبَغَى حَمْلُ حَالِ أَوْلَيْكَ عَلَى السَّدَادِ، وَأَنَّ السَّائِلَ مِنْهُمْ غَالِبًا مَا كَانَ يَسْأَلُ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ، وَفِي قَوْلِهِ: «مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ» نَظَرُ فِي الْأَحَادِيثِ الْكَثِيرَةِ الْوَارِدَةِ فِي ذَمِّ السُّؤَالِ كِفَايَةً فِي إِنْكَارِ ذَلِكَ ^(١). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اللَّهُ طِيبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنْ اللَّهُ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾» ^(٢) [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يَطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» ^(٣). وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عَرِيَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَشِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتَكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لَا غَنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ» ^(٤).

قال الحافظ بن حجر: وفي الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة ^(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ

(١) انظر فتح الباري (١٠/٤٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥) باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥) باب من اغتسل عريانا وحده في الخلوة ومن تستر فالتستر أفضل.

(٤) فتح الباري (٦/٤٢١).

كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر»^(١).

خذ بأسباب الرزق وامش في مناكبها قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ الشُّورُ﴾ [١٥: الملك]. بسط الله الأرض وأخرج منها الخيرات والبركات، وجعل الخير في العمل، والشر في البطالة والكسل، الإسلام دين الجهاد والعمل، قال رسول الله ﷺ - يرشدنا إلى فضل الأعمال وما فيها من الخير في الأرزاق -: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»^(٢).

ومن الأسباب التي يبارك الله بها في الأرزاق، التوكل على الله: عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفافاً وتروحوأ بطاناً»^(٣) فأخبر أنها تغدو وأخبر أنها تذهب، فمن ذهب للرزق يسر الله أمره.

وإن من أعظم الأسباب التي يبارك الله بها في الأرزاق: التوبة إلى الله، والرجوع إليه واستغفاره قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ يَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جُنُودًا وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ (١٢)﴾ [نوح: ١٠-١٢].

قال القرطبي رحمه الله: هذه الآية دليل على أن الاستغفار يُستنزَل به الرزق والأمطار.^(٤)

وقال ابن كثير رحمه الله: أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣٨) باب فضل النفقة على الأهل، مسلم (٢٩٨٢) باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده رقم: (٤٨٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٠٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٨٧/٥): رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن ابن ثابت بن ثوبان وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه (٤١٦٤) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم (٣١٨/٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٠).

(٤) تفسير القرطبي (٣٠٢/١٨).

عليكم، وسقاكم ربكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض وأنبت لكم الزرع وأدرّ لكم الضرع وأمدكم بأموال وبنين أى أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها^(١)

شكى رجل إلى الحسن البصرى شدة الجذب ونقص الماء فقال له: استغفر الله.

وشكى آخر الفقر فقال له: استغفر الله.. وقال ثالث: يا أبا سعيد ادعو الله أن يرزقني الولد فإنى عقيم، فقال له: استغفر الله. وشكى رابع جفاف بستانه فقال له: استغفر الله.. فقال أحد الجالسين: أذاك رجلاً يشكون أنواعاً فأمرتهم جميعاً بالاستغفار، فقال الحسن رحمه الله: إن الله تعالى يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝﴾ **[نوح: ١٠-١٢]**، وقال الحسن البصرى: «أكثرُوا الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم وفي طرقتكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأين ما كنتم فإنكم لا تدرون في أى وقت تنزل البركة»^(٢). وممن تفتن لثمرة الاستغفار وأنه من أسباب الرزق نبي الله هود عليه السلام حيث قال: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا الْبُحْرَيْنِ ۝﴾ **[هود: ٥٢]**. إن كلام الله حق وصدق، فإذا ما استغفرت ولم تجد نتيجة فاعلم أن الخلل فيك أنت لا في غيرك، وأن استغفارك لم يتجاوز اللسان، فابحث في حالك وفتش في نفسك، لعلك واقع في ذنب عظيم حرمك الله بسببه أثر الاستغفار.

أما فضائل التوبة وأسرارها، وبركاتها فمتعددة، متنوعة، متشعبة؛ فالتوبة سبب الفلاح، وطريق السعادة، وبالتوبة تكفر السيئات، وإذا حسنت بدل الله سيئات صاحبها حسنات. وعبودية التوبة من أحبّ العبوديات إلى الله، والله تبارك وتعالى يفرح بتوبة التائبين قال النبي ﷺ: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً، وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومةً، ثم رفع رأسه، فاستيقظ وقد

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان حديث رقم: (٦٥٦).

ذهبت راحلته؛ حتى اشتد عليه الحرُّ والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع، فنام نومةً، ثم رفع رأسه؛ فإذا راحلته عنده»^(١).

ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيد هذا الفرح لا يعبر عنه.

ومن بركات التوبة: أنها توجب للتائب آثاراً عجيبة من مقامات العبودية التي لا تحصل بدون التوبة؛ فتوجب له المحبة، والرفقة، واللفظ، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه، فرتب له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدى العبد إلى تفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها أو يفسدها^(٢).

وأيضاً من الأسباب في زيادة الرزق في الدنيا: المتابعة بين الحج والعمرة، وذلك بزيارة البيت الحرام كلما ساحت الفرصة سواء كان ذلك لحج أو عمرة، وهذا أمر قد لا يتفطن له كثيرون: أنهم إذا ذهبوا إلى الحج والعمرة كان ذلك سبباً بإذن الله لزيادة الرزق والمال، والله على كل شيء قدير وفضله واسع، روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تابعوا بين الحج والعمرة» وفي رواية: «أديموا الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة»^(٣).

ومن الأسباب التي يبارك الله بها في الأرزاق: الهجرة في سبيل الله: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

ومعنى مرغماً: أي سبباً لإرغام أنف أعداء الله، وكم من رجال هاجروا فأغاثوا أعداء الله تبارك وتعالى، فيحصل هذا مع السعة، وهو السعة في الرزق كما فسرهما حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

ومن الأسباب: التوكل على الله حق التوكل، وذلك بأن يعتمد القلب على الله

(١) أخرجه البخاري (٥٩٤٩) باب التوبة، ومسلم (٢٧٤٤) باب في الحظ على التوبة والفرح بها.

(٢) راجع دروس رمضان: الشيخ محمد إبراهيم الحمد.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي (٨١٠) والنسائي (٢٦٣٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٨٨٧) والمشكاة (٢٥٢٤) وصحيح الجامع (٢٩٠٠) والصحيحة (١٢٠٠).

وحده فتُظهِرُ أيها العبد عجزك واعتمادك على خالقك، روى الإمام أحمد والترمذي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانا»^(١).



(١) تقدم قريبًا.

٨- البركة في القناعة والرضا بعطية الله

يزداد التسخط في الناس وعدم الرضا بما رُزقوا إذا قلت فيهم القناعة، وحينئذ لا يرضيهم طعام يشبعهم، ولا لباس يواريههم، ولا مراكب تحملهم، ولا مساكن تكنهم؛ حيث يريدون الزيادة على ما يحتاجونه في كل شيء، ولن يشبعهم شيء؛ لأن أبصارهم وبصائرهم تنظر إلى من هم فوقهم، ولا تبصر من هم تحتهم، فيزدرون نعمة الله عليهم، ومهما أوتوا طلبوا المزيد؛ فهم كشارب ماء البحر لا يرتوى أبداً. ومن كان كذلك فلن يحصل السعادة أبداً؛ لأن سعادته لا تتحقق إلا إذا أصبح أعلى الناس في كل شيء، وهذا من أبعد المحال؛ ذلك أن أي إنسان إن كملت له أشياء قصرت عنه أشياء، وإن علا بأمور سفلت به أمور، ويأبى الله تعالى الكمال المطلق لأحد من خلقه كائناً من كان؛ لذا كانت القناعة والرضا من النعم العظيمة والمنح الجليلة التي يُغبط عليها صاحبها.

مفهوم القناعة:

توجد علاقة متينة بين القناعة وبين الزهد والرضا، ولذلك عرّف بعض أهل اللغة القناعة بالرضا، والقانع بالراضي^(١). قال ابن فارس: «قنع قناعة: إذا رضى، وسُميت قناعة؛ لأنه يُقبل على الشيء الذي له راضياً»^(٢). وأما الزهد فهو ضد الرغبة والحرص على الدنيا والزهادة في الأشياء ضد الرغبة^(٣)، وذكر ابن فارس أن مادة (زهد) أصل يدل على قلة الشيء. قال: والزهد: الشيء القليل^(٤).

وعرّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: - الزهد بقوله: ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله ﷻ^(٥).

(١) لسان العرب، مادة (قنع) (٢٩٧/٨) وانظر نضرة النعيم (٣١٦٨/٨).

(٢) معجم مقاييس اللغة مادة (قنع) (٣٣/٥).

(٣) لسان العرب، مادة (زهد) (١٦٩/٣).

(٤) معجم مقاييس اللغة مادة (زهد) (٣٠/٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/١١) وانظر مكارم الأخلاق عند ابن تيمية (٢٥٩).

ونحن فريق من أهل الاصطلاح إلى تقسيم القناعة، وجعل أعلى مراتبها الزهد كما هو صنيع الماوردي؛ حيث قال: «والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يقتنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه؛ وهذا أعلى منازل أهل القناعة، ثم ذكر قول مالك بن دينار: أزهّد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته.

الوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذا أوسط حال المقتنع، وذكر فيه قول بعضهم: من رضى بالمقدور قنع بالميسور.

الوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سُئح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرًا، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيرًا، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة، فأما الرغبة: فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت، وأما الرهبة: فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت^(١). اهـ.

وبناءً على تقسيم الماوردي فإن المنزلة الأولى هي أعلى منازل القناعة وهي الزهد أيضًا، والمنزلة الثالثة هي التي عليها أكثر الذين عرفوا القناعة وهي مقصود مقاتلنا تلك. وعلى هذا المعنى فإن القناعة لا تمنع التاجر من تنمية تجارته، ولا أن يضرب المسلم في الأرض يطلب رزقه، ولا أن يسعى المرء فيما يعود عليه بالنفع؛ بل كل ذلك مطلوب ومرغوب، وإنما الذي يتعارض مع القناعة أن يغش التاجر في تجارته، وأن يتسخط الموظف من مرتبته، وأن يتبرم العامل من مهنته، وأن يُناقَ المسؤول من أجل منصبه وأن يتنازل الداعية عن دعوته أو يميّع مبدأه رغبة في مال أو جاه، وأن يحسد الأخ أخاه على نعمته، وأن يُذِلَّ المرء نفسه لغير الله تعالى - لحصول مرغوب. وليس القانع ذاك الذي يشكو خالقه ورازقه إلى الخلق، ولا الذي يتطلع إلى ما ليس له، ولا الذي يغضب إذا لم يبلغ ما تمنى من رتب الدنيا؛ لأن الخير له قد يكون عكس ما تمنى.

(١) مختصرًا من أدب الدنيا والدين (٣٢٨ - ٣٢٩). بالبلغة: أي ما أُوتى من الكفاية.

وفى المقابل فإن القناعة لا تأبى أن يملك العبد مثاقيل الذهب والفضة، ولا أن يمتلئ صندوقه بالمال، ولا أن تمسك يده الملايين، ولكن القناعة تأبى أن تلج هذه الأموال قلبه، وتملك عليه نفسه؛ حتى يمنع حق الله فيها، ويتكاسل عن الطاعات، ويفرط في الفرائض من أجلها، ويرتكب المحرمات من رباً ورشوة وكسب خبيث حفاظاً عليها أو تنمية لها.

وكم من صاحب مال وفير وخير عظيم رزق القناعة! فلا غش في تجارته، ولا منع أجراه حقوقهم، ولا أذل نفسه من أجل مال أو جاه، ولا منع زكاة ماله؛ بل أدى حق الله فيه فرضاً وندباً، مع محافظة على الفرائض، واجتناب للمحرمات. إن ربح شكر، وإن خسر رضى؛ فهذا قنوع وإن ملك مال قارون.

وكم من مستور يجد كفافاً ملاً الطمع قلبه حتى لم يُرضه ما قسم له! فجزع من رزقه، وغضب على رازقه، وبث شكواه للناس، وارتكب كل طريق محرم حتى يغنى نفسه؛ فهذا منزوع القناعة وإن كان لا يملك درهماً ولا فلساً.

من بركات وفوائد القناعة:

إن للقناعة فوائد كثيرة تعود على المرء بالسعادة والراحة والأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة ومن تلك الفوائد:

١ - امتلاء القلب بالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - والثقة به، والرضا بما قدر وقسم، وقوة اليقين بما عنده - سبحانه وتعالى - ذلك أن من قنع برزقه فإنما هو مؤمن ومتيقن بأن الله تعالى قد ضمن أرزاق العباد وقسمها بينهم حتى ولو كان ذلك القانع لا يملك شيئاً.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: إن أرجى ما أكون للرزق إذا قالوا: ليس في البيت دقيق. وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: أسر أيامي إلى يوم أصبح وليس عندي شيء. وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى -: أصل الزهد الرضا من الله عز وجل. وقال أيضاً: القنوع هو الزهد وهو الغنى، وقال الحسن رحمه الله تعالى: إن من

ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز وجل ^(١).

٢ - الحياة الطيبة: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فسر الحياة الطيبة على ابن عباس والحسن - عليهما السلام - فقالوا: الحياة الطيبة هي القناعة ^(٢)، وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه ^(٣).

٣ - تحقيق شكر المنعم - سبحانه وتعالى -: ذلك أن من قنع برزقه شكر الله - تعالى - عليه، ومن تقالّه قصر في الشكر، وربما جزع وتسخط - والعياذ بالله - ولذا قال النبي ﷺ: «كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قنعًا تكن أشكر الناس» ^(٤).

٤ - الفلاح والبشرى لمن قنع: فعن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع» ^(٥)، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه» ^(٦).

٥ - الوقاية من الذنوب التي تفتك بالقلب وتذهب الحسنات: كالحسد، والغيبة، والنميمة، والكذب، وغيرها من الخصال الذميمة والآثام العظيمة؛ ذلك أن الحامل على الوقوع في كثير من تلك الكبائر غالبًا ما يكون استجلاب دنيا أو دفع

(١) انظر هذه الآثار في جامع العلوم والحكم (١٤٧/٢) شرح حديث رقم (٣١).

(٢) صحيح: أخرجه عن علي والحسن الطبري في تفسيره (١٧/١٤) عند تفسير الآية (٩٧) من سورة النحل، وأخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي (٣٥٦/٢).

(٣) نزهة الفضلاء: ترتيب سير أعلام النبلاء (١٥٠٤).

(٤) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٨١٨) وأبو نعيم في الحلية (٣٦٥/١٠) وحسنه البوصيري في الزوائد (٣٠٠/٣).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (١٩/٦) والترمذي (٢٢٤٩) وقال: حسن صحيح - والحاكم وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٣٤/١).

(٦) أخرجه مسلم (١٠٥٤) باب في الكفاف والقناعة.

نقصها، فمن قنع برزقه لا يحتاج إلى ذلك الإثم، ولا يداخل قلبه حسد لإخوانه على ما أوتوا؛ لأنه رضى بما قسم له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: اليقين ألا ترضى الناس بسخط الله، ولا تحسد أحدًا على رزق الله، ولا تلم أحدًا على ما لم يؤتك الله؛ فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره؛ فإن الله - تبارك وتعالى - بقسطه وعلمه وحكمته جعل الرّوح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط ^(١).

وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غمًا الحسود، وأهنأهم عيشًا القنوع ^(٢).

٦- حقيقة الغنى في القناعة: ولذا رزقها الله - تعالى - نبيه محمدًا ﷺ وامتنّ عليه بها فقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ^(٨) [الضحى: ٨]، نزلها بعض العلماء على غنى النفس؛ لأن الآية مكية، ولا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تفتح عليه خير وغيرها من قلة المال ^(٣).

وذهب بعض المفسرين إلى أن الله - تعالى - جمع له الغنائن: غنى القلب، وغنى المال بما يسر له من تجارة خديجة.

وقد بيّن - عليه الصلاة والسلام - أن حقيقة الغنى غنى القلب فقال - عليه الصلاة والسلام -: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» ^(٤).

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر! أترى كثرة المال هو الغنى؟» قلت: نعم! يا رسول الله، قال: «فترى قلة المال هو الفقر؟» قلت: نعم! يا رسول الله. قال: «إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب» الحديث ^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين (١١٨) الروح: الاستراحة.

(٢) القناعة لابن السني (٥٨) عن موسوعة نضرة النعيم (٣١٧٣).

(٣) انظر فتح الباري: لابن حجر (٢٧٧/١١).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٨١) باب الغنى غنى النفس ومسلم (١٠٥١) باب ليس الغنى عن كثرة العرض.

(٥) صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٨٢٧)، (٣٢٠٣).

وتلك حقيقة لا مرية فيها؛ فكم من غنى عنده من المال ما يكفيه وولده ولو عُمِّر ألف سنة؛ يخاطر بدينه وصحته ويضحى بوقته يريد المزيد! وكم من فقير يرى أنه أغنى الناس؛ وهو لا يجد قوت غده! فالعلة في القلوب: رضا وجزعاً، واتساعاً وضيقاً، وليست في الفقر والغنى.

ولأهمية غنى القلب في صلاح العبد قام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خطيباً في الناس على المنبر يقول: «إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه»^(١)، وسئل أبو حازم فقيل له: ما مالك؟ قال: لى مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما فى أيدى الناس^(٢)، وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنىك، ورضاك بما يكفيك^(٣).

٧ - العز فى القناعة، والذل فى الطمع: ذلك أن القانع لا يحتاج إلى الناس فلا يزال عزيزاً بينهم، والطماع يذل نفسه من أجل المزيد؛ ولذا جاء فى حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»^(٤).

وكان محمد بن واسع - رحمه الله تعالى - يبلى الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد^(٥).

وقال الحسن - رحمه الله تعالى -: لا تزال كريماً على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما فى أيديهم؛ فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك^(٦).

(١) أخرجه أحمد فى الزهد (١١٧) وأبو نعيم فى الحلية (٥٠ / ١)، والمشكاة (١٨٥٦).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٣ / ٢٣١) ط. دار الكتاب العربى بيروت - الطبعة الرابعة، ١٤٠٥.

(٣) إحياء علوم الدين (٤ / ٢١٢) عن نضرة النعيم (٣١٧٤).

(٤) حسن: أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣ / ٢٥٣) والقضاعى فى مسند الشهاب (١٥١) والحاكم وصححه (٤ / ٣٢٤) ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٣١).

(٥) إحياء علوم الدين (٣ / ٢٩٣).

(٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣ / ٢٠).

وقال الحافظ ابن رجب - رحمه الله تعالى -: وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس، والاستغناء عنهم؛ فمن سأل الناس ما بأيديهم كرهوه. وأبغضوه؛ لأن المال محبوب لنفوس بنى آدم، فمن طلب منهم ما يحبونه كرهوه لذلك ^(١).

والإمامة في الدين والسيادة والرفعة لا يحصلها المرء إلا إذا استغنى عن الناس، واحتاج الناس إليه في العلم والفتوى والوعظ. قال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بَمِ سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم ^(٢).

أسباب تحول دون القناعة:

ذكر الماوردي - رحمه الله تعالى - الأسباب التي تمنع القناعة بالكفاية، وتدعو إلى طلب الزيادة، وهي - على سبيل الاختصار -:

١ - منازعة الشهوات التي لا تُنال إلا بزيادة المال وكثرة المادة، فإذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله إليها، وليس للشهوات حد مُتَنَاهٍ، فيصير ذلك ذريعة إلى أن ما يطلبه من الزيادة غير مُتَنَاهٍ، ومن لم يَتَنَاهَ طلبه استدّام كدّه وتعبه، فلم يفِ التذادُّه بنيل شهواته بما يعانيه من استدّامة كده وأتعبه، مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات، والتعرض لاكتساب التبعات، حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها إلى ما تدعو إليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل، ولا تنكفُّ عنه بقناعة.

٢ - أن يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير، ويتقرب بها في جهات البر، ويصطنع بها المعروف، ويغيث بها الملهوف؛ فهذا أعذر، وبالحمد أخرى وأجدر متى ما اتقى الحرام والشُّبُهات وأنفق في وجوه البر؛ لأن المال آلة المكارم، وعون على الدِّين، ومتألَّفٌ للإخوان. قال قيس بن سعد: اللهم ارزقني

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٦٨).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٦٩).

حمدًا ومجدًا؛ فإنه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال. وقيل لأبي الزناد: لِمَ تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا؟ فقال: هي وإن أدنتني منها فقد صانتني عنها. وقال بعض الحكماء: من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدين والعرض.

٣- أن يطلب الزيادة ويقتنى الأموال ليدّخرها لولده، ويخلفها لورثته، مع شدة ضنه على نفسه، وكفه عن صرف ذلك في حقه، إشفاقًا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب، وهذا شقى بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لُبٍّ، منها:

أ - سوء ظنه بخالقه: أنه لا يرزقهم إلا من جهته.

ب - الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه.

ج - ما حُرِّم من منافع ماله وسُلِب من وفور حاله، وقد قيل: إنما مالك لك أو للوارث أو للجائحة؛ فلا تكن أشقى الثلاثة.

د - ما لحقه من شقاء جمعه، وناله من عناء كده، حتى صار ساعيًا محرومًا، وجاهدًا مذموماً.

هـ - ما يؤاخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه. وقد حُكي أن هشام بن عبد الملك لما ثَقُلَ بكى ولده عليه، فقال لهم: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما كسب، وتركتم عليه ما اكتسب، ما أسوأ حال هشام إن لم يغفر الله له! وقال رجل للحسن رحمه الله تعالى: إنى أخاف الموت وأكرهه، فقال: إنك خلّفت مالك، ولو قدّمته لسرّك اللحاق به.

٤- أن يجمع المال ويطلب المكاثرة، استحلاءً لجمعه، وشغفًا باحتجانه؛ فهذا أسوأ الناس حالاً فيه، وأشدّهم حرماناً له، قد توجهت إليه سائر الملاوم. وفي مثله قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤)^(١).

السبيل إلى القناعة:

١- تقوية الإيمان بالله تعالى، وترويض القلب على القناعة والغنى؛ فإن حقيقة الفقر والغنى تكون في القلب؛ فمن كان غنى القلب نعم بالسعادة وتحلى بالرضا، وإن كان لا يجد قوت يومه، ومن كان فقير القلب؛ فإنه لو ملك الأرض ومن عليها إلا درهماً واحداً لرأى غناه في ذلك الدرهم؛ فلا يزال فقيراً حتى يناله.

٢- اليقين بأن الرزق مكتوب والإنسان في رحم أمه، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيه: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد...»^(١).

فالعبد مأمور بالسعى والاكتساب مع اليقين بأن الله هو الرازق وأن رزقه مكتوب.

٣- تدبر آيات القرآن العظيم ولا سيما الآيات التي تتحدث عن قضية الرزق والاكتساب. يقول عامر بن عبد قيس: أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتها مساءً لم أبال على ما أمسى، وإذا تلوتهن صباحاً لم أبال على ما أصبح: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرِيكَ يَخْيِرُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

٤- معرفة حكمة الله سبحانه وتعالى في تفاوت الأرزاق والمراتب بين العباد، حتى تحصل عمارة الأرض، ويتبادل الناس المنافع والتجارات، ويخدم بعضهم بعضاً قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

(١) أخرجه البخاري (٧٠١٦) باب (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين)، ومسلم (٢٦٤٣) باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

لَيَسْبُلُوَكُمْ فِي مَاءٍ آتَاكُمْ ﴿[الأنعام: ١٦٥].

٥- الإكثار من سؤال الله سبحانه وتعالى القناعة، والإلحاح بالدعاء في ذلك؛ فنبينا محمد ﷺ، وهو أكثر الناس قناعة وزهداً ورضاً وأقواهم إيماناً و يقيناً، كان يسأل ربه القناعة؛ فعن ابن عباس: رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، كان يدعو: «اللهم قنني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير»^(١) ولأجل قناعته ﷺ، فإنه ما كان يسأل ربه إلا الكفاف من العيش والقليل من الدنيا كما قال - عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(٢).

٦- العلم بأن الرزق لا يخضع لمقاييس البشر من قوة الذكاء وكثرة الحركة وسعة المعارف، وإن كان بعضها أسباباً؛ إلا أن الرزق ليس معلقاً بها بالضرورة، وهذا يجعل العبد أكثر قناعة خاصة عندما يرى من هو أقل منه خبرة أو ذكاءً أو غير ذلك وأكثر منه رزقاً فلا يحسده ولا يتبرم من رزقه.

٧- النظر إلى حال من هو أقل منك في أمور الدنيا، وعدم النظر إلى من هو فوقك فيها؛ ولذا قال النبي ﷺ: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله»^(٣). وفي لفظ آخر قال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأى أحدكم من فوقه في المال والحسب فلي نظر إلى من هو دونه في المال والحسب»^(٤).

وليس في الدنيا أحد لا يجد من هو أفضل منه في شيء، ومن هو أقل منه في أشياء؛ فإن كنت فقيراً ففي الناس من هو أفقر منك، وإن كنت مريضاً أو معذباً ففيهم من هو أشد منك مرضاً وأكثر تعذيباً، فلماذا ترفع رأسك لتنظر من هو فوقك، ولا

(١) أخرجه السهमी في تاريخ جرجان برقم (٥٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٥٦/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٥) باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، ومسلم (١٠٥٥) باب في الكفاف والقناعة. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦١٢٥) باب لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه، ومسلم واللفظ له (٢٩٦٣) كتاب الزهد والرفائق.

(٤) صحيح: صحيح ابن حبان (٧١٤).

تخفضه لتبصر من هو تحتك؟ إن كنت تعرف من نال من المال والجاه ما لم تنله أنت وهو دونك ذكاءً ومعرفةً وخُلُقًا، فلم لا تذكر من أنت دونه أو مثله في ذلك كله وهو لم ينل بعض ما نلت؟!!

٨- قراءة سير السلف الصالح وأحوالهم مع الدنيا والزهد فيها والقناعة بالقليل منها، وهم قد أدركوا الكثير منها فرفضوه إثارةً للباقية على العاجلة، وعلى رأسهم محمد ﷺ، وإخوانه من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ثم الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - والتابعون لهم بإحسان؛ فإن معرفة أحوالهم، وكيف كانت حياتهم ومعاشتهم تحفز العبد إلى التأسى بهم، وترغبه في الآخرة، وتقلل عنده زخرف الحياة الدنيا ومتعها الزائلة.

٩- العلم بأن عاقبة الغنى شر ووبال على صاحبه إذا لم يكن الاكتساب والصرف منه بالطرق المشروعة، وقد قال النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»^(١) فمشكلة المال أن الحساب عليه من جهتين: جهة الاكتساب ثم جهة الإنفاق، وهذا ما يجعل تبعته عظيمة وعاقبته وخيمة إلا من اتقى الله فيه وراعى حرماته اكتساباً وإنفاقاً.

ثم ليتفكر في أنه كلما تخفف من هذا المال وكان أقل كان حسابه أيسر وأسرع؛ وذلك كمن سافر في الطائرة وحمل متاعاً كثيراً؛ فإنه إذا بلغ مقصده احتاج وقتاً طويلاً لاستلامه وتفتيشه بخلاف من كان خفيفاً ليس معه شيء، وحساب الآخرة أيسر، والوقوف فيها أطول.

ولينظر أيضاً إلى من كان المال والجاه سبب شقائه وأمراضه وهمومه وغمومه؛ فهو يشقى ويتعب في جمع المال ونيل المناصب ثم يحمل همَّ الحفاظ على المال والمنصب فيقضى عمره مهتماً مغتماً، ثم انظر ماذا يحدث له إذا خسر ماله أو أُقيل

(١) صحيح: أخرجه الترمذی (٢٤١٧)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألبانی في الصحيحة (٩٤٦).

من منصبه، وكم من شخص كان ذلك سبباً في هلاكه وعطبه! نسأل الله العافية.

١٠- النظر في التفاوت البسيط بين الغنى والفقر على وجه الحقيقة، فالغنى لا ينتفع إلا بالقليل من ماله، وهو ما يسد حاجته وما فَضِّلَ عن ذلك فليس له، وإن كان يملكه، فلو نظرنا إلى أغنى رجل في العالم لا نجد أنه يستطيع أن يأكل من الطعام أكثر مما يأكل متوسط الحال أو الفقير، بل ربما كان الفقير أكثر أكلاً منه، وبعبارة أخرى: هل يستطيع الغنى أن يشتري مائة وجبة فيأكلها في آنٍ واحد، أو مائة ثوب فليبسها في آنٍ واحد؛ أو ألف مركبة فيركبها في آنٍ واحد؛ أو مائة دار فيسكنها في وقت واحد؟! لا؛ بل له من الطعام في اليوم ثلاث وجبات تزيد قليلاً أو تنقص، وللمستور كذلك مثله، وله من اللباس ثلاث قطع، تزيد قليلاً أو تنقص، ولا يستهلك من الأرض في وقت واحد إلا متراً في مترين سواء كان قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً. فعلام يُحسد وهو سيحاسب على كل ما يملك؟! وقد فهم هذا المعنى حكيم هذه الأمة أبو الدرداء رضي الله عنه حينما قال: أهل الأموال يأكلون ونأكل، ويشربون ونشرب، ويلبسون ونلبس، ويركبون ونركب، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر إليها معهم وحسابهم عليها ونحن منها برآء، وقال أيضاً: الحمد لله الذي جعل الأغنياء يتمنون أنهم مثلنا عند الموت، ولا نتمنى أننا مثلهم حينئذٍ، ما أنصفنا إخواننا الأغنياء: يحبوننا على الدين، ويعادوننا على الدنيا^(١).

بل جاء هذا المعنى في السنة النبوية. قال عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقرأ ﴿أَلْهَكُمُ الثَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، يقول: «يقول ابن آدم: مالي، مالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفئيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»^(٢).

إن القانع قد لا ينال من الطعام أطيبه، ولا من اللباس أحسنه، ولا من العيش أرغده؛ ولكنه ينعم بالرضا أكثر من الطمّاع وإن كان الطمّاع أرغد عيشاً منه؛ لأن

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٥٠ - ٣٥١).

(٢) أخرجه مسلم في كِتَابِ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ (٢٩٥٨).

القانع ينظر إلى الموسر وما يملك فيراه لا ينتفع إلا بقليل مما يملك، لكنه سيحاسب عن كل ما يملك.

ثم ليعلم العاقل أن كل حال إلى زوال، فلا يفرح غنى حتى يطغى ويبطر، ولا ييأس فقير حتى يعصى ويكفر، فإنه لا فقر يدوم ولا غنى يدوم، وكم من رجال نشؤوا على فرش الحرير، وشربوا بكؤوس الذهب، وورثوا كنوز المال، وأذلوا أعناق الرجال، وتعبّدوا الأحرار، فما ماتوا حتى اشتهاوا فراشاً خشناً يقى الجنب عض الأرض، ورغيفاً من خبز يحمى البطن من قرص الجوع، وآخرون قاسوا المحن والبلايا، وذاقوا الألم والحرمان، وطووا الليالي بلا طعام، فما ماتوا حتى ازدحمت عليهم النعم، وتكاثرت الخيرات، وصاروا من سُراة الناس، وسيسوي الموت بين الأحياء جميعاً: الغنى والفقير؛ فدود الأرض لا يفرق بين المالك والأجير، ولا بين الصعلوك والأمير ولا بين الكبير والصغير، فلا يجزع فقير بفقره، ولا يبطر غنى بغناه، وما أجمل القناعة! فمن التزمها نال السعادة، وما أحوج أهل العلم والدعوة للتحلى بها! حتى يكونوا أعلام هدى ومصايح دجى، ولو تحلى بها العامة لزال الضغائن والأحقاد، وحلت الألفة والمودة؛ إذ أكثر أسباب الخلاف والشقاق بين الناس بسبب الدنيا والتنافس عليها، وما ضعف الدين في القلوب إلا من مزاحمة الدنيا له، وصدق رسول الله ﷺ، حينما قال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»^(١)، فهل من مدّكر؟ وهل من معتبر يجعل ما يملك من دنيا في يديه، ويحاذر أن تقترب إلى قلبه فتفسده؟ «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»^{(٢)(٣)}.

(١) أخرجه البخارى (٣٧٩١) باب شهود الملائكة بدرا، ومسلم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرفائق.

(٢) أخرجه البخارى (٥٢) باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم (١٥٩٩) باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٣) انظر القناعة - مفهومها.. منافعها.. الطريق إليها/ إبراهيم بن محمد الحقييل - نقلا عن مجلة البيان.

عن رجل من بنى سليم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يبتلى العبد فيما أعطاه فإن رضى بما قسم الله له بورك له فيه ووسع له وإن لم يرض لم يبارك له ولم يزد على ما كتب له»^(١).



(١) صحيح: أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (١٨٦٩).

٩- البركة في شكر نعم الله وعدم كفرانها

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لِنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال ابن كثير رحمه الله: أى: لئن شكرتم نعمتى عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَإِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أى: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها^(١). إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان؛ وهناك نعم آتاه الله لعباده في الأرض تلطفاً منه وهبة خالصة، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا. وإن كان يبارك للطائع ولو في القليل ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير.

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية. إنما هو متاع. متاع محدود الأجل. لا يرفع ولا يخفض، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضا من الله أو غضب. إنما هو متاع. ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الشورى: ٣٦] خير في ذاته. وأبقى في مدته. فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب. ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام. أقصى أمده للفرد عمر الفرد، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد^(٢).

عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَأَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَاتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَدْ قَدَرَنِي النَّاسُ قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ فَأَعْطَى لَوْ أَنَّ حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا فَقَالَ: أَيُّ الْإِلِّ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِلُّ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ هُوَ شَكٌّ فِي ذَلِكَ إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا:

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٩).

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب (٥/ ٣١٦١).

الْإِبِلُ وَقَالَ: الْآخِرُ الْبَقَرُ فَأَعْطَى نَاقَةً عَشْرَاءَ فَقَالَ: يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا وَآتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا قَدْ قَدَرَنِي النَّاسُ قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأَعْطَى شَعْرًا حَسَنًا قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا وَقَالَ: يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا وَآتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يُرْدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ: فَمَسَحَهُ فَردَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا فَانْتَبِجَ هَذَانِ وَلَدٌ هَذَا فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِي الْجِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْحِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبْلُغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي؟ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدُرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ وَآتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ: مِثْلُ مَا قَالَ لِهَذَا فَردَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ وَآتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِي الْجِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَردَّ اللَّهُ بَصَرِي وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي فَخُذْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَا لَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»^(١).

قَالَ الْكَرْمَانِيُّ: وَفِيهِ التَّحْذِيرُ مِنْ كُفْرَانِ النِّعَمِ وَالتَّرْغِيبُ فِي شُكْرِهَا وَالاعْتِرَافُ بِهَا وَحَمْدُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَفِيهِ فَضْلُ الصَّدَقَةِ وَالْحَثُّ عَلَى الرِّفْقِ بِالضُّعْفَاءِ وَإِكْرَامِهِمْ وَتَبْلِيغُهُمْ مَآرِبَهُمْ، وَفِيهِ الزَّجْرُ عَنِ الْبُخْلِ؛ لِأَنَّهُ حَمَلَ صَاحِبَهُ عَلَى الْكَذِبِ، وَعَلَى جَحْدِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٧) باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بنى إسرائيل، ومسلم (٢٩٦٤) كتاب الزهد والرفائق.

(٢) فتح الباري/ ابن حجر (٥٠٣/٦).

وفي الآية الكريمة والحديث الشريف فوائد منها:

- ١- مشروعية التذكير بنعم الله لشكر ولا نكفر.
- ٢- وعد الله تعالى بالمزيد من النعم لمن شكر نعم الله عليه.
- ٣- كفر النعم سبب زوالها.
- ٤- بيان غنى الله تعالى المطلق على سائر خلقه فالناس إن شكروا لأنفسهم وإن كفروا كفروا على أنفسهم أى شكرهم ككفرهم عائد على أنفسهم.
- ٥- التذكير بقصص السابقين وأحوال الغابرين مشروع وفيه فوائد عظيمة^(١).



(١) أيسر التفاسير/ أبو بكر الجزائري (٣/ ٤٤).

١٠- السلام: تحية مباركة طيبة

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [النور: ٦١].

قال سعيد بن جبير، والحسن البصري، وقتادة، والزهرى: فليسلم بعضهم على بعض ^(١).

وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله. وإذا دخلت على أهلِكَ فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وروى الثورى، عن عبد الكريم الجزرى، عن مجاهد: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: بسم الله، والحمد لله، السلام علينا من ربنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وقال قتادة: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإن الملائكة ترد عليك ^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، قال: إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ^(٣).

وقيل: المراد بالبيوت البيوت المسكونة، أى فسلموا على أنفسكم.

قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضاً وعطاء بن أبى رباح.

وقالوا: يدخل فى ذلك البيوت غير المسكونة، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قال ابن العربى: القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح، ولا دليل على

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٨٦-٨٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (١٠/ ٣٨٩) رقم: (١٩٤٥١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (١/ ٤٢٧) رقم (١٦٦٨).

التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتاً لغيره استأذن كما تقدم، فإذا دخل بيتاً لنفسه سلم كما ورد في الخبر، يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، قاله ابن عمر.

وهذا إذا كان فارغاً، فإن كان فيه أهله وخدمه فليقل: السلام عليكم.

وإن كان مسجداً فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ.

قال ابن العربي: والذي أختاره إذا كان البيت فارغاً ألا يلزم السلام، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وقال القشيري في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾: والأوجه أن يقال إن هذا عامٌّ في دخول كل بيت، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن لم يكن فيه ساكن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإن كان في البيت من ليس بمسلم قال: السلام على من اتبع الهدى، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين^(١).

قال الطبري: ووصف جلّ ثناؤه هذه التحية المباركة الطيبة لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم^(٢).

وقال القرطبي: وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه. ووصفها أيضاً بالطيب لأن سامعها يستطيبها^(٣).

وقال السعدي: ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿مُبْرَكَةً﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، ﴿طَيِّبَةً﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس

(١) تفسير القرطبي. (٣١٨/١٢-٣١٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٢٧/١٩) ط: مؤسسة الرسالة.

(٣) تفسير القرطبي (٣١٨/١٢).

للمحيا، ومحبة وجلب مودة^(١).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال لى رسول الله ﷺ: «يا بنى! إذا دخلت على أهلِكَ، فسلم، يكن بركةً عليك، وعلى أهل بيتك»^(٢). وعن أبى أمامة الباهلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: الرجل يدخل بيته بالسّلام ضامن على الله تعالى أن يدخله الجنة^(٣).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال الشيطان أدركتم المبيت والعشاء»^(٤).

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السّلام بينكم»^(٥).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ فَإِنَّهَا تَحْيَاكَ وَتَحْيَا ذُرِّيَّتَكَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَ حَتَّى الْآنَ»^(٦).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ عبد الرحمن بن ناصر بن السعدى (٥٧٥/١) المحقق:

عبد الرحمن بن معلا اللويحق - الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م

(٢) **حسن:** رواه الترمذى (٢٦٢٢) باب: مَا جَاءَ فِي التَّسْلِيمِ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، وقال: حديث حسن صحيح غريب وحسنه الألبانى فى صحيح التّريغ (١٦٠٨).

(٣) مكارم الأخلاق للخراطى (١٩/٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٠١٨) باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

(٥) أخرجه البخارى (٣٠٤٥) باب ذكر الملائكة وهكذا وقع فى بعض روايات الصحيحين: وبركاته وفى بعضها بحذفها، وزيادة الثقة مقبولة، ومسلم (٢٤٤٧) باب فى فضل عائشة رضى الله تعالى عنها.

(٦) **صحيح:** رواه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن. وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته»^(١).

عن عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال النبي ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: «ثلاثون»^(٢).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده فصافحه تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر»^(٣).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «السلام اسم من أسماء الله وضعه الله في الأرض فأفشوه بينكم فإن الرجل المسلم إذا مرقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خير منهم وأطيب»^(٤).

قال البيهقي في «شعب الإيمان»: ومعنى قول القائل: السلام عليكم فهو: قضى الله عليكم بالسلامة مما تكرهون، والسلام والسلامة كالمقام والمقامة، والملام والملامة، وإنما قيل: عليكم، ولم يقل: لكم؛ لأن المراد القضاء، والقضاء للعبد بالخير قضاء من الله جل جلاله عليه، لأنه يناله - أرادته أو لم يرد - وقد يناله وهو لا

= (٥١٩٥)، وصحيح الترمذی (٢٦٨٩).

(١) أخرجه مسلم (٥٤) باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٨) باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ومسلم (٢٨٤١) باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٢٠)، والصحيحة (٢٦٩٢).

(٤) صحيح: أخرجه البزار (١٩٩٩) والطبراني وأحد إسناده البزار جيد قوى، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» حديث رقم: (٩٨٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠١٠)، والصحيحة (١٨٩٤).

يشعر به، وقد قيل: معناه اسم السلام عليكم، أى اسم الله عليكم، أى كانت فيكم البركة، ولكم اليمن، والسعادة كما يكون فيما ذكر بسم الله ^(١).

وعن محمد بن عمرو بن عطاء أنه قال: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ثُمَّ زَادَ شَيْئًا مَعَ ذَلِكَ أَيْضًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَوْمِيذٍ قَدْ ذَهَبَ بَصْرُهُ مِنْ هَذَا قَالَوا: هَذَا الْيَمَانِيُّ الَّذِي يَغْشَاكَ فَعَرَّفُوهُ إِيَّاهُ قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ السَّلَامَ انْتَهَى إِلَى الْبَرَكَةِ» ^(٢).

عَنْ أَنَسٍ أَوْ غَيْرِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَأْذَنَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَقَالَ سَعْدٌ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَلَمْ يُسْمِعِ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى سَلَّمَ ثَلَاثًا وَرَدَّ عَلَيْهِ سَعْدٌ ثَلَاثًا وَلَمْ يُسْمِعْهُ فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا سَلَّمْتَ تَسْلِيمَةً إِلَّا هِيَ بِأُذُنِي وَلَقَدْ رَدَدْتُ عَلَيْكَ وَلَمْ أَسْمِعْكَ أَحَبِّتُ أَنْ أَسْتَكْثِرَ مِنْ سَلَامِكَ وَمِنْ الْبَرَكَةِ ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْبَيْتَ فَقَرَّبَ لَهُ زَبِيًّا فَأَكَلَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «أَكَلَ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ» ^(٣).

وما الحكمة في اقتران الرحمة والبركة بالسلام؟

قال ابن القيم: فالجواب عنه أن يقال لما كان الإنسان لا سبيل له إلى انتفاعه بالحياة إلا بثلاثة أشياء؛ أحدها سلامته من الشر ومن كل ما يضاد حياته وعيشه والثاني: حصول الخير له والثالث: دوامه وثباته له فإن بهذه الثلاثة يكمل انتفاعه بالحياة.

لقد شرعت التحية متضمنة للثلاثة فقول: (سلام عليكم) يتضمن السلامة من الشر

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٥١٣/٦) ط. دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٠ - تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ: حديث رقم: (١٥١٣).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده حديث رقم: (١١٩٥٧)، وانظر السنن الكبرى للبيهقي (٢٨٧/٧)، ومصنف عبد الرزاق (٣٨٢/١٠)، والسنن الكبرى للنسائي (٨٩/٦)، ورواه في شرح السنة وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٢٤٩).

وقوله: (ورحمة الله) يتضمن حصول الخير وقوله: (وبركاته) يتضمن دوامه وثباته كما هو موضوع لفظ البركة وهو كثرة الخير واستمراره.

ومن هنا يعلم حكمة اقتران اسمه الغفور باسمه الرحيم في عامة القرآن ولما كانت هذه الثلاثة مطلوبة لكل أحد بل هي متضمنة لكل مطالبه وكل المطالب دونها ووسائل إليها وأسباب لتحصيلها جاء لفظ التحية دالاً عليها بالمطابقة تارة وهو كمالها وتارة دالاً عليها بالتضمن وتارة دالاً عليها بالزوم فدلالة اللفظ عليها مطابقة إذا ذكرت بلفظها ودلالته بالتضمن إذا ذكر السلام والرحمة.

فإنهما يتضمنان الثالث ودلالته عليها بالزوم إذا اقتصر على السلام وحده فإنه يستلزم حصول الخير وثباته؛ إذ لو عدم لم تحصل السلامة المطلقة فالسلامة مستلزمة لحصول الرحمة كما تقدم تقريره.

قد عرف بهذا فضل هذه التحية وكمالها على سائر تحيات الأمم ولهذا اختارها الله لعباده وجعلها تحيتهم بينهم في الدنيا وفي دار السلام.

وقد بان لك أنها من محاسن الإسلام وكمالها فإذا كان هذا في فرع من فروع الإسلام وهو التحية التي يعرفها الخاص والعام فما ظنك بسائر محاسن الإسلام^(١).



(١) بدائع الفوائد/ ابن القيم (٢/ ٤٠٤).

١١- البركة في النكاح

فإن الزواج من أعظم نعم الله تعالى على الناس، وقد جعل ذلك من آياته فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ٢١].

قال ابن كثير: أى: خلق لكم من جنسكم إناثا يَكُنَّ لكم أزواجاً ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعنى بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضِلْعِهِ الْأَقْصَرِ الْأَيْسَرِ. ولو أنه جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهى المحبة، ورحمة: وهى الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه فى الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ (١).

وقد حث القرآن الكريم على النكاح فى آيات منها قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ٣]. ورجبت السنة فى النكاح ترغيباً، بل أمر به النبى ﷺ من استطاع من الشباب، فعن علقمة قال: كنت أمشى مع عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمنى فلقيه عثمان، فقام معه يحدثه، فقال له عثمان: يا أبا عبد الرحمن ألا تزوجك جارية شابة لعلها تذكرك بعض ما مضى من زمانك؟! فقال عبد الله: لئن قلت ذاك لقد قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج،

فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١).

قال ابن قدامة: «وهذا حثٌّ على النكاح شديد ووعيد على تركه يقربه إلى الوجوب، والتخلي منه إلى التحريم، ولو كان التخلي أفضل لانعكس الأمر؛ ولأن النبي ﷺ تزوج وبالغ في العدد، وفعل ذلك أصحابه»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يأمرنا بالبائة وينهى عن التبتل نهياً شديداً ويقول: «تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثركم الأمم يوم القيامة»^(٣)، وقد كان عمر رضي الله عنه شديد التحريض عليه حتى لفقراء الناس، وكان يعتقد أن الزواج فيه مفتاح الرزق، فكان يقول: (ابتغوا الغنى في البائة) أى الزواج.

وكان إذا رأى رجلاً عزباً أثبته ورماه بألفاظ تثير حفيظته ليسرع إلى الزواج، فقد رأى أبا الزوائد وقد تقدمت به السن فقال له: (ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور)^(٤).

قال رجل للحسن البصري رحمه الله: يا إمام إن لى ابنة لمن أزوجها؟ قال: زوجها التقى؛ فإنه إن أمسكها أكرمها وإن طلقها لم يظلمها.

وانظر إلى ذلك الصحابي الذي لم يكن يملك من الدنيا إلا الإيمان الذي ملأ قلبه، فأضاء له الدنيا. إنه جلييب رضي الله عنه، فعن أبي برزة الأسلمي أن جلييباً كان امرأً يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتى: لا تدخلن عليكن جلييباً إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجتى

(١) أخرجه البخارى (٤٧٧٨) باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم البائة فليتزوج، ومسلم (١٤٠٠) باب استحباب النكاح لمن طاقت نفسه إليه.

(٢) المغنى / ابن قدامة المقدسى (٣٣٤ / ٧) ط: دار الفكر - بيروت.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده حديث رقم: (١٢١٥٢)، وقال الأرئوط: صحيح لغيره وهذا إسناد قوى.

(٤) انظر المحلى لابن حزم (٩ / ٤٤٠).

ابتتك» قال: نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين قال: «إني لست أريدها لنفسي» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: «لجلييب» قال: أشاور أمها فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابتتك قالت: نعم ونعمة عين قال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجلييب قالت: لجلييب أنه لجلييب أنه لا لعمر الله لا نزوجه فلما أن أراد ليقوم ليأتي النبي ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره ادفعوني إليه فانه لن يضيعني فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: شأنك بها فزوجها جلييباً قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له قال: فلما أفاء الله عز وجل عليه قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا قال: «لكني أفقد جلييباً» قال: «فاطلبوه» فوجدوه إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه فأتاه النبي ﷺ فقال: «قتل سبعة ثم قتلوه هذا مني وأنا منه» مرتين أو ثلاثاً ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ماله سرير إلا ساعدا النبي ﷺ ثم وضعه في قبره لم يذكر أنه غسله قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها، وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ قال: «اللهم صب عليها الخير صباً ولا تجعل عيشها كدّاً» قال: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها ^(١).

فانظروا - رحمكم الله - إلى هذا الرجل الذي يفتخر به النبي ﷺ، ويضع ساعده الشريف وسادة له حتى يحفر له القبر إكراماً له، مع أنه من الفقراء في المال، لكنه من الأغزاء بالإسلام المشرفين بالانتساب له.

إن من الأسباب الرئيسة لتوقف كثير من الشباب عن الزواج، ثقل المهور، والتبذير الشديد في تجهيز العروسين، وغير ذلك. ولذلك جعل النبي ﷺ أفضل النساء من سهل مهرها، وتيسرت خطبتها فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٢) باب من فضائل جلييب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أحمد في المسند أطول منه حديث رقم: (١٨٩٧١). وقال الهيثمي في المجمع (٩ / ٣٦٧، ٣٦٨): رواه أحمد والبخاري ورجال أحمد رجال الصحيح وهي بغير هذا السياق.

أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَهٗ أَيْسَرُهُ مُؤَنَّةٌ»^(١)، وفي رواية: «إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها وتيسير رحمها»^(٢). قال عروة: يعنى الولادة.

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصداق أيسره»^(٣).

وعن أبي سلمة قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كم كان صداق نساء النبي ﷺ؟، قالت: «صداقه في أزواجه اثنتى عشرة أوقية ونشأ، هل تدري ما النش؟ هو نصف أوقية وذلك خمس مائة درهم فهذا صداق رسول الله ﷺ لأزواجه»^(٤).

و عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا تغلوا صداق النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى في الآخرة كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا أصدق امرأة من بناته، أكثر من اثنتى عشرة أوقية»^(٥).

والأوقية أربعون درهم، والدرهم الإسلامي مقداره ربع ريال سعودي، فخمسمائة درهم مجموعها مائة ريال سعودي فضة وخمسة وعشرون ريالاً. هذا هو مقدار صداق الرسول ﷺ لأزواجه وبناته. والله سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالمغالة في الصداق ليست مكرمة في الدنيا، ولا تقوى في الآخرة، بل إسراف والله لا يحب المسرفين. فالمغالة في المهور، والإسراف في الجهاز والنفقات تمحق بركة الزواج، وهذا هو الذي جعل أكثر الشباب عزباً، وجعل أكثر البنات عوانس، والجريمة جريمة أولياء الأمور الذين يتشددون في هذا الأمر، وهذا من أقوى أسباب

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد في المسند برقم: (٢٣٣٨٨)، (٢٣٩٦٦)، بإسناد حسن والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد جيد، و«النسائي» في «الكبرى»، وتحفة الأشراف: (١٢/١٧٥٦٦).

(٢) حسن: أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٢٢٣٥).

(٣) صحيح: أخرجه الحاكم وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/٢٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٤٢٦) باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك من قليل وكثير.

(٥) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي، وصححه الألباني في المشكاة (٣٢٠٤)، والإرواء (١٩٢٧).

الفساد في الأمة والعياذ بالله. فالعاقل من إذا جاءه من يرضى دينه وعقله فليزوجه، وينقاد لدينه الحق، وتعاليمه السامية، ويرضى بالميسور وعليه ألا ينخدع بالمظاهر الخداعة الزائفة، فديننا الحنيف لا يعنى بالمظاهر، ولا بالشكليات بقدر ما يراعى جوهر الإنسان وطيب معدنه، ونقاء قلبه^(١).

فعن سهل بن سعد قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا» فقال رجل من أشرف الناس: هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع. قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مر على رجل فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح. وإن شفع أن لا يشفع. وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا^(٢). وإليك هذه القصة التي سجلها التاريخ، وتحدث الناس بها، إنها قصة ذلك العالم الجليل، النقيّ التقى، سيد التابعين، وفقهه المدينة النبوية، إنه سعيد بن المسيب رحمه الله. قال ابن كثير في البداية والنهاية: (وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته، على درهمين لكثير بن أبي وداعة^(٣))، وكانت من أحسن النساء، وأكثرهم أدبًا، وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج، وكان زوجها فقيرًا فأرسل إليه خمسة آلاف، وقيل: بعشرين ألفًا وقال: استنق هذه، وقد كان عبد الملك خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها^(٤).

فرحم الله سعيد بن المسيب فإنه لم يزوّج ابنته من أجل المال والرياء والسمعة، وإنما زوجها من أجل الدين والستر والأخلاق الفاضلة والاستقامة. وكلما كانت التكاليف أقل وأيسر سهل إعفاف الرجال والنساء وقلّت الفواحش والمنكرات

(١) الوصايا المنبرية/ محمد بحيرى (١/ ٣٣٦-٣٣٧) ط. المكتبة التوفيقية.

(٢) أخرجه البخارى (٦٠٨٢) باب فضل الفقر.

(٣) في وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٦): زوجها من أبى وداعة، وفي طبقات ابن سعد (٥/ ١٣٨): زوجها من ابن أخيه، وفي رواية أخرى عنده: من شاب من قریش.

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١١٨-١١٩).

وكثر الأمة. وكلما عظمت التكاليف وتنافس الناس في المهور قلّ الزواج وكثر السفاح وتعطل الشباب والفتيات إلاّ من شاء الله.

لا شك ولا ريب أنّ الأب الحنون المؤمن بالله والسائر على سنة رسول الله ﷺ لا يريد إلاّ الحياة السعيدة المطمئنة، لابنته ولزوجها. فإذا كان هذا فاتبع هدى الحبيب ﷺ في صدق ابتك وكن كما قال ﷺ: «يسرّوا ولا تعسّروا»^(١).

التهنئة والدعاء بالبركة

التهنئة مستحبة في الجملة؛ لأنّها مشاركة بالتبريك والدعاء - من المسلم لأخيه المسلم فيما يسره ويرضيه، ولما في ذلك من التوادّ، والتراحم، والتعاطف بين المسلمين. وقد جاء في القرآن الكريم تهنئة المؤمنين على ما ينالون من نعيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) [المرسلات: ٤٣].

والتهنئة تكون بكلّ ما يسرّ ويسعد ممّا يوافق شرع الله تعالى، ومن ذلك: التهنئة بالنكاح، والتهنئة بالمولود، والتهنئة بالعيد والأعوام والأشهر، والتهنئة بالقدوم من السفر، والتهنئة بالقدوم من الحجّ أو العمرة، والتهنئة بالطعام، والتهنئة بالفرج بعد الشدة.

التهنئة بالنكاح

وهي الدعاء للزوج أو للزوجة أو لهما بالبركة والالتئام وجمع الشمل والذرية الطيبة. وجمهور الفقهاء على استحباب التهنئة بالنكاح: أي الدعاء للزوج أو للزوجة أو لهما بالسرور وعدم الكدر. لما روى «أن النبي ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة فقال: ما هذا؟ قال: إني تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، فقال ﷺ: بارك الله لك، أولم ولو بشاة»^(٢)، ولما روى في الصحيح «أنه ﷺ قال لجابر

(١) أخرجه البخاري (٦٩) باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ومسلم (١٧٣٤) باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير. من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٣) باب الدعاء للمتزوج، ومسلم (١٤٢٧) باب الصداق وجواز كونه تعليم

بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أخبره أنه تزوج: بارك الله عليك»^(١).

واستحباب التهنة ثابت في حق من حضر النكاح سواء الولي أو غيره، وينبغي ذلك لمن لم يحضر إذا لقي الزوج. وتكون التهنة عقب عقد النكاح والدخول، ويطول وقتها بطول الزمن عرفاً وذلك لمن حضر العقد أو الدخول، أما من لم يحضر فستحب له التهنة إذا لقي الزوج ما لم تطل المدة في عرف الناس.

صيغة التهنة بالنكاح

ولفظ تهنة الزوج بالنكاح: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير لما ورد في حديثي عبد الرحمن بن عوف وجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - السابقين - ولما روى عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ كان إذا رفاً»^(٢) إنساناً تزوج قال: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»^(٣).

وعن عقيل بن أبي طالب أنه تزوج امرأة من بنى جشم فقالوا: بالرفاء والبنين فقال لا تقولوا هكذا ولكن قولوا كما قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لهم وبارك عليهم»^(٤). وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها

= قرآن وخاتم حديد.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) باب الدعاء للمتزوج.

(٢) رفاً: هناء ودعا له. والترفة: مصدر رفاً، يقال: رفاه ترفته وترفياً، ورفاه ترفته وترفيتاً أى دعا له وقال: بالرفاء والبنين، أى: بالالتئام وجمع الشمل، لأن أصل الرفاء الاجتماع والتلاؤم، ومنه رفاً أى تزوج. وعلى هذا تكون الترفة في اللغة: التهنة بالنكاح. ولا يخرج معناها في الاصطلاح عن المعنى في اللغة. والترفة أخص من التهنة، لأن الترفة هي التهنة بالنكاح خاصة، أما التهنة فتكون بالنكاح أو غيره. انظر الموسوعة الفقهية (١٤/٩٦-٩٧)، والقاموس المحيط (١٠/١)، ولسان العرب (١/٨٦).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرک برقم (٢٦٩٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٣٠)، وصحيح الترمذي (١٠٩١)، وصحيح ابن ماجه (٢٩٠٥). وانظر حديث رقم: (٤٧٢٩) في صحيح الجامع.

(٤) صحيح: أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٩٠٦).

وشر ما جبلتها عليه وإذا اشترى بغيراً فليأخذ بذروة سنامه وليقل مثل ذلك» وفي رواية في المرأة والخادم: «ثم ليأخذ بناصيتها وليدع بالبركة»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً»^(٢).

وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إني تزوجت امرأة، وإني أخاف أن تفركني، فقال عبد الله: إن الإلف من الله، وإن الفك من الشيطان، ليكره إليه ما أحل الله، فإذا أدخلت عليك فمرها فلتصل خلفك ركعتين، قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم، قال: وقال عبد الله: وقل: اللهم بارك لي في أهلي، وبارك لهم في، وارزقني منهم، وارزقهم مني، اللهم اجمع بيننا ما جمعت إلى خير، وفرق بيننا إذا فرقت إلى خير^(٣).

عن عطاء قال: أراه عن ابن عباس: ﴿وَقَدِّمُوا لَافُسَكُمْ﴾ قال: يقول: «باسم الله»، التسمية عند الجماع^(٤).

وعن الحسن قال: يقال: إذا أتى الرجل أهله فليقل: بسم الله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، ولا تجعل للشيطان نصيباً فيما رزقتنا، قال: فكان يرجي إن حملت أو تلقت، أن يكون ولداً صالحاً^(٥).

وفي الزواج عدة فوائد: الولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة،

(١) حسن: أخرجه أبو داود وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢١٦٠)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢٢٥٢)، والمشكاة (٢٤٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١) باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، ومسلم (١٤٣٤) باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع.

(٣) صحيح: أخرجه الطبراني، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (٤: ٢٩٢). وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٦١) برقم: (١٠٤٦١) وقال الألباني في أدب الزفاف أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة، وكذا عبد الرزاق في «مصنفه» وسنده صحيح، وأخرجه الطبراني بسندين صحيحين. انظر أدب الزفاف في السنة المطهرة: ص (٢٣) ط. المكتب الإسلامي - بيروت سنة النشر ١٤٠٩.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٤١٧) برقم: (٤٣٥٠) وابن كثير (١/ ٥٩٩).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٩٤) برقم: (١٠٤٦٧).

ومجاهدة النفس بالقيام بهن، وهو مصدر سعادة الطرفين؛ لأن فيه سكناً، وفي السكن طمأنينة وراحة، وفي السكن سكون للنفس.

ومما ينبغي أن يعلم أن الزواج فطرة قبل أن يكون شرعة؛ فهو فطرة أودعها الله الخلق يوم خلقه: قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩).

والإنسان أشرف من خلق الله، اشتمل على نفس التكوين ذكر وأنثى، وفطر كل شطر بالميل إلى الشطر الآخر، وقد ذكرنا الله تعالى بأصلنا ليزداد إيماننا وشكرنا. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩).

من بركات الزواج

كم في الزواج من بركات غفل عنها كثير من المسلمين ومنها:

أولاً: البعد عن الوقوع في الفواحش والمنكرات التي حرمها الله عز وجل: فإن الشاب تتهيج غريزته مع فوران شبابه وطيشه فيكون عندها على خطر مقحم بل على استعداد أن يقع في شباك الرذيلة - إلا من رحم الله - فإذا تزوج أمن بإذن الله من ذلك ونجا بنفسه. قال رسول الله ﷺ:

«من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان فليترك الله في النصف الباقي»^(١).

فالزواج دعوة للحفاظ على النسل، ودعوة لحماية النفس من الوقوع في الرذيلة. وعندما ارتكب قوم لوط تلك الجريمة البشعة التي تنافي الدين والخلق والكرامة والمروءة، تلك الجريمة الشنعاء التي تتعارض مع الفطرة السليمة، ويقال بأن أولئك القوم هم أول من أحدث هذه الفعلة، ولم يكن لها سابق في هذا الأمر، فبعدما دعاهم

(١) حسن: أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٦١٤٨)، والمشكاة (٣٠٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

نبههم لوط عليه السلام، وحذرهم بل وعرض عليهم بناته لينكحوهم عن طريق الزواج الشرعي، رفضوا الزواج وأصروا على مقارفة الجريمة، أرسل الله ملائكته وأمرهم أن يمتطروهم بحجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين، فكانت الحجارة سلاحاً إلهياً فتاكاً ومدمراً في يد الملائكة.

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجْبَيْنَهُ وَاهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤] وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُئُسُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوهُ إِلَيْكَ فَأَنْسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ آتِيلٍ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

[هود: ٨١-٨٣].

ومحافظة على الصحة العامة للإنسان أحل الله له الزواج. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١). ودعاه إلى الامتناع عن الزنا والشذوذ الجنسي لوقايته من الأمراض الجنسية؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقد أثبت العلم المعاصر صحة تحذير القرآن الكريم من الزنا، وأتى سبيل أسوأ من سبيل انتهاء الزاني إلى مرض الإيدز الذي يعرف الجميع خطورته على البشرية والحياة الاجتماعية والنفسية.

ثانياً: الزواج مجلبة للمال والرزق الحلال: قد تقول وكيف يكون ذلك ومع الزواج

تزداد المصاريف والنفقات، مأكّل ومشرب وإيجار منزل وغير ذلك مما يقصم الظهر ولا أستطيع حمله فكيف يكون الزواج مجلبة للمال. أقول لك رويداً أيها المؤمن بقضاء الله وقدره، واسمع إلى ما يقوّى إيمانك ويهدئ من روعك.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ^(١) مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

قيل: الغنى هاهنا: القناعة. وقيل: اجتماع الرزقين، رزق الزوج ورزق الزوجة. وقال عمر: عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عز وجل يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وروى عن بعضهم: أن الله تعالى وعد الغنى بالنكاح وبالتفريق فقال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِيَ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]^(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «رغبهم في التزويج وأمرهم به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله».

وعن سعيد - يعني: ابن عبد العزيز - قال: بلغني أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤).

قال الطبري في تفسيره: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ يقول: إن يكن هؤلاء الذين تُنكِحونهم

(١) «الأيامى»: جمع أيم، وهو من لا زوج له من رجل أو امرأة، يقال: رجل أيم وامرأة أيمة، وأيم. معالم التنزيل / البغوى (٣٨/٦).

(٢) معالم التنزيل / البغوى (٤٠/٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٥١/٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٦٦/١٩)، وذكر البغوى عن عمر بنحوه.

من أيامي رجالكم ونسائكم وعبيدكم وإمائكم أهل فاقة وفقر، فإن الله يغيثهم من فضله، فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْكُمْ﴾ (٣٢) يقول جل ثناؤه: والله واسع الفضل جواد بعطاياه، فزوّجوا إماءكم، فإن الله واسع يوسع عليهم من فضله، إن كانوا فقراء. عليم: يقول: هو ذو علم بالفقير منهم والغنى، لا يخفى عليه حال خلقه في شيء وتديبرهم (١).

ولعلّي أن أهديك هذا الحديث المطمئن لقلبك والشاذّ لأسرك وهو قوله ﷺ: «ثلاثة حق على الله تعالى عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» (٢).

ثالثاً: تكثير أمة محمد ﷺ، بالكثرة تقوى الأمة وتهاب بين الأمم وتكتفى بذاتها عن غيرها إذا استعملت طاقتها فيما وجهها إليه الشرع المطهر. إضافة إلى تحقيق مباهاة النبي ﷺ القائل: «تزوجوا الودود الولود فإنّي مكاثر بكم الأمم» (٣).

الزواج دعوة قرآنية وسنة نبوية: قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وهذا الأمر أمر ندب واستحباب.

يستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة النكاح أن يتزوج، وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم (٤). عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (٥).

إنها دعوة قرآنية، ونداءات ربانية، وآيات تتلى إلى يوم الساعة في هذا النهج

(١) تفسير الطبري (١٩/١٦٦).

(٢) حسن: أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٥١٨) والمشكاة (٣٠٨٩)، وصحيح الجامع: (٣٠٥٠).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني في المشكاة (٣٠٩١)، وصحيح الترغيب (١٩٢١) وانظر حديث رقم: (٢٩٤٠) في صحيح الجامع.

(٤) معالم التنزيل / البغوى (٦/٣٨).

(٥) تقدم.

والحث عليه، قال ﷺ: «النكاح من ستنى فمن لم يعمل بstenى فليس منى»^(١).

رابعاً: الإعانة الإلهية: تكفل بها الله - سبحانه وتعالى - لكل سالك في هذا السبيل، وآخر في هذا الطريق طالب التزام الشرع، واقتفاء الهدى النبوى، طالب عفة تمنعه من الحرام، وحياء يجعله في كمال من الإنسانية، والفترة السوية كما جاء في تلك الآيات كذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

إن الأمر المادى قد وردت به الإعانة الربانية وورد في ذلك عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذى يريد الأداء والناكح الذى يريد العفاف والمجاهد في سبيل الله»^(٢). فهذا ليس بعده شىء أظهر في شأن العناية من هذا.

خامساً: المثوبة الربانية: عجباً لهذه الشريعة العظيمة كيف تجعل قضاء الوطر وأداء حظوظ النفس ومتعة وشهوة الغريزة إذا كانت على النهج السديد والشرع الحكيم أمراً تكتب به الحسنات وترفع به الدرجات وكذلك قال النبى ﷺ وتعجب الصحابة في أول الأمر عندما قال عليه الصلاة والسلام: «وفى بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله! أياتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! عجباً كيف يسعى الإنسان إلى شىء تميل إليه نفسه ويهفوا إليه قلبه وتدعوه إليه غرائزه ثم يكتب له أجر تعجب الصحابة وظهرت مزية الشريعة السمحاء فقال عليه الصلاة والسلام: «أرايتم إن وضعها في حرام أكان عليه وزر؟!» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «كذلك إن وضعها في حلال أن يكون له الأجر»^(٣).

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (١٨٤٦)، وحسنه الألبانى في الصحيحة (٢٣٨٣).

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٠٦) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف. عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة وفى بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أياتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرايتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

فما هذه الصورة إلا تجلية للعناية الفائقة بهذا الحصن الحصين كي تسعى إليه الأمة راغبة في مثوبة الله مقتفية هدى رسول الله ﷺ راغبة فيما اختاره الله لها مما يعصمها ويقيها من الشرور والمصائب.

سادساً: تحقيق المتعة: وذلك مما جاءت به الآيات، كما قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

الزواج.. هو الطريق الشرعي لحماية الفطرة.. ونشر للفضيلة.. فعن جابر أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تمعس منيئة^(١) لها فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه»^(٢).

قال النووي رحمه الله: وفي الرواية الأخرى: «إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقع في قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يرد ما في نفسه». هذه الرواية الثانية مبينة للأولى. ومعنى الحديث: أنه يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتي امرأته...، فليواقعها ليدفع شهوته، وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصده.

وقوله ﷺ: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان» قال العلماء: معناه: الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بنظرهن، وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له. ويستنبط من هذا أنه ينبغي لها ألا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغض عن ثيابها، والإعراض عنها مطلقاً^(٣). ولما جاءت وافدة النساء تسأل وتذكر ما فضل الله به الرجال على النساء في بعض

(١) قوله: (تمعس منيئة) قال أهل اللغة: المعس: الدلك، و(المنيئة) قال أهل اللغة: هي الجلد أول ما يوضع الدباغ، وقال الكسائي: يسمى منيئة ما دام في الدباغ، وقال أبو عبيدة: هو في أول الدباغ منيئة.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٣) باب ندب من رأى امرأة فوقع في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فليواقعها.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٨/٩).

التشريعات كالجهاد والجمع وغيرها، قال عليه الصلاة والسلام: «إن حسن تبعل إحداكن لزوجها يعدل ذلك كله»^(١).

وليس هذا منه عليه الصلاة والسلام كلامًا عاطفيًا لاسترضاء النساء فهو عليه الصلاة والسلام: كما قال عنه ربه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢).

[النجم: ٣، ٤].

إنها الأسس التي تديم هذا البناء متماسكًا وتجعل الحياة رغم تقلباتها وظروفها الصعبة مستمرة على هذا النهج الذي يمثل العلاقة في أثناء التعامل ويواجه المشكلات والصعوبات.

ورأينا كذلك فيما قد يحصل من الخلل حتى وإن كان هذا الخلل تغليبًا لبعض الجوانب الذي قد يحبها المؤمن ويقبل عليها من العبادات.

كما ثبت في صحيح البخاري وغيره من قصة أبي الدرداء وسلمان الفارسي عندما جاء سلمان رضي الله عنه فرأى أم الدرداء في هيئة مبتذلة فسأل بعد أن سلم فقالت: أخوك أبو الدرداء ليس لنا منه نصيب، قد تفرغ للطاعة والعبادة، فنزل عليه ضيفًا - كما هي القصة المشهورة - فلما حلَّ به ضيفًا دعاه إلى الطعام فقال له سلمان: كل معي! قال: إني صائم، قال: عزمت عليك إلا أكلت، حتى جعله يفطر؛ لأنه كان متطوعًا في صومه، ثم أراد أن يقوم في الليل بعد العشاء قال له: نم، ثم أراد أن يقوم ليصلي فقال له، نم، ثم بعد فترة قال له: نم، حتى إذا بقي الثلث الأخير قال له: الآن فقم، ثم قال له: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولزوجك - وفي رواية لأهلك - عليك حقًا، وإن لزوارك - أي ضيفك - عليك حقًا فأعط كل ذي حق حقه»، فمضى أبو الدرداء يذكر هذا لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال عليه

(١) عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها قالت: يا رسول الله! أنا وافدة النساء إليك إن الرجال فضلوا علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج والعمرة والرباط، قال: «انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله». كنز العمال (٤١١/١٦) حديث رقم: (٤٥١٥٧).

الصلاة والسلام: «صدق سلمان»^(١).

سابعاً: طاعة المرأة لزوجها سبب دخولها الجنة: ومن حق الزوج على زوجته، أن تطيعه في المعروف، وأن تتابعه في مسكنه، وألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، وألا تأذن لأحد في بيته إلا بإذنه، وألا تخرج بغير إذنه، وأن تشكر له نعمته عليها ولا تكفرها، وأن تدبر منزله وتهيئ أسباب المعيشة به، وأن تحفظه في دينه وعرضه. قال رسول الله: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»^(٢).

لا بد للمرأة أن تفقه أن هذه القوامه والطاعة جزء من دين الله - عز وجل - وأنها سبيل من سبل التكامل وحسن التعاون في هذه الأسرة وبنائها، وحسبنا التذكير ما جاء عن النبي ﷺ: «لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٣).
عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها وأطاعت בעلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت»^(٤).

وهاهو النبي ﷺ يصرح تصريحاً في أدب جم رفيع وهو يذكر أن المرأة إذا دعاها زوجها لفراشها فأبت باتت الملائكة تلعنها حتى تصبح.

ويدعوها مؤكداً فيقول: «المرأة لا تؤدي حق الله عليها حتى تؤدي حق زوجها حتى لو سألها وهي على ظهر قتب لم تمنعه نفسها»^(٥)، وفي بعض الروايات: «على تنور»^(٦)،

(١) أخرجه البخاري (١٨٦٧) باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له.

(٢) **ضعيف:** أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرک (١٧٣/٤) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. ولكن الذهبي نفسه في ميزان الاعتدال (٩٥/٤) يقول عن مساور الحميري: مساور الحميري عن أمه عن أم سلمة، فيه جهالة، والخبر منكرو. وقال ابن حجر في التقریب (٦٦٣١): مجهول. وانظر السلسلة الضعيفة للألباني (١٤٢٦).

(٣) **صحيح:** أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حديث حسن صحيح وأخرجه أحمد عن معاذ والحاكم عن بريدة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٤).

(٤) **صحيح:** أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٠).

(٥) **صحيح:** أخرجه الطبراني بإسناد جيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣)، وصحيح الترغيب (١٩٤٣).

(٦) **صحيح:** أخرجه أحمد والطبراني عن طلق بن علي. انظر حديث رقم: (٣٠١) في صحيح الجامع.

لماذا؟ لأن هذا مقصد عظيم من مقاصد الزواج، وبه يقع الائتلاف، وبدونه تأخذ أسباب الانحراف بدايتها لتصل إلى مداها.

ومن هنا كان - عليه الصلاة والسلام - واضحاً وصريحاً رغم ما نقوله من الأدب والعفة في قوله عليه الصلاة والسلام يقول: «فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله؛ فإن معها مثل الذي معها»^(١).

إنها قضية حقيقية لا ينبغي أن نغمض العيون عنها، والمرأة المسلمة والزوجة الصالحة ينبغي أن تعي ذلك، وأن تدرك أهميته في هذا الواقع الذي يغزو بكل شهواته وإغراءاته الناس في عقر بيوتهم، يصمم آذانهم، ويواجه عيونهم، ويفتن قلوبهم، ويخطف ألبابهم، ويغري بأساليب؛ لعلنا لو بالغنا نقول إن الشيطان - عليه لعنة الله - لا يخطر له ما يصنعه بعض أبالسة الإنس من هذه الأساليب، وكلنا يسمع من ذلك ويدرك بحسب.

ثامناً: التعليم والإرشاد: لأن الله تعالى قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، وكان النبي - عليه الصلاة والسلام - حريصاً كما ورد عند ابن حجر في الإفاضة في ترجمة الشفاء بنت عبد الله أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لها: «خذي حفصة فعلميها الكتابة»، هذا التعليم والتوجيه ضيعناه وقصرنا فيه! وهو خلل شرع إليها منه شرر وضرر كبير.

وهذا كما جاء في كتاب الله. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يُؤْتِيكَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

= بلفظ: «إذا أراد أحدكم من امرأته حاجته فليأتها وإن كانت على تنور». و(التنور): ما توقد فيه النار للخبز وغيره، وهو في الأكثر يكون حفيرة في الأرض، وربما كان على وجه الأرض، ووهم من خصه بالأول. والمعنى: وإن كانت تخبز عليه مع أنه شغل شاغل لا تتفرغ منه إلى غيره إلا بعد انقضائه. انظر فتح الباری (١/٥٢٨)، وفيض القدير (١/٣٤٧).

(١) صحيح: أخرجه الترمذی وابن حبان من حديث جابر (١١٥٨) قال أبو عيسى حديث جابر حديث صحيح حسن غريب، وصححه الألبانی في صحيح الجامع (١٩٣٩).

قال الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره لأزواج نبيه محمد ﷺ: واذكرن نعمة الله عليكن؛ بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك، واحمدنه عليه، وعنى بقوله: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: واذكرن ما يقرأ في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة، ويعنى بالحكمة: ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة. عن قتادة في قوله: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾: أى: السنة، قال: يمتن عليهم بذلك ^(١).

تاسعا: صلة الأرحام التي أمر الله تعالى أن توصل: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ^(٢) [الرعد: ٢١].

قال ابن كثير: من صلة الأرحام، والإحسان إليهم ^(٣).

وقال الطبري: والذين يصلون الرحم التي أمرهم الله بوصلها فلا يقطعونها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، يقول: ويخافون الله في قطعها أن يقطعوها، فيعاقبهم على قطعها وعلى خلافهم أمره فيها ^(٣).

إن هذا المجتمع من خلال هذه الأسرة تقوى أو اصره، وتمتد جسوره، وتزداد رحمته، ويعظم تكافله، وتقوى وشائجه، ويكون لنا ذلك المجتمع المسلم المتراحم الذى لا يكاد أحد إلا ويجد له سكباً أو صلة من هنا أو هناك بهذا أو بذاك، فيكون لنا أثر في هذا المعنى المهم والعظيم. ثم نجد هذه الرحم التي جاءت الوصية بها كثيراً في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ^(١) [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ^(٢) [محمد: ٢٢]. وفي حديث المصطفى ﷺ في شأن الرحم، وأن الله اشتق لها اسماً من اسمه أى أخذ اسمها من هذا الاسم كما في حديث عبد الرحمن بن عوف في

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٤).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤٢٠).

السنن مرفوعاً «أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته»^(١).

قال ابن حجر في الفتح: والمعنى أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها؛ فالقاطع لها منقطع من رحمة الله. وقال الإسماعيلي: معنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقه، وليس معناه أنها من ذات الله. تعالى الله عن ذلك. قال القرطبي: الرحم التي توصل عامة وخاصة.

فالعامة رحم الدين وتجب مواصلتها بالتوادم والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة. وأما الرحم الخاصة فتزید للنفقة على القريب وتفقد أحوالهم والتغافل عن زلاتهم. وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك، وقال ابن أبي جمرة: تكون صلة الرحم بالمال، وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء. والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفاراً أو فجاراً فمقاطعتهم في الله هي صلتهم، بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى^(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت: بلى قال: فذاك لك ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا إن شئتم» ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٣) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) ﴿

[محمد: ٢٢-٢٤] ^(٣).

(١) صحيح: أخرجه أبو داود، وصححه الألباني في المشكاة (٤٩٣٠)، وصحيح الترغيب (٢٥٢٨).

(٢) فتح الباري/ ابن حجر (١٠/٤١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٢) باب ﴿وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، ومسلم (٢٥٥٤) باب صلة الرحم وتحريم

قال ابن أبي جمرة: الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه، وإنما خاطب الناس بما يفهمون، ولما كان أعظم ما يعطيه المحبوب لمحبه الوصال وهو القرب منه وإسعافه بما يريد ومساعدته على ما يرضيه، وكانت حقيقة ذلك مستحيلة في حق الله تعالى، عرف أن ذلك كناية عن عظيم إحسانه لعبده. قال: وكذا القول في القطع، هو كناية عن حرمان الإحسان.

وقال القرطبي: وسواء قلنا إنه يعنى القول المنسوب إلى الرحم على سبيل المجاز أو الحقيقة أو إنه على جهة التقدير والتمثيل كأن يكون المعنى: لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت كذا، ومثله ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَنِشَعًا﴾ الآية، وفي آخرها ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فمقصود هذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره فأدخله في حمايته، وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول^(١).

عاشراً: تخفيف الزوجين كل منهم عن الآخر: لا شيء يخفف أثقال الحياة، وأوزار المتاعب، عن كاهل الزوجين، كمثل أحدهما للآخر، ولا شيء يعزى الإنسان عن مصابه في نفسه وغيره مثل المرأة للرجل، والرجل للمرأة؛ فيشعر المصاب منهما بأن له نفساً أخرى، تمدّه بالقوة، وتشاطره مصيبته. فهذه أم المؤمنين خديجة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زوج النبي ﷺ، كانت له في المحنة قلباً عظيماً، وكانت لنفسه كقول: (نعم)، فكانما لم تنطق قط (لا)، إلا في الشهادتين، وما زالت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، تعطيه من معاني التأيد والتهوين، كأنما تلد له المسرات من عواطفها، كما تلد الذرية من أحشائها؛ بمالها توأسيه، وبكلامها تسليه «كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك تصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»^(٢).

= قطيعتها.

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) أخرجه البخارى باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: اشتكى ابن لأبى طلحة قال: فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً^(١) ونحته في جانب البيت^(٢) فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح^(٣) وظن أبو طلحة أنها صادقة^(٤) قال فبات^(٥) فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات^(٦) فصلى مع النبي ﷺ ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما» قال سفيان: فقال رجل من

(١) قوله: (هيأت شيئاً) قال الكرمانى: أى أعدت طعاماً لأبى طلحة وأصلحته، وقيل: هيأت حالها وتزينت. قال ابن حجر: بل الصواب أن المراد أنها هيأت أمر الصبي بأن غسلته وكفنته كما ورد في بعض طرقه صريحاً، ففي رواية أبو داود الطيالسى عن مشايخه عن ثابت «فهيأت الصبي»، وفي رواية حميد عند ابن سعد «فتوفى الغلام فهيأت أم سليم أمره»، وفي رواية عمارة بن زاذان عن ثابت «فهلك الصبي فقامت أم سليم فغسلته وكفنته وحنطته وسجت عليه ثوباً».

(٢) قوله: (ونحته في جانب البيت) أى جعلته في جانب البيت، وفي رواية جعفر عن ثابت «فجعلته في مخدعها».

(٣) قال المهلب: في قول أم سليم: «هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح» التسلية عن المصائب بالتعريض من الكلام الذى يحتمل معنيين، فإنها أخبرت بكلام لم تكذب فيه، ولكن ورت به عن المعنى الذى كان يحزنها، ألا ترى أن نفسه قد هدأت كما قالت بالموت وانقطاع النفس، وأوهمته أنه استراح قلقه، وإنما استراح من نصب الدنيا وهمها. شرح صحيح البخارى / لابن بطال (٣/ ٢٨٥).

(٤) أى بالنسبة إلى ما فهمه من كلامها، وإلا فهي صادقة بالنسبة إلى ما أرادت.

(٥) قوله: (فبات) أى معها (فلما أصبح اغتسل) فيه كناية عن الجماع، لأن الغسل إنما يكون فى الغالب منه، وقد وقع التصريح بذلك فى غير هذه الرواية: ففي رواية أنس بن سيرين «فقربت إليه العشاء فتعشى، ثم أصاب منها»، وفي رواية عبد الله «ثم تعرضت له فأصاب منها»، وفي رواية حماد عن ثابت «ثم تطيبت»، زاد جعفر عن ثابت «فترضت له حتى وقع بها» وفي رواية سليمان عن ثابت «ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها».

(٦) قوله: (فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات) زاد سليمان بن المغيرة عن ثابت عند مسلم «فقال: يا أبا طلحة، أرايت لو أن قومًا أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. فغضب وقال: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني»، وفي رواية عبد الله «فقال: يا أبا طلحة، أرايت قومًا أعاروا متاعاً ثم بدا لهم فيه فأخذوه فكأنهم وجدوا في أنفسهم» زاد حماد في روايته عن ثابت «فأبوا أن يردوها، فقال أبو طلحة: ليس لهم ذلك، إن العارية مؤداة إلى أهلها. ثم اتفقا، فقالت: إن الله أعارنا فلاناً ثم أخذه منا» زاد حماد «فاسترجع».

الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن ^(١). ^(٢).

حادى عشر: انجاب الذرية الصالحة المباركة التى تعبد الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] ^(٣).

قال ابن كثير: يعنى: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلاهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له.

قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فتقرُّ به أعينهم فى الدنيا والآخرة ^(٤).
عن عكرمة، فى قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لم يريدوا بذلك صاحبة ولا جمالاً ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين ^(٥).

وقال الحسن البصرى - وسئل عن هذه الآية - فقال: أَنْ يُرَى اللَّهُ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ مِنْ زَوْجَتِهِ، مِنْ أَخِيهِ، مِنْ وَلَدِهِ، مِنْ حَمِيمِهِ طَاعَةَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا شَيْءٌ أَقَرُّ لِعَيْنِ الْمُسْلِمِ مِنْ أَنْ يَرَى وَالِدًا أَوْ وَلَدًا أَوْ أَخًا أَوْ حَمِيمًا مُطِيعًا لِلَّهِ ^(٦).

وقال ابن جرير فى قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى: يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام ^(٧).

وقال الزمخشري: سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عما لا لله، يسرون بمكانهم، وتقرُّ بهم عيونهم. وعن محمد بن كعب: ليس شىء أقر لعين المؤمن من أن

(١) قال ابن حجر فى الفتح: وإنما المراد من أولاد ولدتهما المدعوله بالبركة وهو عبد الله بن أبى طلحة ووقع فى رواية سفيان «تسعة» وفى هذه «سبعة» فلعل فى أحدهما تصحيحاً، أو المراد بالسبعة من ختم القرآن كله وبالتسعة من قرأ معظمه.

(٢) أخرجه البخارى (١٢٣٩) باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة، ومسلم (٢١٤٤) باب من فضائل أبى طلحة الأنصارى رضى الله تعالى عنه.

(٣) قرأه أعين: أى: تقر بهم أعيننا.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره رقم (١٦٢٧٠).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره رقم (١٦٢٧١).

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره رقم (١٦٢٧٢).

(٧) تفسير ابن كثير (١٣٢/٦).

يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم^(١).

وقال الألوسي في تفسيره: بتوفيقهم للطاعة كما روى عن ابن عباس. والحسن. وعكرمة ومجاهد. فإن المؤمن الصادق إذا رأى أهله قد شاركوه في الطاعة قرت بهم عينه وسر قلبه وتوقع نفعهم له في الدنيا حياً وميتاً ولحوقهم به في الآخرة، وذكر أنه كان في أول الإسلام يهتدى الأب والابن وكافر الزوج والزوجة كافرة فلا يطيب عيش ذلك المهتدى فكان يدعو بما ذكر^(٢).

وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

قال أبو جعفر: فتأويل الآية، فعند ذلك دعا زكريا ربه فقال: رب هب لي من عندك ولداً مباركاً، إنك ذو سمعٍ دعاءٍ من دعاك^(٣).

وعن السدي: «قال رب هب لي من لَدُنْكَ ذرية طيبة»، يقول: مباركة^(٤).

قال القرطبي: ﴿هَبْ لِي﴾ أعطني. ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك. ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي نسلاً صالحاً^(٥).

وقال: دلت هذه الآية على طلب الولد، وهي سنة المرسلين والصديقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨] وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: «أراد عثمان بن مظعون أن يتبتل فنهاه رسول الله ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا»^(٦).

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٣/ ٣٠٢).

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ الألوسي (١٩/ ٥٢).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٣٦٣).

(٤) أخرجه الطبري (٦/ ٣٦١) رقم (٦٩٤٤).

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٧٢-٧٣).

(٦) أخرجه مسلم (١٤٠٢) باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم. وجاء: أن ترض عروق أنثيا الفحل رضا يذهب شهوة النكاح وهو شبيه بالخصاء.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «النكاح من ستنى فمن لم يعمل بستى فليس منى وتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعلية بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

وقد ترجم البخارى على هذا «باب طلب الولد». وقال ﷺ لأبى طلحة حين مات ابنه: «أعرستم الليلة؟» قال: نعم. قال: «بارك الله لكما فى غابر ليلتكما» قال: فحملت. فى البخارى: قال سفيان: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن.^(٢)

وترجم أيضًا: «باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة» وساق حديث أنس بن مالك قال: قالت أم سليم: يا رسول الله، خادمك أنس ادع الله له. فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته»^(٣).

وقال ﷺ: «اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى عقبه فى الغابرين».^(٤)

وعن معقل بن يسار قال: قال ﷺ: «تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم»^(٥).

= أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الجواء.

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجه (١٨٤٦)، والسلسلة الصحيحة (٢٣٨٣) قال الألبانى. وقد جاء مفرقا فى أحاديث منها بلفظ... «ومن ستنى النكاح». وورد بلفظ... «وأترزوج النساء فمن رغب عن ستنى فليس منى». وقوله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم». وعن أنس مرفوعاً: «يا معشر الشباب من استطاع منكن الطول فلينكح أو فليتزوج وإلا فعليه بالصوم فإنه له وجاء». وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخارى (١٢٣٩) باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة، ومسلم (٢١٤٤) باب من فضائل أبى طلحة الأنصارى رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (٩٢٠) باب فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر.

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود، والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٢٠٥٠)، وصحيح النسائى (٣٢٢٧).

والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحت على طلب الولد وتندب إليه، لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»^(١) ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه ودينياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه، ألا ترى قول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ٥ ﴿يَرْثِي وَيَرْثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ٦ [مريم: ٥-٦].

وقال: ﴿هَذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ٢٨ [آل عمران: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ٧٤ [الفرقان: ٧٤].

فإن قال قائل: هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبه على المفسد الناشئة من ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٤ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [التغابن: ١٤، ١٥].

فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدم بيانه.

ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقال: ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ٦ والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة وقد دعا النبي ﷺ لأنس خادمه فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه»^(٢).

فدعا له بالبركة تحرزاً مما يؤدي إليه الإكثار من الهلكة. وهكذا فليتضرع العبد

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

(٢) تقدم أخرجه البخاري (٥٩٧٥) باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه، ومسلم (٢٤٨٠) باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه.

إلى مولاه في هداية ولده، ونجاته في أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام^(١).

استحباب تحنيك المولود والدعاء له بالبركة

وفي الصحيحين من حديث أبي بردة عن أبي موسى قال: ولد لى غلام فأتيت به إلى النبي ﷺ فسماه إبراهيم وحنكه بتمر. زاد البخارى ودعا له بالبركة ودفعه إلى وكان أكبر ولد أبي موسى^(٢).

وقالت عائشة: « كان النبي ﷺ يؤتى بالصبيان فيدعو لهم بالبركة ويحنكهم »^(٣)

قال أهل اللغة: التحنيك أن يمضغ التمر أو نحوه ثم يدلك به حنك الصغير.

هل يلحق به غيره ﷺ؟

أي: هل يفعل ذلك مع غيره، بحيث يؤخذ الصبي إلى المشايخ أو إلى أهل الصلاح؟

الصحيح أن هذا خاص بالنبي ﷺ لما يرجى من بركته، وأعني به أخذ الصبيان لا التحنيك.

أما التحنيك فهو سنة وبإمكان كل شخص أن يأخذ تمرًا ثم يمضغها ويحنك المولود وقد نبّهت على هذه لئلا يغترّ به من يقرأ كلام بعض العلماء في شرح الحديث، فإن بعض العلماء ألحق الصالحين بالنبي ﷺ في هذا الباب.

وقد أطلال الكلام حول هذه المسألة الشيخ: سليمان بن عبد الله في تيسير العزي الحميد فقال:

تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشراب سؤرهم

(١) تفسير القرطبي (١١ / ٨٠).

(٢) أخرجه البخارى (٥١٥٠) باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه وتحنيكه، ومسلم (٢١٤٥) باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه وجواز تسميته يوم ولادته واستحباب التسمية بعبد الله وإبراهيم وسائر أسماء الأنبياء عليهم السلام.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود وصححه الألبانى في صحيح أبي داود (٥١٠٦).

والتمسح بهم أو بشياهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في «شرح مسلم» في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئاً من ذلك مع النبي ﷺ، وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ، وهذا خطأ صريح لوجوه؛ منها: عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة.

ومنها عدم تحقيق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص كالصحابه الذين أثنى الله عليهم ورسوله أو أئمة التابعين أو من شهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح، وقد عدم أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نزن أنهم صالحون فخرجو لهم. ومنها أننا لو ظننا صلاح شخص فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره.

ومنها ان الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره، لا في حياته ولا بعد موته، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فهلاً فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة؟ وكذلك التابعون هلاً فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وأويس القرني والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم؟ فدل أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ.

ومنها أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم. انتهى كلامه رحمه الله (١).



(١) صحيح: اتحاف الكرام بشرح عمد الأحكام/ عبد الرحمن السحيم. وتيسر العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد/ سليمان بن عبد الله آل الشيخ (ص: ١٥٠-١٥١) ط. المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق - الأولى، ١٤٢٣-٥١٤٢٣-٢٠٠٢م.

١٢- البركة في إقامة الدين وتطبيق شرع رب العالمين

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِرِكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦].

قال الفخر الرازي رحمه الله: بين الله تعالى في هذه الآيات أنهم لو آمنوا لفاضوا بسعادات الدنيا ووجدوا طيباتها وخيراتها، وفي إقامة التوراة والإنجيل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يعملوا بما فيها من الوفاء بعهود الله فيها، ومن الإقرار باشتغالها في الدلائل الدالة على بعثة محمد ﷺ، وثانيها: إقامة التوراة إقامة أحكامها وحدودها كما يقال: أقام الصلاة إذا قام بحقوقها، ولا يقال لمن لم يوف بشرائطها: أنه أقامها. وثالثها: أقاموها نصب أعينهم لئلا يزلوا في شيء من حدودها، وهذه الوجوه كلها حسنة لكن الأول أحسن ^(١).

وقال أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ءَامَنُوا﴾ بالله وبرسوله محمد ﷺ، فصداقوه واتبعوه وما أنزل عليه ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما نهاهم الله عنه فاجتنبوه ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، يقول: محونا عنهم ذنوبهم فغطينا عليها، ولم نفضحهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ^(٦٥)، يقول: ولأدخلناهم بسايتين ينعمون فيها في الآخرة ^(٢).

وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، يقول: آمنوا بما أنزل الله، واتقوا ما حرم الله، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ^(٣). قال أبو جعفر: يعنى تعالى ذكره

(١) مفاتيح الغيب/ فخر الدين الرازي (١٢/ ٤٠).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٤٦١-٤٦٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره رقم (١٢٢٥٧).

بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، يقول: وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاءهم به محمد ﷺ.

وأما معنى قوله: ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، فإنه يعنى: لأنزل الله عليهم من السماء قَطْرَهَا، فأنبئت لهم به الأرض حبها ونباتها، فأخرج ثمارها. **وأما قوله:** ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، فإنه يعنى تعالى ذكره: لأكلوا من بركة ما تحت أقدامهم من الأرض، وذلك ما تخرجه الأرض من حبها ونباتها وثمارها، وسائر ما يؤكل مما تخرجه الأرض.

وعن ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، يعنى: لأرسل السماء عليهم مدراراً ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، تخرج الأرض بركتها^(١).

وعن قتادة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، يقول: إذا لأعطتهم السماء بركتها والأرض نباتها. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والسدي^(٢).

إن الله - سبحانه وتعالى - يخبر هنا أن أهل الكتاب لو أقاموا ما أنزل الله على أنبيائه من كتب، لسعدوا في الدنيا قبل الآخرة، ولفتح الله له بسبب ذلك بركات الأرض وزروعها وثمارها، ولأصبحوا يجدون الرزق والأكل وأطيب الطعام تخرجه لهم زروع الأرض يتدلى فوق رؤوسهم، ويلتقطونه من تحت أرجلهم أينما كانوا في أرضهم أو طرقهم أو منازلهم، وهذا غاية عظمة في النعيم وما ذلك إلا بسبب إقامة الدين، وهذه الحال المتعلقة بإقامة الدين ليست لأهل الكتاب خاصة، بل لكل أمة تقيم دين الله، إقامة جادة، فإن أهل القرى التى أهلكها الله من قبل أهل الكتاب لو أقاموا الدين وآمنوا واتقوا لفتح الله لهم بركات من السماء والأرض.

(١) المرجع السابق رقم (١٢٢٥٨).

(٢) انظر تفسير الطبرى (١٠ / ٤٦١ - ٤٦٣)، وتفسير ابن كثير (٣ / ١٤٨).

وكذلك هذه الأمة، أمة محمد ﷺ موعودة بذلك، وقد وقع في تاريخها مرارًا وتكرارًا حين أقامت دين الله، ففي عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم حين كان الدين مقامًا في الدولة، كانت تُثلّ عروش ممالك الدنيا ودولها شرقًا وغربًا، وتلفظ بركاتها وكنوزها وخيراتها في أيدي المسلمين، فكانوا سادة العالم وأرباب خيراته وغلاته، وهذا هو رسول الله ﷺ يقول في حديث عدى بن حاتم الذي رواه الإمام البخاري: «أما قطع السبيل فإنه لا يأتي عليك إلا قليل حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير وأما العيلة فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ثم ليقولن له: ألم أوتك ما لا فليقولن: بلى ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً فليقولن: بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمره فإن لم يجد فبكلمة طيبة»^(١). فيقول راوي الحديث عدى بن حاتم رضي الله عنه: فلقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بغيرها لا تخاف شيئاً حتى تبلغ هذا البيت، وكان عدى بن حاتم رضي الله عنه لم يدرك تحقق النبوءة الثانية وهي فيضان المال، ولكنه كان رضي الله عنه يحلف بالله لتكونن^(٢).

وبالفعل كانت بعد عدى بن حاتم رضي الله عنه في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز حيث فاض المال في عهده حتى لم يوجد من يأخذ الصدقة؛ عن عمر بن أسيد قال: «والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح حتى يرجع بماله كله، قد أغنى عمر الناس»^(٣).

إن ما بشر به النبي ﷺ من ظهور الأمن حتى رأى عدى بن حاتم راوي الحديث صدق بشارته، ورأى المرأة من العراق حاجة تؤم مكة تقطع الصحاري والقفار الموحشة وحيدة لا تخاف حتى تصل البيت، إنما كان ذلك الأمن المطمئن حين

(١) أخرجه البخاري (١٣٤٧) باب الصدقة قبل الرد.

(٢) راجع سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٤/٣).

(٣) المرجع السابق (١٣١/٥).

أقيمت شعائر الدين في دولة الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، وما ذلك إلا لظهور دولة الإسلام المقيمة لدين الله، فكان الأمن الذي لا يعرفه العالم اليوم ولا يشهد له مثيلاً، ولقد تعاقبت دول في تاريخ الإسلام وتفاوتت في إقامة الدين إلا أنا نرى بشهادة التاريخ أن الأمن كان حليف كل دولة أقامت دين الله بين أمصارها وأفرادها، وجعلته نظام حكمها، ونراه يقل ويضمحل إلى أن يتلاشى حين يقل ويتراخى موقف الحكام من إقامة الدين وربما ينقلبون على دينهم، فيقلب الله عليهم الأمن خوفاً، أما فيضان المال في عهد عمر فليس لكثرة الفتوح في عهده، فالفتوح في عهده كما هي في عهد من سبقه، وليس ذلك ناتج عن حسن تخطيط لاقتصاد الدولة، وإنما كان السبب الأول والأخير هو إقامة دين الله وشعائره في عهد عمر فقد أحيا - ﷺ - مواقيت الصلاة بعد أن أُميتت، ورد المظالم، وعزل العمال الظلمة، وأقام الدين ^(١) إقامة شهدت له بها الرعية كلها برها وفاجرها، وشهد له بها التاريخ إلى يومنا الحاضر. فكان ذلك الرغد من العيش بسبب ذلك. أما عند ترك إقامة الدين أو التخلف والتقهر عنها فإن الله - سبحانه وتعالى - يعاقب تلك الأمة المسلمة التي تنكرت لدينها بإلباسها لباس الجوع والخوف، وتنكيد عيشها، وثل عروش ملكها، وينزل - سبحانه وتعالى - بها من أليم عقابه وشدة بأسه ما لا ينزله بالدول الكافرة ابتداءً، وذلك أن هذه الدولة المسلمة عرفت ثم أنكرت وآمنت ثم كفرت، ووصلت إلى الأمن والعز والرغد بدين الله وطاعتها لله ثم جحدت بعد ذلك؛ فيذيقها الله بذلك ما لا يذيق الكافرين وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - «يعاقب على الكفران بالنعمة ما لا يعاقب على الكفر، وعلى الكنود ما لا يعاقب على الجحود» ^(٢).

وهذا القرآن يبين لنا حال الدولة التي تنكرت للدين وإقامته ومدى تأثير ذلك عليها قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا

(١) المرجع السابق (٥/ ١٢٥).

(٢) «ردة ولا أبا بكر لها» للندوى (٢٦، ٢٧).

يَصْنَعُونَ ﴿[النحل: ١١٢]﴾. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعِيرًا نَعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنْتَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿[الأنفال: ٥٣]﴾.

وهذا هو رسول الله ﷺ يبين لنا أن إقامة الدين سبب لحفظ ملك الأمة الإسلامية وعزها وأن الله - سبحانه وتعالى - يمكن به الحاكم المسلم ويؤيده، وأنه لا ينزع الملك منه إلا إذا ترك إقامة الدين، وأن من يتخلى عن إقامة الدين يبعث الله له من يسومه سوء العذاب.

عن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الأمر في قریش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين» ^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما بعد يا معشر قریش، فإنكم أهل هذا الأمر - يعنى الخلافة - ما لم تعصوا الله فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحكم كما يلحى هذا القضيب» ^(٢).

ومما ورد في السنة مما يشهد بأن إقامة الدين ليست سبباً في حصول التمكين في الحكم والسلطة والنصر فحسب بل يتعدى بحصولها التمكين حتى يصل إلى التمكين من معاش الأرض بكثرة بركتها وسلامتها من الآفات والكوارث والمكدرات والمنغصات؛ وفي حديث أبى أمامة رضى الله عنه في نزول عيسى ابن مريم وإقامة دين الله في الأرض أكبر شاهد على ذلك. قال رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى ابن مريم - عليه السلام - في أمتى حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، يدق الصليب، ويذبح الخنزير ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بغير وترفع الشحناء والتباغض، وتنزع حمة كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض

(١) أخرجه البخارى (٣٣٠٩) باب مناقب قریش.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤٥٨ / ١) وقال الهيثمى في «مجمع الزوائد» (٥ / ٣٤٨): رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى في «الأوسط» ورجال أحمد رجال الصحيح، ورجال أبى يعلى ثقات . وصححه الألبانى في الصحيحة (١٥٥٢)، وصحيح الجامع (١٣٥٩).

من السَّلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها وتكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نباتها بعهد آدم، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى لعيش بعد المسيح يؤذن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات حتى لو بذرت حبك على الصفا لنبت، وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره ويطأ على الحية فلا تضره، ولا تشاح، ولا تحاسد، ولا تباغض»^(٢) وسبب كل ذلك الرغد في العيش والبركة وزوال الأخطار حتى من الحيوانات، والتمكين من كل شيء في الأرض هو إقامة الدين في الأرض^(٣).

شرع الله قائم على الوسطية والتكامل:

إن شرع الله - عز وجل - قائم على الوسطية في كل الأمور: الوسط في الاعتقاد، الوسط في العبادة، الوسط في السلوك، فشرع الله - عز وجل - قائم على هذه القاعدة. وهو كذلك تبدو فيه ظاهرة التكامل معلماً بارزاً؛ فما من مجال من مجالات الحياة إلا وللشرع فيه حكم؛ فإنك ترى للشرع حكماً في معتقد الإنسان، وترى للشرع حكماً في تعامل الإنسان مع غيره، وترى للشرع حكماً في عبادة الإنسان، ترى له حكماً في سلوكه، وترى له حكماً في أخلاقه، وفي الاقتصاد والسياسة وحياة الناس الاجتماعية وعلاقاتهم... إنك لا تجد باباً من أبواب الحياة إلا وفيه حكم واضح للشرع، وهذا يعني أننا أمام شرع متكامل.

إذاً! حينما نريد أن نربي الناس على هذا الشرع ينبغي أن نربيهم تربية متكاملة ومتوازنة؛ ولهذا أنكر الله على بنى إسرائيل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في الفتن حديث رقم (٤٠٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٢) صحيح: الحديث أخرجه النقاش في «فوائد العراقيين» وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٩).

(٣) راجع عوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين - أحمد بن حمدان بن محمد الشهري.

إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿البقرة: ٨٥﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿النساء: ١٥٠، ١٥١﴾.

ومن إعجاز القرآن أن الله - سبحانه وتعالى - حذّر نبيه من صورة نراها في واقعنا؛ فحين أمر الله نبيه أن يحكم بشرع الله قال بعد ذلك: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَقْتُولُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿المائدة: ٤٩﴾ وكأن هذه الآية تنطق بواقع القرون المتأخرة، وأن هناك من يساوم على بعض شرع الله، فيأخذ بعض شرع الله ويرفض بعضه، فينادى بالاحتكام إلى شرع الله - عز وجل -.

في باب من أبواب الحياة، ويرفض بعد ذلك سائر الأبواب. إن هذا دليل على أن هذا الشرع جاء للحياة كلها، وهذا يعني أن أي منهج تربوي يريد تربية الناس على خلاف هذا المنهج فهو منهج غير متكامل وغير متوازن، ومعارض لهذه القاعدة الشرعية التي لا تنخرم وتراها في كل حكم شرعي في سائر أبواب الحياة^(١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: عند قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ ﴿الأعراف: ٥٤﴾ فيقول: «فخلقه وأمره صدرًا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره... ولهذا يقرن سبحانه بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته؛ إذ هما مصدر الخلق والأمر...»^(٢).

فكما أنه الخالق وحده، فهو الأمر سبحانه، والواجب طاعة أمره... ومما تقدم يتبين لك أيها المسلم أن تحكيم شرع الله والتحاكم إليه ممّا أوجبه الله ورسوله وأنه مقتضى العبودية لله والشهادة بالرسالة لنبيه محمد ﷺ.

ومن الأدلة الواضحة الدالة على أن توحيد الحاكمية شعبة من شعب توحيد الألوهية وأن الإشراك فيه إشراك في العبادة قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

(١) التكامل والتوازن في التربية - أحمد المنصب.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة لابن القيم (٤/١٥٤٦).

إِلَٰهًا وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ [التوبة: ٣١].

فعن عدى بن حاتم رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية.

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال: قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم! فقال ﷺ: «أليس يجرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرم الله فتحلّونه؟!» قال: قلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم»^(١).

وعن أبي البختری قال: «انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراماً، وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالاً، فأطاعوهم في ذلك. فجعل الله طاعتهم عبادتهم، ولو قالوا: اعبدونا لم يفعلوا».

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فقد بين النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم، وصاموا لهم، ودعواهم من دون الله، فهذه عبادة للرجال»^(٢).

وقال أيضاً: «هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحلّ الله يكونون على وجهين: **أحدهما:** أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحلّ الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء».

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم

(١) حسن: أخرجه الترمذی (٣٠٩٥) وأخرجه أبو جعفر الطبري من ثلاث طرق متتابعة، كلها من طريق عبد السلام بن حرب، عن غطيف بن أعين، من (١٦٦٣١) - (١٦٦٣٣)، وحسنه الألباني في غاية المرام حديث رقم (٦) وانظر السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٧/٦٧).

أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف»^(١).

وقال ابن حزم رحمه الله: «لما كان اليهود والنصارى يحرمون ما حرم أحبارهم ورهبانهم، ويحلون ما أحلوا، كانت هذه ربوبية صحيحة وعبادة صحيحة، قد دانوا بها، وسمى الله تعالى هذا العمل اتخاذ أرباب من دون الله وعبادة، وهذا هو الشرك بلا خلاف»^(٢).

فمن جعل التشريع حقاً لغير الله تعالى فقد وقع في شرك الربوبية، قال الأستاذ: محمد رشيد رضا رحمه الله متكلماً عن شرك الربوبية: «هو إسناد الخلق والتدبير إلى غير الله تعالى معه، أو أن تؤخذ أحكام الدين في عبادة الله تعالى والتحليل والتحريم عن غيره، أي غير كتابه ووحيه الذي بلغه عنه رسله»^(٣).

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن من لوازم إفراد الله تعالى بالربوبية إفراده تعالى بالحكم. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

قال الشيخ محمد الأمين رحمه الله: «لأن من الضروري أن من خلق الرزق وأنزله هو الذي له التصرف فيه بالتحليل والتحريم، سبحانه جل وعلا أن يكون له شريك في التحليل والتحريم»^(٤).

وقال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله: «إن الحكم بما أنزل الله من توحيد الربوبية لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه، ولهذا سَمَّى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أرباباً لمتبوعيهم فقال

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم (٣/ ٢٦٦).

(٣) تفسير المنار (٢/ ٥٥).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٥٢) ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فسمي الله المتبوعين أرباباً حيث جعلوا مشرّعين مع الله تعالى، وسمي المتبعين عباداً حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى...». ثم ذكر حديث عدى ابن حاتم المشهور^(١).

فمن أعطى أهلية التشريع ووضع القوانين والأحكام لأمثاله من البشر فقد وقع في شرك الربوبية، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عن هؤلاء المقننين والمشرعين: «وإن ظهر يقينا أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك، فليقف بهم عند حدّهم، ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية، سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته، أو حكمه أو ملكه»^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ [النساء: ٦٥]: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [٦٥] أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة»^(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله: «أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسمًا مؤكداً بالنفى قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع، وأحكام الشرع وأحكام المعاد، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم

(١) المجموع الثمين (١/ ٣٣).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٤٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٩).

حتى ينتفى عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضًا حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضا والتسليم، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض^(١).

وقال أيضًا في معرض بيان معنى الرضا بالنبي ﷺ رسولاً: «وأما الرضا بنبيه ﷺ رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه»^(٢).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم، في أصول دينهم وفروعه، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما حكم، ويسلموا تسليماً»^(٣).

فإن من رحمة الله عز وجل بهذه الأمة أن بعث فيها أفضل رسله خاتم النبيين محمد ﷺ، وأنزل عليه أفضل كتبه وأكملها وأقومها وأشملها لخيري الدنيا والآخرة. ولقد امتن الله عز وجل بهذه النعمة العظيمة على هذه الأمة في أكثر من آية؛ كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ووصف رسوله ﷺ بأنه رحمة للعالمين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ووصف كتابه الكريم بأنه يهدي للتي هي أقوم، وأن فيه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ

(١) التبيان في أقسام القرآن/ ابن القيم (٢٧٠) ط: دار الفكر.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٧٢-١٧٣) ط: دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٧-٣٨).

الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ [الإسراء: ٩].

وقال الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى - عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جل وعلا يهدي للتي هي أقوم؛ أي الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب... وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها؛ فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة»^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وصدق الله العظيم، ومن أصدق من الله حديثاً؛ فإن المتأمل في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله الكريم ﷺ يجد هذه المعاني العظيمة واضحة وضوح الشمس، حيث لا يخفى على من له أدنى بصيرة ما تضمنه كتاب الله عز وجل وسنة الرسول ﷺ من الهدى والرحمة والشمول لكل مصالح العباد، مع مراعاة لكل جوانب النفس البشرية ومخاطبتها بمنهج متوازن وميزان قسط وعدل لا يطغى فيه جانب على جانب، ولا يرجح فيه طرف على آخر. ولا غرابة في ذلك فهو صادر عن الله عز وجل، وما صدر عن الله تعالى فهو الكامل الشامل المتوازن؛ لأنه صدر عن الكامل في صفاته وأفعاله، الذي لا حدود لكماله، العالم بمصالح خلقه، والحكيم الذي يضع الشيء في موضعه الذي يجب أن يوضع فيه، الرحيم الذي يرحم عباده بما يأمرهم به من خير وينهاهم عنه من شر؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله^(٢).

(١) أضواء البيان: (١٧/٣)، باختصار.

(٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا - للشيخ عبدالعزيز بن ناصر الجليل.

ويتحدث سيد قطب - رحمه الله - عن منهج الله القائم على العلم المطلق والحكمة البالغة في الخلق والشرع فيقول: «إن شريعة الله تمثل منهجاً شاملاً متكاملًا للحياة البشرية؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية؛ في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها..

وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني، والحاجات الإنسانية، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان؛ وبطبيعة النوااميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية.. ومن ثم لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة، ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني، ولا أي تصادم مدمر بين هذا النشاط والنوااميس الكونية؛ إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق.. الأمر الذي لا يتوافر أبدًا لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلا ظاهراً من الأمر، وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة، ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني، ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعض، ومن الهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم. وهو منهج قائم على العدل المطلق.. أولاً: لأن الله يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق.. وثانياً: لأنه - سبحانه - رب الجميع؛ فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع، وأن يجيء منهجه وشرعه مبرراً من الهوى والميل والضعف - كما أنه مبرراً من الجهل والقصور والغلو والتفريط - الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان ذي الشهوات والميول، والضعف والهوى - فوق ما به من الجهل والقصور - سواء كان المشرع فرداً، أو طبقة، أو أمة، أو جيلاً من أجيال البشر.. فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها؛ فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد..

وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله؛ لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله، صانع الكون وصانع الإنسان؛ فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كوني، له

سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه؛ بشرط السير على هداه، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها.. ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه، وتأخذ الشريعة التي تنظم حياته طابعاً كونياً، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب، ولا مع بنى جنسه فحسب! ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض الذي يعيش فيه ولا يملك أن ينفذ منه، ولا بدّ له من التعامل معه وفق منهج سليم قويماً^(١).

وقال ابن القيم: «فانظر حكمة الله عزّ وجلّ في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرّعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التي لا يختلّ نظامها ولا ينخرم أبداً ولا يختلّ أصلاً، ومن الناس من يكون حظّه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق، وهؤلاء خواصّ العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه، وعرفوا حكمته فيما أحكمه، وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم، وهم في ذلك درجات لا يحصيها إلا الله»^(٢).



(١) في ظلال القرآن: (٢/ ٨٩٠).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (١/ ٢٣٥) ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

١٣- بركة العدل

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ^(١) وَالْإِحْسَانِ ^(٢) وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠].

قال صاحب الظلال: لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعاً، ثم لينشئ عالماً وقيم نظاماً. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس؛ إنما العقيدة وحدها هي الأصرة والرابطة والقومية والعصبية.

ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود.

جاء ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تبدل مجارة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف. إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه شهادة أن لا إله إلا الله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه الحق، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى، قاله سفيان بن عيينة. والرابع: أنه القضاء بالحق، ذكره الماوردي. قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعيم بنعمته. انظر زاد المسير/ ابن الجوزي (٤/ ٤٨٣) ط: المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٤.

(٢) وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان؛ ف قيل: العدل لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض. وقيل: العدل الفرض. والإحسان: النافلة. وقيل: العدل: استواء العلانية والسريرة، والإحسان: أن تكون السريرة أفضل من العلانية. وقيل: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل، والأولى: تفسير العدل بالمعنى اللغوي، وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط. فمعنى أمره سبحانه بالعدل: أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط، وهو الغلو المذموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط، وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين. وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب، كصدقة التطوع، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها. وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه، فقال في حديث ابن عمر الثابت في الصحيحين: «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا هو معنى الإحسان شرعاً. انظر فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٦٩).

واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع. وإلى جوار العدل.. ﴿وَالْإِحْسَنُ﴾.. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، وشفاء لغل الصدور. ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوى جرحاً أو يكسب فضلاً^(١).

قال ابن جرير: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولى الحمد أهله^(٢).

وقال ابن كثير: يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان^(٣).

وقال السعدي: «فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده. فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة، بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه، وحق عباده. ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال، ما عليه، تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة، ونواب القاضي. والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه. ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحبة^(٤)».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٩٠).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢٧٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٥).

(٤) تفسير السعدي: (١/ ٤٧٧).

قال ابن جرير: «هو خطاب من الله لولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية»^(١).

وقال ابن كثير: «أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس»^(٢).

وقال السعدي: «وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والفاجر والولي، والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله، من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل، ليحكم به»^(٣).

قال ابن حجر: «وأحسن ما فسر به العادل أنه الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط»^(٤).

وقال ابن حزم: هو أن تُعطى من نفسك الواجب وتأخذه.

وقال الجرجاني: العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط^(٥).

وقيل: بذل الحقوق الواجبة وتسوية المستحقين في حقوقهم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي،

إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...»^(٦).

قال ابن تيمية: «قوله: «وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» فإنها تجمع الدين

كله، فإن ما نهى الله عنه راجع إلى الظلم، وكل ما أمر به راجع إلى العدل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

(١) تفسير الطبري (٨/ ٤٩٢)

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤١)

(٣) تفسير السعدي: (١/ ١٨٣).

(٤) فتح الباري (٢/ ١٤٥).

(٥) التعريفات: للجرجاني (١/ ١٩١) دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٥ تحقيق:

إبراهيم الأبياري.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) باب تحريم الظلم.

وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥]. فأخبر أنه أرسل الرسل، وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط، وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق، فالكتاب يهدي، والسيف ينصر، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا... لكن المقصود أن كل خير فهو داخل في القسط والعدل، وكل شر فهو داخل في الظلم، ولهذا كان العدل أمرًا واجبًا في كل شيء وعلى كل أحد، والظلم محرّمًا في كل شيء ولكل أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلًا سواء كان مسلمًا أو كافرًا، أو كان ظالمًا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ ۖ أَى يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَاٰنُ ۖ﴾ [البقرة: ٨]، أى يحملنكم شَنَاٰنُ أى بغض قوم وهم الكفار على عدم العدل ﴿أَعَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾... فإن هذا خطاب لجميع العباد أن لا يظلم أحد أحدًا. وأمر العالم في الشريعة مبنيٌّ على هذا، وهو العدل في الدماء والأموال والأبضاع والأنساب والأعراض^(١).

وقال ابن رجب: «يعنى: أنه تعالى حرّم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرامٌ على كل عبدٍ أن يظلم غيره، مع أن الظلم في نفسه محرّم مطلقًا، وهو نوعان:

أحدهما: ظلم النفس، وأعظمه الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق، فعبده وتألّاه، فوضع الأشياء في غير موضعها، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون، كما قال عز وجل: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ثم يليه المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر.

والثاني: ظلم العبد لغيره، وهو المذكور في هذا الحديث، وقد قال النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». قال ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٨/١٥٧-١٦٧).

الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ويُروى (الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)^(١).

قال الغزالي: «إن حظ العبد من العدل أمرٌ ظاهرٌ لا يخفى، فأوّل شيء يجب عليه من العدل في صفات نفسه أن يجعل الشهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين، فإنه لو جعل العقل خادماً للشهوة والغضب فقد ظلمه، هذا في الجملة، أما تفصيلات ما يجب عليه في العدل في نفسه فمراعاة حدود الشرع كلها، وإن عدله في كل عضو أنه يستعمله على الوجه الذي أذن الشرع فيه. وأما عدله في أهله وذويه فأمر ظاهرٌ يدل عليه العقل الذي وافقه الشرع، وأما إن كان من أهل الولاية فإن العدل في الرعية من أوجب واجباته»^(٢).

قال ابن حزم: «أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبّه وعلى الحق وإيثاره».

قال ابن الجوزي: «الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار».

وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ولو استنار بنور الهدى لا اعتبر، فإذا سعى المتّقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم، حيث لا يغنى عنه ظلمة شيئاً»^(٣).

قال ابن القيم: وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ القسط هو العدل فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده وبالوحدانية في عدله والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال فإن التوحيد يتضمن تفرد سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب

(١) مجموع الفتاوى (٦٣/٢٨).

(٢) انظر المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى / الغزالي ص (١٠٠).

(٣) انظر: فتح الباري (١٠٠/٥).

وموافقة الحكمة^(١).

وقال رحمه الله: «الإنسان خُلِقَ في الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يُعلمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رشده، فمن أراد به خيرًا علَّمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علَّمه فخرج به عن الظلم ومن لم يرد به خيرًا أبقاه على أصل الخلقة. فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم»^(٢).

وقال أيضًا: «والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك به، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا، فإن الله تعالى يستوفيه كله. وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا، فإنه يمحي بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحو ذلك.

بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يُمحي إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحي إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها. ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل حرم الجنة على أهله، فلا تدخل الجنة نفسٌ مشركة وإنما يدخلها أهل التوحيد فإن التوحيد هو مفتاح بابها فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها»^(٣).

قال الشيخ محمد بن يحيى الزبيدي: «إن المظلوم إذا شكَا إلى الله تعالى اقتضى عدل الله عز وجل الإيقاع بظالمه، فيحب الله سبحانه وتعالى أن يجهر المظلوم

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٥) دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣ - تحقيق: محمد حامد الفقى.

(٢) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان/ ابن القيم (٢/ ١٣٦-١٣٧).

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب/ ابن القيم ص: (٢٤) - ط: دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥.

بالشكوى، ليكون الإيقاع بالظالم مبسوط العذر عند الخلق، وزاجراً لأمثاله عن أمثال فاعله، وإنما يُمهّل الظالم من جهة أن الخلق إذا ملك أحدكم مملوكين فجُنّي على أحدهم جناية فإن أرشها لسيّده، فالخلقُ ملكٌ لله عز وجل فلا اعتراض عليه»^(١).



(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية - الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي (١/٢٤٦).

من بركات العدل

١ - العدل هو الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، ولقد دلت الأدلة الشرعية وسنن الله في الأولين والآخرين أن العدل دعامة بقاء الأمم، ومستقر أساسات الدول، وباسط ظلال الأمن، ورافع أبنية العز والمجد، ولا يكون شيء من ذلك بدونه. القسط والعدل هو غاية الرسالات السماوية كلها: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

[الحديد: ٢٥].

قال ابن القيم: «إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي به قامت السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات العدل، وقامت أدلة العقل، وأسفر صحبه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلتها وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لا تتراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد، ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل للدلالة عليها، وهل يظن بالشرعة الكاملة خلاف ذلك؟»^(١).

٢ - أنه سبب للبركة في الأرزاق، وُجد في خزائن بعض بنى أمية صرة حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل.

٣ - أنه موصل إلى محبة الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَىٰ حَنَقٍ ۚ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [الحجرات: ٩]، فهو سبحانه عدل ويحب أهل العدل.

٤ - أنه سبب لنيل المنزلة الرفيعة عند الله تعالى، قال ﷺ: «إن المقسطين عند الله

على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»^{(١)(٢)}.

قال النووي رحمه الله: فمعناه: أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة أو نظر على يتيم أو صدقة أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك^(٣). وإن ولاية أمور المسلمين حق عليهم أن يقيموا العدل في الناس.

وقد جاء في مآثور الحكم والسياسات: لا دولة إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل. حكم كله عدل ورحمة في خفض الجناح ولين الجانب، وقوة الحق، عدلٌ ومساواة تكون فيه المسؤوليات والولايات والأعمال والمهمات تكليفاً قبل أن تكون تشريعاً، وتبعات لا شهوات، ومغارم لا مغنم، وجهاداً لا إخلاداً، وتضحيةً لا تحليةً، وميداناً لا ديواناً، وأعمالاً لا أقوالاً، وإيثاراً لا استئثاراً. إنصافٌ للمظلوم، ونصرة للمهضوم، وقهرٌ للغشوم، وردع للظلم، رفع المظالم عن كواهل المقروحة أكبادهم، ورد الاعتبار لمن أذلهم البغي اللئيم، لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولا تعويق واهم، وإن حداً يقام في الله خير من أن يمتطروا أربعين صباحاً.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمتطروا أربعين صباحاً^(٤).

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف

(١) قوله: (ولوا): أي كانت لهم عليه ولاية. المقسطون هم العادلون، وقد فسره في آخر الحديث.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧) باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢١٢/١٢).

(٤) حسن: أخرجه النسائي وابن ماجة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم: (٣١٣٠)، والصحيحة (٢٣١).

ذو عيال» (١).

والإمام العادل سابع سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلمهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل معلق بالمسجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شالها ما تنفق يمينه» (٢).

٥- أنه قرين التوحيد في كتاب الله تعالى، وذلك لأن التوحيد أعظم العدل، كما أن الشرك أعظم الظلم، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) ﴿آل عمران: ١٨﴾.

قال ابن القيم: «فإن الشرك أظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما، أما الأول ففي قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، وأما الثاني فكقوله: تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) ﴿لقمان: ١٣﴾» (٣).

٦- أنه سبب لقيام الدول والمجتمعات وسر استقرار حالها، لأن العدل في حقيقته تمكين صاحب الحق لياخذ حقه. في أجواء العدل يكون الناس في الحق سواء لا تمايز بينهم ولا تفاضل، بالعدل يشتد أزر الضعيف ويقوى رجاءه، وبالعدل يهون أمر القوى وينقطع طمعه. ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٩) ﴿البقرة: ٢٧٩﴾.

قال ابن تيمية: «أمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال:

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩) باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ومسلم (١٠٣١) باب فضل إخفاء الصدقة.

(٣) الفوائد/ ابن القيم ص: (٨١) ط. دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»^(١).

٧- إذا ساد العدل حُفظت الحقوق، ونصر المظلوم وولت الهموم، وأدبرت الغيوم.

أما حينما يتجافى الناس عن العدل ويقعون في حماة الظلم ينبت فيهم الحقد والقطيعة والفرقة وذهاب الريح. من تجافى عن العدل دخل دائرة الظلم، يأخذ ولا يعطى، ويطلب ولا يبذل، يأخذ الذى يستحق، ويمتنع عما يحق، تغلبه مسالك المنافقين: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٢) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿[النور: ٤٨، ٤٩].

إن الحيف وسلب الحقوق وإهدار الكرامات مبعث الشقاء ومثار الفتن. إن قومًا يفشو فيهم الظلم والتظالم، وينحسر عنهم الحق والعدل إما أن ينقرضوا بفساد، وإما أن يتسلط عليهم جبروت الأمم يسومونهم خسفًا، ويستبدون بهم عسفًا، فيذوقون من مرارة العبودية والاستذلال ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال. إن الظلم خراب العمران، وخراب العمران خراب الأمم والدول^(٣). قال وهب بن منبه: إذا هم الحاكم بالجور أو عمل به أدخل الله النقص على أهل مملكته حتى فى الأسواق والأرزاق والزرع والضرع وكل شىء وإذا هم بالخير أو العدل أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك.

وكتب عامل من عمال حمص إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت إلى إصلاح. فكتب إليه عمر: حصنها بالعدل ونق طرقها من الجور والسلام.

وعن ابن عباس: «أن ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته وهو مستخف من

(١) الاستقامة/ ابن تيمية (٢/ ٢٤٧) ط. جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة - الطبعة الأولى،

١٤٠٣ - تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

(٢) العدل أساس قيام الدول وسعادة الأمم/ صالح بن عبد الله بن حميد.

الناس حتى نزل على رجل له بقرة، فراحت عليه تلك البقرة فإذا حلابها مقدار حلاب ثلاثين بقرة، فحدث الملك نفسه أن يأخذها، فلما كان الغد غدا^(١) بالبقرة إلى مرعاها، ثم راحت فحلبت ينقص لبنها على النصف، وجاء مقدار حلاب خمس عشرة بقرة، فدعا الملك صاحب منزله، فقال: أخبرني ممن بقرتك هذه؟ أرعت اليوم في غير مرعاها بالأمس؟ أو شربت في غير مشربها بالأمس؟ فقال: لا ما رعت في غير مرعاها بالأمس، ولا شربت في غير مشربها بالأمس، قال: فقال: ما بال لبنها نقص على النصف؟ قال: رأى الملك هو أن يأخذها فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهب البركة، قال: وأنت من أين تعرف الملك؟ قال: هو ذاك كما قلت لك، قال: فعاهد الملك ربه في نفسه أن لا يأخذها ولا يملكها، ولا تكون له في ملك أبدا، قال: فغدت البقرة فرعت، ثم راحت ثم حلبت فإذا لبنها قد عاد على مقدار ثلاثين بقرة، قال: فقال الملك بينه وبين نفسه فاعتبر، فقال: إن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهب البركة، لا جرم، لأعدلن أو لأكونن على أفضل أو نحو من ذلك»^(٢).



(١) الغدو: السير والذهاب والتبكير أول النهار.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٦/٦٣) حديث رقم: (٧٤٧٥).

١٤- بركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى على لسان عيس ابن مريم: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]. قال مجاهد، وعمر بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير. وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً.

وعيسى ابن مريم عليه السلام وهبه رب العزة البركة فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ فانظر معي إلى آثار بركة الله في هذا النبي الكريم:

فقد جعل الله عز وجل من بركاته أن أنزل عليه مائدة من السماء يأكل منها قومه.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَمَا بَيْنَهُ مِنْكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [البقرة: ١١٤].

وجعل له القدرة على خلق الطير من الطين بإذن الله. ويشفي الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيى الموتى بإذن الله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [البقرة: ١١٠]، وقال: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْزِلُ الْغُلُقُوتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]،

وفي آخر الزمان يعود لينزل إلى الأرض مرة أخرى وقيم العدل فيها ويقضى على الظلم والفساد، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، وإنه لم يقتل أو يصلب كما ادعت النصارى، قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧] ولكن الله كرمه ورفعته إليه، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً فيما كذبوا وافتروا عليه. قال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨-١٥٩].

وعن وَهَيْب بن الورد مولى بنى مخزوم قال: لقي عالمًا هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله، ما الذى أعلن من عملى؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فإنه دين الله الذى بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أينما كان^(١).

والمبارك من الناس كما يقول ابن القيم - رحمه الله - هو الذى يُتَّقَع به حيث حلَّ، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١].

وقد بشر نبي الله المبارك عيسى عليه السلام بنبينا المبارك محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]^(٢).

(١) تفسير الطبرى: (١٨ / ١٩١)، تفسير ابن كثير: (٥ / ٢٢٩).

(٢) ومن أسمائه ﷺ أحمد، ففى صحيح مسلم: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الهاحى الذى يمحوا الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب». أخرجه مسلم (٢٣٥٤).

وفى صحيح البخارى: عن عطاء بن يسار قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف ببعض صفته فى القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾» ﴿٥٥﴾ وحرزا للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح بها أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا. أخرجه البخارى (٢٠١٨). باب كراهية السخب فى السوق.

واليهود والنصارى يعرفون محمدا ﷺ كما يعرفون أبناءهم فإن الله تعالى قال عنهم: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ (البقرة: ١٤٦)، ويقول جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَآؤُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٧﴾ (الشعراء: ١٩٧)، ولقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء السابقين لئن بعث النبى محمد ﷺ فى حياتهم ليؤمنن به ولينصرنه ومفهوم ذلك أن النبى ﷺ ذكر عند السابقين فى كتبهم بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحَكَمُوا ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ. وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ (آل عمران: ٨١).

ولقد دعى خليل الرحمن إبراهيم ربه وهو يرفع قواعد البيت ببعثة النبى ﷺ فاستجاب الله لدعائه، ولا

وإن الأمر الأعظم بالمعروف والنهي للمنكر هو سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، ومن عظيم صفته وسمته في هذا الأمر أن ذكرت صفته في الكتب السابقة منصوصاً عليها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما نعلم من قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِلَّا يَنْجِيلٍ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذه سمة النبي ﷺ، وصفته في الكتب السابقة وصفته في سيرته الحية الناطقة.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره في هذه الآية: «هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله.

= تزال التوراة رغم تحريفها تحمل تلك الإجابة، ففي سفر التكوين الإصحاح السابع عشر فقرة (٢٠): «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يولد، واجعله أمة عظيمة كثيرة». والأمة العظيمة هي الأمة الإسلامية التي وجدت من نسل إسماعيل عليه السلام، وقوله: اثني عشر رئيساً يولد هذا يوافق إخبار النبي ﷺ أنه سيلي أمر هذه الأمة اثنا عشر خليفة كلهم من قريش، وفي سفر التكوين الإصحاح (١٨) فقرة (١٨ - ١٩): قال الله لموسى: أقيم لهم - أي لبني إسرائيل نبياً من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوحى به فيكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلب.

ونبينا ﷺ من بني إسماعيل إخوة بني إسرائيل بعدهم إسحاق ثم هو من أوسط العرب نسباً، وكلامه في فمه يعنى أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب وهو مبعوث إلى الناس كافة. وحول هذا المعنى يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِلَّا يَنْجِيلٍ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] انظر - من دلائل النبوة. د/ أسامة سليمان.

معنى -المعروف والمنكر - لغة و شرعاً:

١ - بيان معنى -المعروف والمنكر - لغةً: المعروف في اللغة، يدور معناه غالباً على ما تعارف عليه الناس وعلموه ولم ينكروه، والمنكر في اللغة، يدور معناه غالباً على ما جهله الناس واستنكروه وجحدوه.

وقال في المعجم الوسيط: العُرفُ: المعروف، وهو خلاف النكر، وما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم ^(١).

ويقول ابن منظور في لسان العرب: «وقد تكرر ذكر المعروف في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع... والمنكر ضد المعروف وهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر» ^(٢).

وقال الألوسي في روح المعاني: والمتبادر من المعروف الطاعات ومن المنكر المعاصي التي أنكرها الشرع ^(٣).

٢ - بيان معنى المعروف والمنكر شرعاً:

والمعروف في الشرع: كل ما يعرفه الشرع ويأمر به ويمدحه ويشنئ على أهله، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وفي مقدمتها توحيد الله عز وجل والإيمان به. والمنكر في الشرع: كل ما ينكره الشرع وينهى عنه ويذمه ويذم أهله، ويدخل في ذلك جميع المعاصي والبدع، وفي مقدمتها الشرك بالله عز وجل وإنكار وحدانيته أو ربوبيته أو أسمائه أو صفاته. وعبارات المفسرين في تفسير المعروف والمنكر - لا تتجاوز ذلك ^(٤).

(١) انظر المعجم الوسيط (ج ٢ ص: ٥٩٥).

(٢) لسان العرب في مادتي «ع ر ف، ن ك ر» (٩/٢٣٦).

(٣) روح المعاني/ محمود الألوسي: (٤/٢٨).

(٤) انظر: القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي.

وذكر ابن حجر عن أبي جمرة^(١): يطلق اسم المعروف على ما عرف بأدلة الشرع من أعمال البر، سواء جرت به العادة أم لا^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الأمر والنهي من لوازم وجود بنى آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، ويؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، ويُنهى عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، وإلا فلا بد أن يأمر وينهى، ويؤمر ويُنهى، إما بما يصاد ذلك، وإما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله، وإذا اتخذ ذلك ديناً: كان مبتدعاً ضالاً باطلاً^(٣).

وقال ابن حجر الهيثمي: المراد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمر بواجب الشرع، والنهي عن محرماته^(٤).

ويصف الإمام الشوكاني - رحمه الله - أفراد الأمة الإسلامية بقوله: إنهم يأمرون بما هو معروف في هذه الشريعة، وينهون عما هو منكر، فالدليل على كون ذلك الشيء معروفاً أو منكراً هو الكتاب والسنة^(٥).

ومن هذا يتبين لنا أن كون الشيء معروفاً أو منكراً ليس من شأن الأمر والنهي، وإنما يعود ذلك إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، على فهم السلف الصالح لهذه الأمة من اعتقاد أو قول أو فعل^(٦).

(١) هو عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، من علماء الحديث، من كتبه جمع النهاية اختصر به صحيح البخاري توفي بمصر، سنة ٦٩٥ هـ، انظر الأعلام للزركلي (٤/ ٢٢١).

(٢) فتح الباري/ لابن حجر (١٠/ ٤٤٨).

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/ ابن تيمية (ص: ٤٢-٤٣).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر/ ابن حجر الهيثمي (ج ٢ ص: ٣٠١).

(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. الشوكاني (١/ ٢٠٦). دار الكتاب العربي ط: الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

(٦) قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضوء الكتاب والسنة/ د. حمود بن أحمد الرحيلي.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل عظيم من أصول الإسلام، ولا شك أن صلاح العباد في معاشهم ومعادهم متوقف على طاعة الله - عز وجل - وطاعة رسوله ﷺ، وتمام الطاعة متوقف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وقد قرن ربنا سبحانه وتعالى بين الإيمان وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال جل شأنه:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال الإمام الغزالي رحمه الله: وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين إذ لم يقل كونوا كلكم أمرين بالمعروف بل قال: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١).

حكم إنكار المنكر: يمكن أن يقسم حكم إنكار المنكر على حالتين:

١ - فرض كفاية: قال الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) [آل عمران: ١٠٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن»^(١).

وقال ابن العربي في تفسيره لهذه الآية: في هذه الآية والتي بعدها - يعني ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصرة الدين بإقامة الحجة على المخالفين»^(٢).

٢- فرض عين: قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٣). دل عموم هذا الحديث على وجوب إنكار المنكر على كل فرد مستطيع علم بالمنكر أو رآه.

قال القاضي ابن العربي: «وقد يكون فرض عين إذا عرف المرء من نفسه صلاحية النظر والاستقلال بالجدال، أو عرف ذلك منه»^(٤).

وقال ابن كثير: وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ..» ثم ساق الحديث^(٥) وقال النووي: ثم إنه قد يتعين - يعني الأمر

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٩١).

(٢) انظر أحكام القرآن (١/ ٢٩٢).

(٣) صحيح مسلم (٤٩)، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً. وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

(٤) أحكام القرآن (١/ ٢٩٢).

(٥) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٩١). (قال ابن كثير كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: «وهم الحافظ ابن كثير وهما شديداً، فحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا» هو حديث أبي موسى». قلت: والصحيح أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري. برقم: (٤٩) باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص. وقد أورده ابن كثير في موضع آخر في تفسيره (٣/ ١٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

بالمعروف والنهي عن المنكر - كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته، أو ولده، أو غلامه على منكر، أو تقصير في معروف^(١).

تفاوت مسؤولية الناس في إنكار المنكر: إن الله - عز وجل - أوجب علينا جميعاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كُلٌّ بحسب قدرته، ولكن مما ينبغي التنبيه عليه أن الناس يتفاوتون في هذا الواجب، فالمسلم العامي عليه القيام بهذا الواجب حسب قدرته وطاقته، فيأمر أهله، وأبناءه بما يعلم من أمور الدين التي يسمعها على المنابر، وفي دروس الوعظ. والعلماء عليهم من الواجب ما ليس على غيرهم، وذلك أنهم ورثة الأنبياء فإذا تساهلوا بهذه المهمة دخل النقص على الأمة، كما حدث لبنى إسرائيل. وأما واجب الحكام في هذه المهمة فعظيم؛ لأن بيدهم الشوكة، والسلطان، والتي يرتدع بها السواد الأعظم من الناس عن المنكر؛ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن.^(٢) ولأن الذين يتأثرون بالوعظ قلة. وتقصير الحاكم بهذه المهمة طامة كبرى، حيث بسبب ذلك يظهر المنكر، ويجترئ أهل الباطل والفسوق بباطلهم على أهل الحق والصلاح. فيجب على المسلم أن يغير المنكر بحسب طاقته وقدرته، إما بيده، أو بلسانه، أو بقلبه وذلك أضعف الإيمان.

عاقبة ترك إزالة المنكر مع القدرة عليها:

١ - إذا تُركَ النهي عن المنكر استشرى الشر في الأرض، وشاعت المعصية والفجور، وكثر أهل الفساد، وتسلطوا على الأخيار وقهروهم، وعجز هؤلاء عن ردهم بعد أن كانوا قادرين عليهم، فتطمس معالم الفضيلة، وتعم الرذيلة، وعندها يستحق الجميع غضب الله تعالى - وإذلاله وانتقامه، قال الله تعالى - حاكياً عن بنى إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ

(١) شرح مسلم للنووي (٢/٢٣).

(٢) انظر الدر المشثور/ السيوطي (٥/٣٢٩) ط: دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣ م.

يَمَّا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [البائدة: ٧٨-٧٩]. لا يتناهون: لا ينهى بعضهم بعضاً إذا رآه على المنكر. والأحاديث في هذا كثيرة، منها: ما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي، ثم يقدرُونَ على أن يغيروا ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»^(١).

٢- الهلاك في الدنيا: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبب من أسباب الهلاك ونزول العذاب، يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [١١٦، ١١٧]. ولم يقل صالحون.. فهم يدعون الناس إلى الهدى.. وينهون عن الفساد والردى.. فحصل من نفعهم سلامة القرى.. من الهلاك والردى.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نقمه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي وقال حديث حسن صحيح وابن ماجه والنسائي وابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠٠٥)، وصحيح الترغيب (٢٣١٧)، والمشكاة (٥١٤٢).

قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴿١١٦﴾. وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فجأهم العذاب، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ^(١).

وكم يضرب الله لنا من الأمثال التى تبين كيف تتغير النعم وتتحول إلى نقم بين عشية وضحاها عند مخالفة أمر الله تعالى والكفر بنعمته.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

[النحل: ١١٢]

وهذه القرية هى مكة المشرفة التى كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم، والنصرة العربية فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع. كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذى هو ضد الرغد، والخوف الذى هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [النحل: ٣٣] ^(٢).

كل ذلك حصل لها بسبب بعدها عن منهج الله تعالى وكثرة معاصيها. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ [طه: ١٢٤] ^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦١).

(٢) تفسير السعدى (١/ ٤٥١).

(٣) قال الشيخ السعدى فى تفسيره (١/ ٥١٥): أى: فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابا. وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب،

فحصل بسبب الإعراض عن ذكره الضنك وهو الضيق في العيش وذهاب البركة منه، وفي الوقت نفسه يخبر تعالى أن طاعته وتقواه واتباع أمره ينتج عنه فتح أبواب الرزق والبركة فيه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفُتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. فقد وعد الله سبحانه وتعالى بفتح البركات من السماء والأرض عند تقواه والإيمان به (١).

وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: أنه قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (٢).

إن إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لحفظ المجتمع وصلاحه وفلاحه، وترك ذلك سبب في هلاكه وفساده كما شبه ذلك النبي بالسفينة حيث يتهاون أهلها في ردع من يريد خرقها لأنهم سيغرقون جميعاً، وإن أخذوا على يده ومنعوه نجوا جميعاً، فأصحاب المنكرات اليوم يدقون بمعاولهم في مجتمع المسلمين، فالزاني وتارك الصلاة ومانع الزكاة والمستهزئ بالدين ودعاة السفور والفجور وشياطين القنوات وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل وأصحاب الرشاوى

= جزء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر. والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية. والثالثة قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِيِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ والرابعة قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الآية. والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك -والله أعلم- وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة. وبعض المفسرين، يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها.

(١) انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة. د/ عبد العزيز بن أحمد المسعود. (ج ٢/ ٢٦٥-٢٦٦) بتصرف. ط: دار الوطن.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح، ابن ماجه (٤٠٠٥)، صحيح الجامع (١٩٧٣).

وغيرهم كثير، كل هؤلاء ينخرون في سفينة المجتمع، فإن لم يمنعوا وينكر عليهم صار العذاب عاماً والعقوبة مطبقة.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»^(١). والقيام بهذه الشعيرة والإتيان بها سبب للسلامة من العقوبات يقول الله تعالى: ﴿وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١٣) ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا سَوَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١٤) ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦] ففي هذه الآيات نبأ عظيم لمن أنار الله بصيرته.. فقد أخبر الله عن سنته الماضية.. وهي أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.. فقسم الله أمة بنى إسرائيل - إلى ثلاثة أقسام:

قسم: عملوا المنكر، وهو الصيد في السبت، وقسم: خذلوا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقسم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فلما نزل العذاب أهلك القوم الأولين، ونجى الله القسم الثالث من المسخ إلى القردة والخنazير، وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

فالواجب علينا أن نعزز هذا الواجب، وأن نساند من قام به، ونؤيده معنوياً وحسياً.

وما أحسن ما قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما من أعظم عمُد الدين لأن بهما حصول مصالح الدنيا والآخرة فإن كانا

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦١) باب هل يقرع في القسمة والاستهم فيه.

قائمين قام بقيامهما سائر الأعمدة الدينية والدنيوية. أما إذا كان هذان الركنان العظيمان غير قائمين إلا قياماً صورياً لا حقيقياً فيا لك من بدع تظهر، ومن منكرات تستبين، ومن معروف يستخفى ومن جولان العصاة وأهل البدع تقوى وترتفع، ومن ظلمات بعضها فوق بعض تظهر في الناس، ومن هرج ومرج في العباد يبرز للعيان وتقرّ به عين الشيطان، عند ذلك يكون المؤمن كالشاة العائرة، والعاصي كالذئب المفترس، وهذا بلا شك ولا ريب يمحو رسوم هذا الدين، وحينئذ يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً ويعود الدين غربياً كما بدأ». اهـ.

وعن زينب بنت جحش أنه دخل النبي ﷺ عليها فرعاً يقول: «لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعه الإبهام والتى تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»^(١).

يقول ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنا فيوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقاب»^(٢).

والمنكرات إنما تفشو وتظهر حين تقصر الأمة عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصبح المعصية في المجتمع ظاهرة مألوفة، وحينها تعم العقوبة الجميع «والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»^(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها

(١) تقدم.

(٢) حسن: أخرجه أحمد ح (٢٥٦٠٠)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/١٩٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٤٠٠).

(٣) حسن: أخرجه أحمد والترمذي (٢٢٢١٢)، والترمذي (٢١٦٩)، وقال: هذا حديث حسن من حديث حذيفة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠)، المشكاة (٥١٤٠).

إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»^(١).

وقال ﷺ: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرّون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقابٍ»^(٢).

قال القرطبي: «وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغير عوقب الجميع»^(٣).

قال أبو الطيب الآبادي: قال القاري: إذا كان الذين لا يعملون المعاصي أكثر من الذين يعملونها فلم يمنعوهم عنها عمهم العذاب.

وقال العريزي: لأن من لم يعمل إذا كانوا أكثر ممن يعمل كانوا قادرين على تغيير المنكر غالباً، فتركهم له رخصاً به^(٤). وقال ﷺ: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر عليه العامة أن تغيره ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله تعالى في هلاك العامة والخاصة»^(٥). قال المباركفوري: «تصيبكم عامة بسبب مدهانتكم»^(٦).

قال ابن عباس: «أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكرين أظهرهم، فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم»^(٧). والعقاب الدنيوي الذي ينزل بالجميع لا

(١) **حسن:** أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والحاكم (٨٧٧٢)، وقال «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٦)، وانظر صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) **صحيح:** وتقدم

(٣) **تفسير القرطبي:** (٤٠١/١).

(٤) **عون المعبود:** (٣٢٩/١١).

(٥) **ضعيف:** أخرجه أحمد، والطبراني في الكبير (١٣٨/١٧) رقم: (٣٤٣)، من حديث عدى بن عميرة - قال ابن حجر: أخرجه أحمد بسند حسن وهو عند أبي داود من حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدى وله شواهد من حديث حذيفة وجريز وغيرهما عند أحمد وغيره. فتح الباري (٤/١٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم: (١٦٧٥)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لإبهام الراوى عن الصحابي.

(٦) **تحفة الأحوذى:** (٣٢٩/٦).

(٧) **تفسير البغوى:** (٣/٣٤٦) تفسير الطبري: (١٣/٤٧٤) رقم: (١٥٩٠٩) دون قوله: «يصيب الظالم وغير الظالم».

يعنى الاشتراك في العذاب في الآخرة، بل كل يحاسب عن عمله، فعن أم سلمة مرفوعاً: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله عز وجل بعذاب من عنده» فقلت: يا رسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(١).

قال القرطبي^(٢): «فإن قيل فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنين ليس بظالم قيل يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»^(٣).

٣- عدم استجابة الدعاء: فعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(٤).

العدالة ليست شرطاً في الأمر الناهي: يحجم كثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة أنه مقصر في نفسه، ويظن ويعتقد أنه لا يحل له أن يأمر بما لا يأتيه، أو ينهى عما هو واقع فيه، بل ينكر أشد الإنكار على الذين يأمرون وينهون مع تقصيرهم، مستدلاً ببعض الآيات، والأحاديث، والآثار، نحو: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿تَقْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وقوله ﷺ فيما أخرجه مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت

(١) **ضعيف:** أخرجه أحمد، وضعفه الشيخ شعيب الأرنؤوط: قال إسناده ضعيف لضعف ليث: وهو ابن أبي سليم. (٣٠٤ / ٦) حديث (٢٦٦٣٨).

(٢) تفسير القرطبي: (١٠ / ١٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩١) باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً.

(٤) **صحيح:** أخرجه أحمد (٣٨٨ / ٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤٧).

رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء يا جبريل قال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»^(٢).

فالتوبيخ والزجر هذا الذى ورد فى القرآن، والسنة، والآثار، فى ترك فعل البر وأعمال الخير، لا بسبب الأمر بالبر والمعروف والنهى عن المنكر والقيح، فهذان أمران مختلفان، وما لا يفعل كله لا يترك جله، فالأمر الناهى غير الملتزم بما يأمر ولا المنتهى عما ينهى، يؤجر ويثاب على أمره ونهيه، ويعاقب ويؤنب على تقصيره؛ هذا مذهب أهل السنة قاطبة، وهو الذى يؤيده الدليل ويطلبه الواقع. لا شك أن الأكمل، والأفضل، والأجدى، والأنتفع فى الأمر والنهى أن يأتمر الإنسان بما يأمر به، وينتهى عما ينهى وينكر.

قال القرطبي رحمه الله فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ...﴾ [البقرة: ٤٤]

اعلم وفقك الله أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر، لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم الله تعالى فى كتابه قومًا كانوا يأمرُونَ بأعمال البر ولا يعملون بها، وبخهم به توبيخًا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة^(٣).

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حكمه الوجوب على قدر الطاقة، وعلى هذا أجمعت الأمة، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٩) باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله.

(٢) صحيح: أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٣٢٧)، وانظر الصحيحة حديث رقم: (٢٩١).

(٣) تفسير القرطبي (٣٦٦/١).

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكماً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١).
إن ترك الأمر والنهي سبب لنزول البلاء، ولحجب الدعاء، ولاستحقاق اللعن والطرده من رحمة الله، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨]، ثم بين علة ذلك: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

قال القرطبي عن قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم، يذم من فعل فعلهم^(٢).

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله بعد أن ذكر عدداً من الآثار التي تحذر المتهاونين عن فعل البر: ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد، لأنه لا عصمة لأحد بعده. لئن لم يعظ العاصين من هو مذنّب فمن يعظ العاصين بعد محمد؟!

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله: عظ أصحابك، فقال إنني أخاف أن أقول ما لا أفعل، قال: يرحمك الله! وأينا يفعل ما يقول! ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

وقال مالك عن ربيعة قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر؛ قال مالك: وصدق، من ذا الذي ليس فيه شيء؟!^(٣). من ذا الذي ما أساء قط ومن له

(١) تقدم.

(٢) المرجع السابق (٢٥٣/٦).

(٣) المرجع السابق (١/٣٦٧-٣٦٨).

الحسنى فقط؟

لا يشترط في الناصح أن يكون أكثر علمًا، ولا أكبر قدرًا، ولا أتم عدالة من المنصوح، والله در الإمام إسحاق بن أحمد العلثى حيث قال في مقدمة نصيحة كتبها لأخيه الإمام ابن الجوزى رحمه الله: ولو كان لا ينكر من قل علمه على من كثر علمه إذًا لتعطل الأمر بالمعروف، وصرنا كبنى إسرائيل حيث قال الله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٩)، بل ينكر المفضول على الفاضل، وينكر الفاجر على الولي، على تقدير معرفة الولي. بل المسلم مطالب أن يرجع إلى الحق ويقبله وإن جاءه من كافر أو منافق، كما قال معاذ ابن جبل رضي الله عنه، وعندما قيل له: كيف نعرف أن الكافر أو المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: إن على الحق نورًا.

والله در الإمام أحمد حيث لم يستنكف من قبول نصيحة جاءته من أحد أعراب البادية وهو في فتنة خلق القرآن، بل عدها من أقوى النصائح التي سمعها منذ أن ابتلى بتلك الفتنة. قال رحمه الله واصفًا محنته: صرنا إلى «الرحبة»، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟ فقليل له: هذا؛ فقال للجمال: على رسلك؛ ثم قال: يا هذا، ما عليك أن تقتل هاهنا، وتدخل الجنة؟! ثم قال: أستودعك الله؛ ومضى، فسألت عنه، فقليل لى: هذا رجل من العرب من ربيعة، يعمل الصوف في البادية، يقال له جابر بن عامر، يذكر بخير.

قال الإمام أحمد رحمه الله: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابى كلمنى بها في «رحبة طوق»، قال: يا أحمد! إن يقتلك الحق مُتَّ شهيدًا، وإن عشتَ عشتَ حميدًا، فقوى قلبى. وقال رحمه الله - في رسالة الصلاة ما نصه: فرحم الله رجلاً رأى أخاه يسبق الإمام، فيركع أو يسجد معه، أو يصلى وحده فيسيء في صلاته، فينصحه ويأمره وينهاه، ولم يسكت عنه، فإن نصيحته واجبة عليه لازمة له، وسكوته عنه إثم ووزر، وإن الشيطان يريد أن تسكتوا عن الكلام فيما أمركم الله به، وأن تدعوا التعاون على البر والتقوى الذى أوصاكم الله به، والنصيحة التى عليكم

بعضكم لبعض، لتكونوا ماثومين مأزورين، وأن يضمحل الدين ويذهب، وأن لا تحيوا سنة ولا تميثوا بدعة، فأطيعوا الله بما أمركم به من التناصح والتعاون على البر والتقوى، ولا تطيعوا الشيطان؛ فإن الشيطان لكم عدو مبين، بذلك أخبركم الله عز وجل فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَبْخَىٰ أَدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أهمية اتخاذ الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يجب أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رفيقاً كما قال ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه»^(١). وقال أيضاً ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف». ولهذا قيل: «ليكن أمرك بالمعروف معروفاً ونهيك عن المنكر غير منكر»^(٢).

إن الخروج من حالة الشقاء والتعب للأفراد والدول إنما هو بالعودة إلى شرع الله قولاً وفعلًا وبالمزاوجة بين عبادتنا وحياتنا دونما فصل أو تفريق، وبهذا تكسب الأمة الخيرية التي وصفها الله بها فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فليقم كل واحد منا بواجبه وليزيل الحجة عن نفسه أمام الله تعالى وقد أخبر بذلك جل جلاله فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].. فالقيام بالواجب معذرة إلى الله تعالى ولا نغتر بكثرة الفاجرين لأن الله تعالى جعل كثرتهم سنة في الحياة فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرُهُ الْخَبِيثِ﴾ [البائدة: ١٠٠]، فليست الكثرة دائماً هي على الحق بل إن الله تعالى قال في كتابه ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال جل جلاله: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].. فيا أيها

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) باب فضل الرفق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضی الله عنها، وفي رواية عنها ﷺ في الصحيحين: قالت قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

المسلمون... العودة الحميدة إلى شرع الله هي خلاصنا وعندها فقط ندعو الله بقلوب مؤمنة فيستجاب لنا لأن الرحمات إنما تنزل بارتفاع الصالحات من الأرض وإلا فيكون مصيرنا كما أخبر النبي ﷺ فقال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، أو شك أن يعمهم الله بعقابٍ منه»^(١). وانتبهوا إلى هذه الصورة التي يذكرها لنا ابن القيم رحمه الله؛ لأنها صورة خطيرة من وجدت فيه دلت على ضعف إيمانه وزعزعة يقينه وعلى ذهاب الدلالات الواضحة على حياة قلبه، قال رحمه الله: «وأي دين وأي خير يرجى فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع، ودينه يترك وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان» ثم قال: «وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت مآكلهم وورثاساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين - ثم ذكر الأمر الخطير الذي لا بد لنا من الانتباه له.

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهي موت القلب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ولرسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل»^(٢).

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك؛ ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾ إلى قوله: ﴿فَسَقُوتُوا﴾^(٣) [الرائدة: ٧٨-٨١]؛ ثم قال: «كلا، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً»^(٣).

(١) صحيح: وتقدم.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين/ ابن القيم (٢/ ١٧٧).

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٧٧٤)، وضعفه الألباني في سنن أبي داود (٤٣٣٦)، وضعيف ابن ماجه (٤٠٠٦) وضعيف الجامع (١٨٢٢).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة على صدق الإيمان واتباع النبي عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(١).



(١) أخرجه مسلم (٥٠). يدلُّ الحديث على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصال الإيمان، لذلك أخرج مسلم هذا الحديث في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

١٥- بركة الزكاة والصدقة

والزكاة مأخوذة من الزكاء، وهو: النماء، زكا الشيء: إذا نما، وزاد، ورجل زكى، أى: زائد الخير، وسمى إخراج جزء من المال زكاة، أى: زيادة مع أنه نقص منه؛ لأنها تكثر بركته بذلك، أو تكثر أجر صاحبه. وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال زكا فلان: أى: طهر^(١).

قال الراغب الأصفهاني: أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ويعتبر ذلك بالأموال الدنيوية والأخروية، يقال زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة. ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس - أى: تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعاً فإن الخيرين موجودان فيها. وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن التزكى هو التطهر والتبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإمطة والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين إزالة الشر وزيادة الخير وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان^(٣).

أهمية الزكاة: الزكاة ركن من أركان الإسلام الأساسية وهى فريضة على كل مسلم تتوفر فيه شروطها فيجب عليه إخراجها لمستحقيها.

وقرن الله تعالى الزكاة بالصلاة في القرآن بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٢١).

(٢) انظر غريب القرآن للأصفهاني (١/ ٢١٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٨).

إن المسلم الغنى ينظر إلى ثروته وأمواله كأمانة استأمنه الله عليها ينبغي عليه أن يؤدي حقها ويستعملها فيما يرضى الله تعالى.

ويحث الله تعالى المسلمين على الإنفاق من أموالهم ليسدوا حاجات الفقراء والمحتاجين قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فُضِّلَ عَلَيْهِ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فُضِّلَ عَلَيْهِ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].
وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْأَنكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٣٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ٧].

والزكاة في الإسلام هي أول نظام عرفته البشرية لتحقيق الرعاية للمحتاجين والعدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع حيث يعاد توزيع جزء من ثروات الأغنياء على الطبقات الفقيرة والمحتاجين.

والزكاة طهرة لأموال المزكى وطهرة لنفسه من الأنانية والطمع والحرص وعدم المبالاة بمعاناة الغير. وتؤدي الزكاة إلى زيادة تماسك المجتمع وتكافل أفرادها والقضاء على الفقر وما يرتبط به من مشاكل اجتماعية واقتصادية وأخلاقية إذا أحسن استغلال أموال الزكاة وصرفها لمستحقيها.

ومن أكد بركات الزكاة ما تخلقه في المجتمع من سكينة وسلام اجتماعي حيث تنتزع الحقد من قلوب المعوزين وتكسب الرحمة والمواساة في نفوس الأغنياء الموسرين، فينعم المجتمع كله بالتراحم والتكافل والاستقرار، وحسبنا هذه الصورة المشرقة للأشعرين يرسمها المصطفى ﷺ في قوله: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي

الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» (٢) (١).

ومن بركات الزكاة: ما أخبر الله تعالى به أن رحمته كتبت للذين يؤتون الزكاة فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) ﴿[الأعراف: ١٥٦].

وجعل إسلام الكافر لا تتحقق له الأخوة الدينية إلا بعد إقامة الصلاة وإيتاءه للزكاة فقال تعالى:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وأخبر أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يوصون بها، فهذا عيسى عليه السلام يقول ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١) ﴿[مريم: ٣١]، وأثنى على نبيه إسماعيل بأنه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]. وجعل الزكاة من أسباب فلاح المؤمن فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) ﴿- إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤) ﴿[المؤمنون: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) ﴿[الأعلى: ١٤].
وأثنى على طائفة من عباده بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧) ﴿[النور: ٣٧].
وأمر نساء نبيه بذلك ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ [الأحزاب: ٣٣].
وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعن لحاقا بي أطولكن يدا»، قالت: فكن يتناولن أيتهن أطول يدا، فكانت أطولنا يدا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق (٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٤) باب الشَّرِكَةِ فِي الطَّعَامِ، ومسلم (٢٥٠٠) باب مِنْ فَضَائِلِ الْأَشْعَرِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من حديث أبي موسى.

(٢) ما لا يسهل التاجر جهله (ص: ٩) إعداد أ. د/ عبد الله المصلح، وأ. د/ صلاح الصاوي.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٤) باب أى الصدقة أفضل، ومسلم (٢٤٥٢) باب من فضائل زينب

والزكاة دليل على صحة إيمان المزكى وعلامة على تصديقه بأحكام الله، قال ﷺ: «والصدقة برهان»^(١) وفي رواية: «والزكاة برهان». أى: دليل على صحة إيمان العبد.

والزكاة تزكى صاحبها من دنس الأخلاق كالبخل والشح.

أنها سبب للحصول على طعم الإيمان، قال ﷺ: «ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه وافدة عليه كل عام»^(٢).

وهى سبب لرفعة الدرجات ومحو السيئات: قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له بسبعمئة ضعف»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبه كما يربى أحدكم فلوله حتى تكون مثل الجبل»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع»^(٥).

قال ابن حجر: قوله: (وتعفو أثره): المعنى أن الصدقة تستر خطاياهم كما يغطي

= أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها. واللفظ له.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)، وفي رواية للنسائي: «والزكاة برهان» (٢٣٩٤).

(٢) رواه أبو داود (١٣٤٩).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذى والنسائي وصححه الألبانى فى المشكاة: (٣٨٢٦).

(٤) أخرجه البخارى (١٣٤٤) باب الصدقة من كسب طيب، ومسلم (١٠١٤) باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(٥) أخرجه البخارى (١٣٧٥) باب مثل المتصدق والبخل، ومسلم (١٠٢١) باب مثل المنفق والبخل.

الثوب الذى يجز على الأرض أثر صاحبه إذا مشى بمرور الذيل عليه.

قال الخطابي وغيره: وهذا مثل ضربه النبى ﷺ للبخیل والمتصدق، فشبههما برجلین أراد کل واحد منهما أن یلبس درعاً یستر به من سلاح عدوه، فصبها على رأسه لیلبسها، والدروع أول ما تقع على الصدر والثدین إلى أن یدخل الإنسان یدیه فی کمیها، فجعل المنفق کمن لبس درعاً سابغة فاسترسلت علیه حتى سترت جمیع بدنه، وهو معنی قوله: «حتى تعفو أثره» أى: تستر جمیع بدنه. وجعل البخیل کمثل رجل غلت یداه إلى عنقه، كلما أراد لبسها اجتمعت فی عنقه فلزمت ترقوته، وهو معنی قوله: «قلصت» أى: تضامنت واجتمعت، والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه فتوسعت فی الإنفاق، والبخیل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه فضاق صدره وانقبضت یداه ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال المهلب: المراد أن الله یستر المنفق فی الدنيا والآخرة، بخلاف البخیل فإنه ینفضحه. ومعنی تعفو أثره تمحو خطایاه ^(١).

وعن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبى ﷺ فی سفر فذكر الحديث إلى أن قال فیہ ثم قال یعنى النبى ﷺ: «ألا أدلك على أبواب الخیر؟» قلت: بلى یا رسول الله، قال: «الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطیئة كما یطفئ الماء النار» ^(٢).

وهی سبب عظیم فی قضاء الحوائج وتفریح الكربات قال ﷺ: «ومن كان فی حاجة أخیه كان الله فی حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله فی عون العبد ما دام العبد فی عون أخیه» ^(٣).

أنها من أسباب دخول الجنة، فقد جاء رجل إلى الرسول ﷺ، وقال: دلنى على عمل أعمله یدینى من الجنة ویباعدنى من النار، فقال الرسول ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شیئاً وتقیم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصل ذا رحمك»، فلما أدبر الرجل، قال

(١) فتح الباری / ابن حجر (٣/ ٣٠٧).

(٢) صحیح: أخرجه الترمذی وقال حدیث حسن صحیح. وصححه الألبانی فی صحیح الترغیب (٨٦٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

الرسول ﷺ: «إن تمسك بما أمر دخل الجنة»^(١). ومما يدل على ذلك أيضًا أن الرسول ﷺ أخبر أن الجنة «أعدها الله لمن آلان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام»^(٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله! هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان». قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله! ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(٣). أنها تمنع الجرائم والسرقات، لأن الفقراء إذا لم يجدوا ما يأتهم ويسد حاجتهم، فسوف يتجهون إلى أى طريق لكى يسدوا حاجتهم. أنها تمنع من حر النار يوم القيامة كما في الحديث: «كل امرء في ظل صدقته يوم القيامة»^(٤).

أنها تزكى المال وتنميه، وتكون سببًا في البركة في المال كما في الحديث: «ما نقصت صدقة من مال»^(٥).

أنها سبب لنزول الخيرات: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك وقال: يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وقال رأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغيض ما في يده وكان عرشه على السماء

- (١) أخرجه مسلم (١٣) باب بيان الإيمان الذى يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة.
- (٢) صحيح: أخرجه البيهقى في شعب الإيمان، وأخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه الألبانى في المشكاة (١٢٣٢)، وصحيح الترغيب (٣٧١٨) من حديث أبى مالك الأشعرى.
- (٣) أخرجه البخارى (١٧٩٨) باب الريان للصائمين، ومسلم (١٠٢٧) باب من جمع الصدقة وأعمال البر.
- (٤) صحيح: أخرجه أحمد والحاكم من حديث عقبه بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٥١٠)، وصحيح الترغيب (٨٧٢).
- (٥) تقدم.

وبيده الميزان يخفض ويرفع»^(١).

أنها سبب دعاء الملائكة: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٢).

أنها سبب في اتقاء النار: عن عدى بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة»^(٣).

قال ابن بطال: قوله: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» حض على الصدقة بالقليل، وقد تصدقت عائشة بتمرة، وتصدقت بحبة عنب، وقالت: كم فيها من مثاقيل الذر. ومثله قوله ﷺ - لأبي تيممة الهجيمي - : «لا تحقرن شيئاً من المعروف ولو أن تضع من دلوك في إناء المستقى»^{(٤)(٥)}.

وهي أيضاً تسد حاجة الفقراء والمساكين وتحفظهم من ذل السؤال وهذا من الإحسان ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥) [البقرة: ١٩٥].

ومن فوائد الزكاة: نشر المودة والألفة والمحبة بين المجتمع، فعندما يشعر الفقير والمسكين بأن الغنى يعطيه شيء من المال ويواسيه في فقره وحاجته فعند ذلك

(١) أخرجه البخارى (٤٤٠٧) باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، ومسلم (٩٩٣) باب باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف.

(٢) أخرجه البخارى (١٣٧٤) باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾، ومسلم (١٠١٠) باب في المنفق والممسك (خلفاً) عوضاً عما أنفق. (ممسكاً) على الإنفاق. (تلفاً) أتلف ما لديه.

(٣) أخرجه البخارى (٧٠٧٤) باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم (١٠١٦) باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٢٠٦٥٢) (٦٣/٥) و«النسائي»، في «الكبرى» (٩٦٩٦)، وصححه الألبانى في الصحيحة (٣٤٢٢).

(٥) شرح صحيح البخارى/ ابن بطال (٤١٦/٣).

يطمئن قلب ذلك المسكين ويشعر بسعادة لا يعلمها إلا الله، والغنى عندما يعطى المسكين يشعر بحلاوة الصدقة ولذة الإحسان إلى المساكين.

إن الكرم والجود من أسباب انشراح الصدر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ءَاخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ رِئُومًا ۚ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ﴾ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِئِيلٍ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]

قال ابن القيم رحمه الله: فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له والقيام بحقوقه وحقوق عباده^(١).

وقال الإمام الطبري: وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۖ﴾ يقول تعالى ذكره: وفي أموال هؤلاء المحسنين الذين وصف صفتهم حق لسائلهم المحتاج إلى ما في أيديهم والمحروم^(٢).

لطيفة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل يا ابن عباس: اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار!! فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآنًا ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ﴾ ﴿١٠﴾

[المنافقون: ١٠] ^(٣)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة قال: «اقسميها». فكانت

(١) التبيان في أقسام القرآن/ ابن القيم (ص: ١٨٠) ط. دار الفكر.

(٢) تفسير الطبري (٤١٣/٢٢). وقال قتادة، والزهرى: ﴿الْمَحْرُومُ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيصدق عليه». واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها.

(٣) تفسير صفوة التفاسير/ محمد على الصابونى (٣/ ٣٨٩).

عائشة إذا رجعت الخادم تقول: ما قالوا لك؟ تقول: ما يقولون، يقول: (بارك الله فيكم) فتقول عائشة: «وفيهم بارك الله نرد عليهم مثل ما قالوا ويبقى أجرنا لنا»^(١).



(١) حسن: أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (١/ ٢٧٠) رقم: (٣٠٣)، وحسن إسناده العلامة الألباني في الكلم الطيب حديث: (٢٣٩) وقال (إسناده جيد).

١٦- بركة الإنفاق وكرهه الإحصاء

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَا تُوعِي فُيُوعِيَ اللَّهَ عَلَيْكَ» ^(١) اِرْضَخِي مَا اسْتَطَعْتَ» ^(٢) ^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ «لَا تُوَكِّي فُيُوكِّي عَلَيْكَ» ^(٤)، وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تُحْصِي فُيُحْصِيَ اللَّهَ عَلَيْكَ» ^(٥).

قال ابن حجر في الفتح: وَالْمَعْنَى النَّهْيُ عَنْ مَنَعِ الصَّدَقَةِ خَشْيَةَ النَّفَادِ، فَإِنْ ذَلِكَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابَ لِقَطْعِ مَادَّةِ الْبَرَكَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ يُثِيبُ عَلَى الْعَطَاءِ بَغِيرَ حِسَابٍ، وَمَنْ لَا يُحَاسِبُ عِنْدَ الْجَزَاءِ لَا يُحَسِبُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَطَاءِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ فَحَقُّهُ أَنْ يُعْطَى وَلَا يَحْسَبَ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْإِحْصَاءِ عَدُّ الشَّيْءِ لِأَنَّهُ يُدْخَرُ وَلَا يُنْفَقُ مِنْهُ، وَأَحْصَاهُ اللَّهُ قَطَعَ الْبَرَكَةَ عَنْهُ أَوْ حَبَسَ مَادَّةَ الرِّزْقِ أَوْ الْمُحَاسَبَةَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. ^(٦)

استحباب إخراج الزكاة في رمضان: لاشك أن كل إنسان له شهر زكاة خاص به، لزكاة الأموال التي يشترط فيها حولان الحول، أو هكذا ينبغي أن يكون، لكن استحباب كثير من أهل العلم للمسلم أن يجعل شهر زكاته رمضان، ومنهم من استحباب المحرم لأنه أول السنة الهجرية، لأن الزكاة والصدقات يضاعف أجرها بفضل الزمان

^(١) يُقَالُ أَوْعَيْتَ الْمَتَاعَ فِي الْوِعَاءِ أَوْعِيَهُ إِذَا جَعَلْتَهُ فِيهِ، وَوَعَيْتَ الشَّيْءَ حِفْظْتَهُ، وَإِسْنَادُ الْوَعْيِ إِلَى اللَّهِ مَجَازٌ عَنِ الْإِمْسَاكِ. وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ يَجَازِي الْعَامِلَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ، وَالْمَعْنَى النَّهْيُ عَنْ مَنَعِ الصَّدَقَةِ خَشْيَةَ النَّفَادِ فَإِنْ ذَلِكَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابَ لِقَطْعِ مَادَّةِ الْبَرَكَةِ لِأَنَّ اللَّهَ يُثِيبُ عَلَى الْعَطَاءِ بَغِيرَ حِسَابٍ. انظر الكبائر- للشيخ/ محمد بن عبد الوهاب ص (١١٣).

^(٢) قَوْلُهُ «ارْضَخِي»: مِنَ الرَّضْخِ وَهُوَ الْعَطَاءُ الْيُسِيرُ، فَالْمَعْنَى أَنْفَقِي بِغَيْرِ إِجْحَافٍ مَا دُمْتَ قَادِرَةً مُسْتَطِيعَةً. وَقِيلَ «ارْضَخِي يَرْضَخُ لَكَ» أَيْ وَسَعَى يَوْسَعُ لَكَ.

^(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٥٠) بَابُ هَبَةِ الْمَرْأَةِ لِغَيْرِ زَوْجِهَا وَعَتَقَهَا إِذَا كَانَ لَهَا زَوْجٌ فَهُوَ جَائِزٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ سَفِيهَةً، وَمُسْلِمٌ (١٠٢٩) بَابُ الْحَثِّ فِي الْإِنْفَاقِ وَكَرَاهَةِ الْإِحْصَاءِ.

^(٤) وَالْإِيكَاءُ شَدُّ رَأْسِ الْوِعَاءِ بِالْوِكَاءِ وَهُوَ الرِّبَاطُ الَّذِي يُرْبِطُ بِهِ.

^(٥) وَالْإِحْصَاءُ مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشَّيْءِ وَزَنًّا أَوْ عَدَدًا، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ.

^(٦) فَتَحَ الْبَارِي: ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْكَلَانِيُّ (٣/ ٣٠٠).

والمكان، وبحاجة الناس إليها؛ لهذا يجوز للمسلم أن يقدم شهر زكاته ^(١) إذا وجبت عليه الزكاة حتى يتسنى له إخراجها في رمضان، ليحظى بتضعيف الأجر والثواب؛ فإخراج الزكاة في رمضان يمتاز على إخراجها في غير رمضان بالآتي:

أولاً: مضاعفة الأجر والثواب لفضل الزمان، فالعبادة تفضل في الأزمنة الفاضلة على غيرها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثانياً: ليتمكن الفقراء والمساكين ويتفرغوا لصيامهم وقيامهم واعتكافهم، وفي ذلك فضل عظيم وثواب جليل لمخرجي الزكاة.

ثالثاً: قال ﷺ: من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء ^(٢).

رابعاً: رمضان هو شهر الجود والمواساة، سئل بعض السلف: لم شرع الصيام؟ قال: ليزوق الغنى طعم الجوع فلا ينسى الجائع؛ ولهذا وصف رسول الله ﷺ بأنه

(١) عن علي أن العباس سأل النبي ﷺ في تعجيل صدقته قبل أن تحل فرخص له في ذلك قال مرة فأذن له في ذلك. أخرجه أبو داود، والترمذي وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٣٦) وابن ماجه (١٧٩٥).

قال صاحب عون المعبود: (قبل أن تحل): بكسر الحاء أى أى تجب الزكاة، وقيل قبل أن تصير حالاً بمضى الحول. (فأذن له في ذلك): أى تعجيل الصدقة. قال ابن الملك: وهذا يدل على جواز تعجيل الصدقة بعد حصول النصاب قبل تمام الحول وكذا على جواز تعجيل الفطرة بعد دخول رمضان. وفي سبل السلام لكنه مخصوص جوازه بالمالك ولا يصح من المتصرف بالوصاية والولاية. واستدل من منع التعجيل مطلقاً بحديث أنه لا زكاة حتى يحول الحول، والجواب أنه لا وجوب حتى يحول عليه الحول، وهذا لا ينفي جواز التعجيل وبأنه كالصلاة قبل الوقت، وأجيب بأنه لا قياس مع النص. انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٠/٥).

وقد اختلف أهل العلم في تعجيل الزكاة قبل محلها فرأى طائفة من أهل العلم أن لا يعجلها، وسفيان الثوري قال أحب إلى أن لا يعجلها وقال أكثر أهل العلم إن عجلها قبل محلها أجزأت عنه وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحق وهو قول الحنفية وهو الحق. تحفة الأحوذى (٢٨٧/٣).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما وقال الترمذي حديث صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٧٨) من حديث زيد بن خالد الجهني.

أجود ما يكون في رمضان، فإنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآن فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة ^(١). فعلى الأغنياء أن يواسوا إخوانهم الفقراء بجزء من أموالهم ولا يقدر كثير منهم على ذلك إلا من الزكاة الواجبة.

خامساً: الزكاة حق للفقراء في أموال الأغنياء: قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ^(١٩) [الذاريات: ١٩]، فالفقراء مشاركون للأغنياء في جزء من أموالهم، وأحوج ما يكون الفقراء لهذا الحق في رمضان، لأن الصيام يجهدهم، وقد يقعد بأكثرهم عن السعي للعمل والكسب.

سادساً: من واجب الفقراء الدعاء للأغنياء حين يعطونهم هذا الحق: قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال اللهم صل على آل فلان فاتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى ^(٢).

سابعاً: رمضان يليه العيد الذي يحتاج فيه الفقراء إلى لبس الجديد وإدخال الفرحة والسرور على أزواجهم وأبنائهم بشراء ما يحتاجون إليه في تلك المناسبة.

ثامناً: غالباً ما تطيب نفس المسلم بعمل الخير وتسخر وتجود بالنفقة عندما تزكو بالصيام والقيام، وطيب النفس بإخراج الزكاة مطلب شرعي مهم، ومقصد حسن لمخرجي الزكاة.

(١) أخرجه البخاري باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، ومسلم (٢٣٠٨) باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٦) باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، ومسلم (١٠٧٨) باب الدعاء لمن أتى بصدقة.

تاسعًا: الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات دخول الجنة، فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام»^(١).

عاشرًا: الصيام لا بد أن يقع فيه خلل فيحتاج إلى ما يكفره.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات^(٢).

قال ابن رجب الحنبلي: فالصدقة تجب ما فيه من النقص والخلل، ولهذا وجب في آخر شهر رمضان زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث.

الصدقات المستحبة:

ينبغي على المسلم أن يكثر من الصدقات المستحبة وذلك لأن فيها تكميل لما ينقص من القيام بالزكاة المفروضة، قال ﷺ: «أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن كان أكملها، كتبت كاملة، وإن لم يكن أكملها قال الله للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوع فأكملوا بها ما ضيع من فريضة، ثم الزكاة، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك»^(٣).



(١) صحيح: أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي في شعب الإيمان، ورواه الطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرطهما، وصححه الألباني انظر صحيح الترغيب والترهيب (٦١٨)، (٩٤٧)، (٣٧١٧) والمشكاة (١٢٣٢).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (١٦٠٩) وابن ماجه (١٨٢٧) والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٨٥).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث تميم الداري رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح تخريج الإيمان لابن أبي شيبة (١١٢)، وصحيح أبي داود (٨١٢) وصحيح الجامع (٢٥٧٤).

١٧- بركة الحمامة

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: يَا نَافِعُ قَدْ تَبَيَّغَ بِيَ الدَّمُ فَالْتَمَسَ لِي حَجَّامًا وَاجْعَلْهُ رَفِيقًا إِنْ اسْتَطَعْتَ وَلَا تَجْعَلْهُ شَيْخًا كَبِيرًا وَلَا صَبِيًّا صَغِيرًا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحِجَامَةُ عَلَى الرَّيْقِ أَمْثَلُ وَفِيهِ شِفَاءٌ وَبَرَكَةٌ وَتَزِيدُ فِي الْعَقْلِ وَفِي الْحِفْظِ فَاحْتَجِمُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَاجْتَنِبُوا الْحِجَامَةَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ وَالْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ تَحَرِّيًا وَاحْتَجِمُوا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَاءِ فَإِنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي عَافَى اللَّهُ فِيهِ أَيُّوبَ مِنْ الْبَلَاءِ وَضَرَبَهُ بِالْبَلَاءِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَبْدُو جُدَامٌ وَلَا بَرَصٌ إِلَّا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ أَوْ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ»^(١).



(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٣٤٧٨) باب فِي أَيِّ الْأَيَّامِ يُحْتَجَمُ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٨٧)، وصحيح التريغيب والترهيب (٣٤٦٦).

١٨- بركة اتخاذ الخيل

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «البركة في نواصي الخيل»^(١).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَالَ الَّذِي يُكْتَسَبُ بِاتِّخَاذِ الْخَيْلِ مِنْ خَيْرِ وُجُوهِ الْأَمْوَالِ وَأَطْيَبِهَا وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْمَالَ خَيْرًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْوَصَايَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَفْضِيلِ الْخَيْلِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الدَّوَابِّ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَنْهُ ﷺ فِي شَيْءٍ غَيْرِهَا مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ وَفِي النَّسَائِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ «لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْخَيْلِ»^(٢).

وَعَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِلصَّاحِبِ سَهْمًا»^(٣).

وفي الحديث حَصُّ عَلَى اكْتِسَابِ الْخَيْلِ وَاتِّخَاذِهَا لِلْغَزْوِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْبَرَكَةِ وَإِعْلَاءِ الْكَلِمَةِ وَإِعْظَامِ الشُّوْكَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]^(٤)، وهذا لا يعنى الاعتماد عليها فقط، وترك وسائل الحرب العصرية المناسبة، لدخولها في عموم قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]^(٥).

(١) أخرجه البخارى (٢٦٩٦) باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، ومسلم (١٨٧٤) باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

(٢) **ضعيف:** أخرجه النسائى (٣٥٦٤)، وضعفه الألبانى في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٠٣)، وأخرجه أحمد (٢٠٣٢٧) من حديث معقل بن يسار، وقال في مجمع الزوائد (٤٧٠/٥) رقم: (٩٣٢١) رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات.

(٣) أخرجه البخارى (٢٧٠٨) باب سهام الفرس، ومسلم (١٧٦٢) باب كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين.

(٤) فتح البارى: (٦/٦٩).

(٥) التبرك أنواعه وأحكامه ص: (١٩٣).

ذكر إثبات البركة في ارتباط الخيل للجهاد في سبيل الله

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ^(١) أى في ذواتهم فكنى بالناصية عن الذات يقال فلان مبارك الناصية أى ذاته وإنما كانت مباركة لحصول الجهاد بها ^(٢).

وعن نعيم بن زياد، أنه سمع أبا كبشة صاحب النبي ﷺ، يقول عن النبي ﷺ قال: «الخيـل معقود في نواصيها ^(٣) الخير وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة» ^(٤).

وهذا من جملة معجزاته لدلالته على بقاء الجهاد وإعلاء كلمة الإسلام إلى يوم القيامة (وأهلها معانون عليها) أى على الإنفاق عليها ^(٥).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الخيـل ثلاثة: هى لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر ^(٦) فأما الذى هى له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة ^(٧) فما أصابت في طيلها ^(٨) من المرج والروضة كانت له حسنات ولو

(١) أخرجه البخارى (٢٦٩٤) باب الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ومسلم (١٨٧١) باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

(٢) فيض القدير (٣/ ٥١١).

(٣) (الخيـل معقود في نواصيها الخير): أى ملازم لها كأنه معقود فيها فهو استعارة مكنية. الناصية: مقدم الرأس والمراد ملازمة الخير لنواصي الخيل حيثما توجهت.

(٤) صحيح: رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه (٤٧٦٠)، والحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٤٥).

(٥) فيض القدير (٣/ ٥١٢).

(٦) الْوِزْر: الْحِمْلُ وَالثَّقْلُ، وأكثر ما يُطْلَقُ في الحديث على الذَّنْبِ والإثم. يُقَالُ: وَزَرَ يَزِرُ، إِذَا حَمَلَ مَا يُثْقَلُ ظَهْرُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الثَّقَلَةِ وَمِنَ الذُّنُوبِ.

(٧) قَوْلُهُ: (فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ): وَالْمَرْجُ مَوْضِعُ الْكَلَأِ وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَى الْمَوْضِعِ الْمُطَمَّنِّ وَالرَّوْضَةُ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ.

(٨) قَوْلُهُ: (فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا): هُوَ الْحَبْلُ الَّذِي تُرَبِّطُ بِهِ وَيُطَوَّلُ لَهَا لِتَرَعَى.

أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين ^(١) كانت آثارها وأرواثها حسنات له ولو أنها مرت بنهر فشربت ولم يرد أن يسقيها ^(٢) كان ذلك له حسنات ورجل ربطها تغنياً وسترًا وتعففًا ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها فهي له ستر ورجل ربطها فخراً ^(٣) ورياء ونواء لأهل الإسلام ^(٤) فهي له وزر ^(٥).

قال ابن حجر في الفتح: وفي هذا الحديث بيان أن الخيل إنما تكون في نواصيها الخير والبركة إذا كان إتخاذها في الطاعة أو في الأمور المباحة وإلا فهي مذمومة ^(٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرسا في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» ^(٧).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنفق على الخيل كالمتكفف بالصدقة» فقلنا لمعمر: ما المتكفف بالصدقة؟ قال: «الذي يعطى بكفيه» ^(٨). قال

(١) معنى استنتت: أئى جرت. والشرف - وهو العالى من الأرض.

(٢) قال النووي في شرح مسلم (٦٧/٧): قوله ﷺ: (فشربت ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات) هذا من باب التنبيه؛ لأنه إذا كان تحصل له هذه الحسنات من غير أن يقصد سقيها فإذا قصده فأولى بإضعاف الحسنات.

قال ابن حجر في الفتح: وقوله «ولم يرد أن يسقيها» فيه أن الإنسان يؤجر على التفاصيل التي تقع في فعل الطاعة إذا قصد أصلها وإن لم يقصد تلك التفاصيل وقد تأوله بعض الشراح فقال ابن المنير: قيل إنما أجز لأن ذلك وقت لا يتنفع بشربها فيه فيعتم صاحبها بذلك فيؤجر وقيل إن المراد حيث تشرب من ماء الغير بغير إذنه فيعتم صاحبها لذلك فيؤجر وكل ذلك عدول عن القصد.

(٣) قوله: (فخرًا أئ تعاطماً وقوله: «ورياء» أئ إظهاراً للطاعة والباطن بخلاف ذلك. ووقع في رواية سهيل المذكورة «وأما الذي هى عليه وزر فالذى يتخذها أسراً وبطراً وبذخاً ورياء للناس».

(٤) قوله: (ونواء لأهل الإسلام): بكسر النون والمد هو مصدر تقول: ناوت العدو مئاة ونواء وأصله من ناء إذا نهض واستعمل في المعادة قال الخليل: ناوت الرجل ناهضته بالعداوة.

(٥) أخرجه البخارى (٢٧٠٥) باب الخيل لثلاثة وقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾، ومسلم (٩٨٧) باب إثم مانع الزكاة.

(٦) فتح البارى (٦٥/٥).

(٧) أخرجه البخارى (٢٦٩٨) باب من احتبس فرسا لقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

(٨) صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٧٦١)، وصححه الألبانى في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٤٤).

النووى: وأما حديث إن الشؤم قد يكون في الفرس فالمراد فيه غير المعدة للغزو ونحوه. ^(١).

قال ابن حجر: وفي هذه الأخبار كلها ترغيب في الغزو على الخيل وبقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة لأن من لازم بقاء الجهاد بقاء المجاهدين وهم المسلمون وهو كحديث: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق» ^(٢).



(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١٣/١٦).

(٢) فتح البارى (٦/٥٦).

١٩- بركة الغنم وغيرها من الأنعام^(١)

عن أم هانئ أن النبي ﷺ قال لها اتخذي غنما فإن فيها بركة^(٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدّادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم»^(٣).
وعن عروة البارقي قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا، وَالْغَنَمُ بَرَكَةٌ، وَالْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

وإنما جمع النبي ﷺ العز في الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو وإن نَقَصَهَا الْكُرُّ وَالْفُرُّ.

وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد، فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب، بخلاف الْفَدَّادِينَ^(٥) أَهْلُ الْإِبِلِ.

وقرن النبي ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء، وغلب الكفار، وإعلاء كلمة الله تعالى^(٦).

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْوُضُوءِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ فَقَالَ:

(١) و«الأنعام»: الإبل والبقر والغنم، سميت بذلك للين مشيها، ثم بينها فقال: «ثمانية أزواج» [الأنعام: ١٤٣] تفسير القرطبي (٦/ ٣٤).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢٧٤٢١)، وابن ماجه (٢٣٠٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٧٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٥) باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومسلم (٥٢) باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه.

(٤) صحيح: أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٠٥)، والصحيحة (١٧٦٣) من حديث عروة البارقي مرفوعاً، وخرجه البزار عن حذيفة انظر حديث رقم: (٤١٨١) في

صحيح الجامع

(٥) الفدادون: أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف.

(٦) تفسير القرطبي (١٠/ ٨٠).

«تَوَضَّؤُوا مِنْهَا»، وَسُئِلَ عَنْ لُحُومِ الْغَنَمِ فَقَالَ: «لَا تَوَضَّؤُوا» مِنْهَا وَسُئِلَ عَنْ الصَّلَاةِ فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ فَقَالَ: «لَا تُصَلُّوا فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ فَإِنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ» وَسُئِلَ عَنْ الصَّلَاةِ فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ فَقَالَ: «صَلُّوا فِيهَا فَإِنَّهَا بَرَكَةٌ»^(١).

وعن حميد بن مالك بن خثيم أنه قال: كنت جالساً مع أبي هريرة بأرضه بالعقيق، فأتاه قوم من أهل المدينة على دواب، فنزلوا، قال حميد: فقال أبو هريرة: اذهب إلى أمي وقل لها: إن ابنك يقرئك السلام ويقول: أطعمينا شيئاً، قال: فوضعت ثلاثة أقراص من شعير، وشيئاً من زيت وملح في صفحة^(٢)، فوضعتها على رأسي، فحملتها إليهم، فلما وضعته بين أيديهم، كبر أبو هريرة وقال: الحمد لله الذي أشبعنا من الخبز بعد أن لم يكن طعامنا إلا الأسودان: التمر والماء، فلم يصب القوم من الطعام شيئاً، فلما انصرفوا قال: يا ابن أخي، أحسن إلى غنمك، وامسح الرغام عنها، وأطب مراحها^(٣)، وصل في ناحيتها، فإنها من دواب الجنة، والذي نفسي بيده ليوشك أن يأتي على الناس زمان تكون الثلة من الغنم أحب إلى صاحبها من دار مروان^(٤).

وعن أبي عمر، عن ابن الحنفية، عن علي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الشاة في البيت بركة، والشاتان بركتان، والثلاث بركات»^(٥).

ففي الأحاديث المتقدمة ونحوها حث من الرسول على اتخاذ الغنم وتربيتها لوجود البركة الدنيوية فيها، فقد بارك الله في نتائجها، فالملاحظ سرعة تكاثر أولادها،

(١) صحيح: أخرجه أبي داود (١٥٦) باب الوُضُوءِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٨٤)، وهو عند مسلم من حديث جابر بن سمرة.

(٢) الصفحة: إناء كالْقَصْعَةِ الْمُبْسُوطَةِ ونحوها، وجمعها صِخَاف.

(٣) المراح: المكان الذي تروح إليه الغنم ونحوها أي تأوى إليه ليلاً.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم: (٥٨٩) باب إن الغنم بركة. وأخرجه البيهقي في المعرفة بلفظ: (امسحوا رغام الغنم وطيبوا مراحها وصلوا في جانب مراحها فإنها من دواب الجنة)، صححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٨٥).

(٥) ضعيف جداً: أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم: (٥٩٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٤٢٤).

مع كثرة ما يأكل منها أو يموت، كما أن لها منافع أخرى معروفة^(١).

قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث فيتمول بها أهل الرساتيق^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن»^(٣).

ومن فضل الغنم ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم». فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»^(٤).

بركات الغنم والأنعام ومنافعها: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠] يعني: الغنم «وأوبارها» يعني: الإبل «وأشعارها» يعني: المعز^(٥).

فأذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن في الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها^(٦).

ومن بركاتنا استعمالها في اللباس والركوب والتحميل قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٥] وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ^(٧) حِينَ تُرِيحُونَ

(١) انظر التبرك أنوعه وأحكامه ص: (١٩٤).

(٢) تفسير القرطبي (٣٦/٤). الرساتيق: السواد والقرى واحدها رستاق، أو أهل البساتين.

(٣) أخرجه البخاري (١٩) باب من الدين الفرار من الفتن.

(٤) أخرجه البخاري (٢١٤٣) باب رَعَى الْغَنَمَ عَلَى قَرَارِيْطٍ

(٥) تفسير القرطبي (٣٤/٦).

(٦) المرجع السابق (١٠/١٥٤).

(٧) الجمال ما يتجمل به ويتزين. والجمال: الحسن. انظر تفسير القرطبي (٧٠/١٠).

وَحِينَ سَرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ [النحل: ٥-٧].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه ما استدفيء به من أوبارها تتخذ ثياباً، وأخيه، وغير ذلك. روى العوفي عن ابن عباس أنه قال: يعنى بالدفع: اللباس^(١)، وإلى هذا المعنى ذهب الأكثرون.

والثاني: أنه نسلها. روى عكرمة عن ابن عباس: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: الدفع: نسل كل دابة، وذكر ابن السائب قال: يقال: الدفع أولادها، ومن لا يحمل من الصغار، وحكى ابن فارس اللغوي عن الأموي، قال: الدفع عند العرب: نتاج الإبل وألبانها. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ أى: سوى الدفع من الجلود، والألبان، والنسل، والركوب، والعمل عليها، إلى غير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعنى: من لحوم الأنعام^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، كما فصلها فى سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعاً، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ سَرَحُونَ﴾ أى: غداة حين تبعثونها إلى المرعى. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وهى الأحمال المثقلة التى تعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها فى

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم. عن ابن عباس فى قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: الثياب ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ قال: ما تتفعلون به من الأطعمة والأشربة. (الدر المنثور: ٥/ ١١٠)

(٢) زاد المسير / ابن الجوزى (٤/ ٤٢٩).

أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَةٌ تَشْفِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَفْعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٦) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ [المؤمنون: ٢٢، ٢١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَفْعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ [غافر: ٧٩-٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم^(١). وكان لرسول الله ﷺ من الغنم مائة شاة لا يريد أن تزيد كلما ولد الراعي بهمة ذبح مكانها شاة. قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدميّاطي رحمه الله تعالى في كتاب فضل الخيل: وكانت منائح رسول الله ﷺ من الغنم سبعة: عجرة وزمزم وسقيا وبركة وورشة وأطلال وأطراف.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كانت لرسول الله ﷺ سبع أعنز منائح ترعاهن أم أيمن. قال: والمنيحة: الناقة والشاة تعطيهما غيرك فيحلبها ثم يردها عليك^(٢).



(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٧).

(٢) قال أبو عبيد: للعرب أربعة أسماء تضعها مواضع العارية، وهي: المنيحة، والعريّة، والإفقار، والإخبال. نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري.

٢٠- البركة مع أكابرهم

عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «البركة مع أكابرهم»^(١).

وأراد العلماء والأولياء وإن صغر سنهم أو المجريين للأمور^(٢).

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ أَتَى بِقَدَحٍ فِيهِ شَرَابٌ، فَنَآوَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا عُبَيْدَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَنْتَ أَوْلَى بِهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: «خُذْ»، فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ الْقَدَحَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَشْرَبَ: خُذْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «أَشْرَبْ، فَإِنَّ الْبَرَكَهَ فِي أَكَابِرِنَا، فَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُحِلَّ كَبِيرَنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير^(٤). وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال سمعت عثمان بن أبي العاص يقول كان آخر ما عهد إلى النبي ﷺ حين أمرني على الطائف قال لى يا عثمان تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والسقيم والبعيد وذا الحاجة^(٥).

وعن عبيد بن واقد عن زربي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: «جاء شيخ يريد النبي ﷺ، فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له، فقال النبي ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»^(٦).

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم في المستدرک وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه» والبيهقى في شعب الإيمان. ورواه الطبرانى في الأوسط وقال صحيح على شرط مسلم وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٨٨٤).

(٢) فيض القدير: المناوى (٣/ ٥١٠).

(٣) ضعيف: أخرجه الطبرانى في الكبير (٧٨١٩)، وضعفه الألبانى في ضعيف الجامع (٢٣٧٠).

(٤) صحيح: صحيح الترمذى (٢٨٥٩)، وصحيح سنن أبى داود (٥١٩٨)، الصحيحة (١١٤٩).

(٥) صحيح: صحيح سنن ابن ماجه (٩٨٧).

(٦) صحيح: أخرجه الترمذى وصححه الألبانى في الصحيحة (٢١٩٦). صحيح الجامع (٥٤٤٥).

٢١- البركة في البيت

عن أنس رضي الله عنه، قال: «البيت الذي يكون فيه خيانة لا يكون فيه البركة»^(١).
عن أبي عمرو والأوزاعي عن يحيى، قال: ثلاث لا تكون في بيت إلا نزعته منه البركة؛ السرف والزنا والخيانة.^(٢)

دعاء دخول المنزل: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»^(٤).

نزع ما في البيت من صور وتمائيل: عن عائشة رضي الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على الباب ولم يدخل فعرفت في وجهه الكراهة، قالت: قلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله، وإلى رسوله، ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بال هذه النمرقة، قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، فيقال لهم: أحيوا ما خلقتهم، وقال: إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»^(٥).

وقد دل هذا الحديث على أن ما يفعله بعض الجهال من تعظيم صور للأنبياء أو الأئمة، أو الأولياء، أو المشايخ عندهم ليتبركوا بها ضلال محض، وإغراق في الشرك،

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٥٢٨٥) «هكذا جاء موقوفاً»

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ أبو نعيم الأصبهاني (٦٩/٣) ط: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الرابعة، ١٤٠٥.

(٣) صحيح: صحيحه الألباني في صحيحه الطيب حديث رقم (٦١).

(٤) صحيح: صحيحه الألباني في صحيحه الطيب حديث رقم (٦٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٩٩) باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء.

والنبي والملائكة منه براء.

بل يجب على المسلم أن يبعدها عن البيت، ويعتقد نجاستها، فينال بذلك رضا الله والرسول ﷺ وتدخل الملائكة هذا البيت، وتحل البركة بدخولها. (١).

ذكر الله في البيت: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» (٢).

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا» (٣).

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً» (٤).

قال الطيبي: من تبعية وهو مفعول أول لاجعلوا والثاني «في بيوتكم» أي اجعلوا بعض صلاتكم التي هي النفل مؤداة في بيوتكم فقدم الثاني للاهتمام بشأن البيوت إذ من حقها أن يجعل لها نصيب من الطاعات انتهى. وقيل من زائدة كأنه قال اجعلوا صلاتكم النفل في بيوتكم لتعود بركتها على البيت وأهله ولتنزل الرحمة فيها والملائكة ويكثر خيرها ويفر منها الشيطان فالنفل في البيت أفضل منه في المسجد ولو الحرام إلا ما سن جماعة وركعتا الطواف والإحرام وسنة الجمعة القبلية وقيل أراد بالصلاة الفرض ومعناه اجعلوا بعض فرائضكم في بيوتكم ليقضى بكم من لا يخرج إلى المسجد من نحو امرأة ومريض والجمهور على الأول لقوله في حديث مسلم إذا «قضى أحدكم الصلاة في المسجد فليجعل لبيته نصيباً من صلاته ولا تتخذوها قبورا» أي كالقبور مهجورة من الصلاة شبه البيوت التي لا يصلى فيها بالقبور التي لا يمكن الموتى التعبد فيها» (٥).

(١) رسالة التوحيد/ الشيخ إسماعيل بن عبد الغنى الدهلوى. ص: (١٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٨٠) باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد.

(٣) أخرجه مسلم (٧٧٧).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧٨).

(٥) فيض القدير (١/ ٢٠٨).

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت»^(١).

قال الإمام النووى رحمه الله فيه: النذب إلى ذكر الله تعالى فى البيت، وأنه لا يخلو من الذكر^(٢).

وقال المناوى رحمه الله: تشبيه البيت بالحى والميت من حيث وجود الذكر وعدمه شبه الذاكر بالحى الذى تزين ظاهره بنور الحياة وإشراقها فيه وبالتصرف التام فيما يريد وباطنه منور بالعلم والفهم فكذا الذاكر يزين ظاهره بنور العمل وباطنه بنور العلم والمعرفة فقلبه قار فى حظيرة القدس وسره فى مخدع الوصل وغير الذاكر ظاهره عاطل وباطنه باطل وقيل المضاف فيه مقدر أى مثل ساكن البيت واعترض بأن ساكن البيت حى فكيف يكون مثل الميت؟ وأجيب بأن الحى المشبه به من يتنفع بحياته بذكر الله وطاعته فلا يكون نفس المشبه كما شبه المؤمن بالحى والكافر بالميت مع كونهما حييين فى آية ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] على أن تشبيه غير الذاكر من جهة أن ظاهره عاطل وباطنه باطل أنسب من تشبيه بيته به^(٣).



(١) أخرجه البخارى (٦٠٤٤) باب فضل ذكر الله عز وجل، ومسلم (٧٧٩).

(٢) شرح النووى على مسلم (٦/٦٨).

(٣) فيض القدير (٥/٦٤٦).

٢٢- بركة العلم والعمل به

وأعنى بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعنى بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى^(١).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أى: زدنى منك علماً.

قال ابن عيينة، رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل. ولهذا جاء في الحديث: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تُوفِّيَ وَأَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ يَوْمَ تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علماً، والحمد لله على كل حال»^(٣). ودعا النبى ﷺ لعبد الله ابن عباس كما في المسند:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي بَيْتٍ مَيْمُونَةٍ فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا مِنْ اللَّيْلِ قَالَ: فَقَالَتْ مَيْمُونَةٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَضَعْ لَكَ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَتَّهْ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّوِيلَ»^(٤).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»^(٥).

عن أبي هريرة قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله

(١) إحياء علوم الدين الغزالي (٢/٣١٩) ط: دار المعرفة - بيروت.

(٢) أخرجه مسلم (٣٠١٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذى (٣٥٩٩)، وابن ماجه وقال الألبانى صحيح دون قوله: «والحمد لله...»، صحيح ابن ماجه (٢٥١ و ٣٨٣٣).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد، وصححه الألبانى في السلسلة الصحيحة (٢٥٨٩). وفي رواية للبخارى في «الفضائل»: «اللهم علمه الكتاب»، وفي أخرى «.. علمه الحكمة».

(٥) أخرجه مسلم (١٦٣١) باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

له به طريقاً إلى الجنة»^(١).

وعن أبي أمامة الباهلي قال: «ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»^(٢).

وعن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال ما أقدمك يا أخي فقال حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال أما جئت لحاجة قال لا قال أما قدمت لتجارة قال لا قال ما جئت إلا في طلب هذا الحديث قال فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يتبغى فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»^(٣) إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه به أخذ بحظ وافر». وفي رواية: «يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر»^(٤).

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله - واصفاً العلماء: هم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٨)، (٤٢١٣)، وصحيح الترغيب والترهيب (٨١)، والمشكاة (٢١٣).

(٣) قال القاضي: شبه العالم بالقمر والعابد بالكواكب لأن كمال العبادة ونورها لا يتعدى من العابد ونور العالم يتعدى إلى غيره. تحفة الأحوذى (٣٧٦/٧).

(٤) صحيح: أخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر وأخرجه البزار عن عائشة، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٥٨٨٣).

وَالرَّسُولُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٩] (١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى. يحيون بكتاب الله الموتى، ويصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه (٢).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات (٣).

وعن ابن مسعود قال: ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم (٤).

والعلماء هم أولوا الأمر الذين أوجب الله طاعتهم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يعني أهل الفقه والدين (٥).

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية في جميع أولى الأمر من الأمراء والعلماء (٦).

وأهل طاعة الله الذين يعلمون الناس معاني دينهم ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين/ ابن القيم (٩/١) ط. دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣ - تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

(٢) اللالكائي (٩/١).

(٣) أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل، وانظر الدر المنثور/ جلال الدين السيوطي (٨/ ٨٢-٨٣). ط. دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣.

(٤) أخرجه ابن المنذر، وانظر الدر المنثور (٨/ ٨٢-٨٣).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠٠) رقم: (٩٨٦٧).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥).

من بركات العلم:

أولاً: استشهاد الله سبحانه وتعالى بأهل العلم على أجل مشهود وهو توحيده: قال الله تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨). قال ابن كثير: قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ^(١).

وقال ابن القيم: «استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر والثاني اقتران شهادتهم بشهادته والثالث اقترانها بشهادة ملائكته والرابع أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فان الله لا يستشهد من خلقه الا العدول» ^(٢).

ثانياً: أن الله تعالى نفى التسوية بين العلم والجهل: قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩). قال الطبري: قل يا محمد لقومك: هل يستوى الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخطئون في عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً، ولا يخافون بسيئها شراً؟ يقول: ما هذان بمتساويين ^(٣).

وقال ابن كثير: أى: هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل الله أنداداً ليضل عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ^(٤) أى: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل. ^(٤)

(١) المرجع السابق (٢/ ٢٤).

(٢) مفتاح دار السعادة/ ابن القيم (١/ ٤٨).

(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٢٦٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٨٩).

وقال الزجاج: أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوى المطيع والعاصي^(١).

وقال ابن القيم: نفى سبحانه التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم، وهذا يدل على غاية علوّهم وشرفهم^(٢).

ثالثاً: رفعة درجات أهل العلم في الدنيا والآخرة: قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال الطبري: «يرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم بفضل علمهم درجاتٍ إذا عملوا بما أمروا به»^(٣).

وقال ابن حجر: «قيل في تفسيرها: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدلّ على الفضل؛ إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلوّ المنزلة وحسن الصيت، والحسنة في الآخرة بعلوّ المنزلة في الجنة»^(٤).

رابعاً: أن أهل العلم هم أهل الخشية: قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. قال النسفي: «وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن أن معناه أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم»^(٥).

وقال السعدى: «فكلّ من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنّه داعٍ إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته»^(٦). وفي الحديث عن أنس بن

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٤٠).

(٢) انظر مفتاح دار السعادة (١/ ٤٩).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٤٦).

(٤) فتح الباري (١/ ١٤١).

(٥) تفسير النسفي (٣/ ٨٦).

(٦) تفسير السعدى (٦٨٩).

مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له» ^(١).

قال ابن حجر: وكلما كان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية ممن دونه وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، والأنبياء بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وانما كان خوف المقرين أشد لأنهم يطالبون بما لا يطالب به غيرهم فيراعون تلك المنزلة ولأن الواجب لله منه الشكر على المنزلة فيضاعف بالنسبة لعلو تلك المنزلة فالعبد إن كان مستقيماً فخوفه من سوء العاقبة لقوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَكَ الْمَرْءُ وَقَلِيلَهُ﴾ [الأنفال: ٢٤] أو نقصان الدرجة بالنسبة وإن كان مائلاً فخوفه من سوء فعله وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع فإن الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتصديق بالوعيد عليها وإن يحرم التوبة أو لا يكون ممن شاء الله أن يغفر له فهو مشفق من ذنبه طالب من ربه أن يدخله فيمن يغفر له ^(٢).

خامساً: أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بطلب المزيد من العلم: قال الله جل جلاله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال الكرمانى: «طلب زيادة العلم يدل على فضله، إذ لولا فضله لما أمر الله تعالى بطلبه» ^(٣).

وقال ابن القيم: «وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيّه أن يسأله المزيد منه» ^(٤).

سادساً: الاستشهاد بأقوال أهل العلم يوم القيامة: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

قال ابن كثير: «أى: فيردّ عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم

(١) أخرجه البخارى (٤٧٧٦) باب التَّوْبَةِ فِي النِّكَاحِ، وأخرجه مسلم (١٤٠١) باب: استحباب النكاح.

(٢) فتح البارى (٣١٣/١١).

(٣) الكواكب الدرارى شرح صحيح البخارى - للكرمانى. (٢/٢).

(٤) مفتاح دار السعادة (٥٠/١).

حجة الله في الدنيا»^(١). وقال السعدى: «أى: من الله عليهم بهما، وصار وصفا لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع، مناسباً لأحوالهم»^(٢).

سابعا: أن أهل العلم هم المنتفعون بأمثال القرآن: قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال ابن كثير: «أى: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتعلمون عنه»^(٣).

وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني، لأنى سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]^(٤).

ثامنا: أن العلم سلطان على الناس: قال تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]. وقال عز من قائل: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

قال ابن القيم: «والمقصود أن الله سبحانه سعى علم الحجة سلطاناً لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب»^(٥).

تاسعا: أن العلم شرط في قبول العمل: قال الله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٢٨).

(٢) تفسير السعدى ص: (٦٤٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٩).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم في التفسير: رقم: (١٦٣٣٨).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٩).

قال ابن القيم: «فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، مراداً به وجه الله، ولا يتمكّن العامل من الإتيان بعمل يجمع بين هذين الوصفين إلا بالعلم؛ فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلو لا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة^(١).

عاشرا: طلب العلم طريق إلى الجنة: قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ [القصص: ١٤].

قال الزجاج: «فجعل إتيان العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»^(٢).

قال النووي: «وفيه فضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي»^(٣).

وقال ابن حجر: «فيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه، لأن طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة»^(٤).

وقال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أنّ من حاول أمراً ليكون له عوناً على طلب العلم سهل الله عليه الوصول إلى الجنة»^(٥).

حادى عشر: أن الفقه في الدين سبب من أسباب الحصول على الخير: عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٦).

(١) المرجع السابق (١/ ٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: (٢٦٩٩) باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ٢١).

(٤) فتح الباري (١/ ١٦٠).

(٥) بهجة النفوس (١/ ١٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (٧١) باب من يرد الله به خيراً يفقهه، ومسلم (١٠٣٧) باب النهي عن المسألة.

قال ابن بطال: «فيه فضل العلماء على سائر الناس، وفيه فضل الفقه في الدين على سائر العلوم، وإنما يثبت فضله لأنه يقود إلى خشية الله والتزام طاعته وتجنب معاصيه»^(١).

وقال أبو محمد الأندلسي: «يترتب على هذا من الفقه أن من منَّ عليه بأحد هذين الوجهين فليستبشر بالخير العظيم والفضل العميم، إذ إن الشارع عليه السلام قد جعل ذلك علامة على من أراد الله للخير ويسره إليه، وكيف لا تحقَّ لهم البشارة وبهم يرسل الله الغيث، ويرحم البلاد والعباد»^(٢).

ثاني عشر: أن العلم من أجل النعم: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

قال النسفي: «وفي الآية دليل على شرف العلم، وتقدّم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيها فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده»^(٣).

ثالث عشر: أن العلم كالغيث: عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(٤).

قال القرطبي: «ومقصود هذا الحديث ضرب مثل لما جاء به النبي ﷺ من العلم والدين، ولمن جاءهم بذلك، فشبّه ما جاء به بالمطر العام الذي يأتي الناس في حال

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ١٥٤).

(٢) بهجة النفوس (١/ ١٠٧).

(٣) تفسير النسفي (٣/ ٢٠٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧٩) باب فضل من تعلم وعلم، ومسلم (٢٢٨٢) باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم.

إشْرَافَهُمْ عَلَى الْهَلَاكِ فَيُصِيبُهُمْ وَيُغِيْثُهُمْ»^(١).

وقال ابن القيم: «شبه ﷺ العلم والهدى الذى جاء به بالغيث؛ لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد، فإنها بالعلم والمطر وشبه القلوب بالأراضى التى وقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته... ثم قال: فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم، وعظم موقعه، وشقاء من ليس من أهله»^(٢).

رابع عشر: أن أهل العلم أحد صنفى ولاية الأمر: قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن القيم: «ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسّر الصحابة ﷺ قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون فى سبيل الله؛ هؤلاء بأيديهم، وهؤلاء بألستهم، فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل»^(٣).

قال ابن عثيمين: «فولاية أهل العلم فى بيان شريعة الله، ودعوة الناس إليها، وولاية الأمراء فى تنفيذ شريعة الله، وإلزام الناس بها»^(٤).

خامس عشر: رضا الملائكة بطالب العلم: عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغى منه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم»^(٥).

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٦).

(٢) انظر مفتاح دار السعادة (١/٦٠-٦١).

(٣) المرجع السابق (١/٧١).

(٤) كتاب العلم لابن عثيمين (١٧).

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٧).

قال الخطابي: «قوله: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» يتأول على وجوه، أحدها: أن يكون وضعها الأجنحة بمعنى التواضع والخشوع تعظيماً لحقه وتوقيراً لعلمه. وقيل: وضع الجناح معناه الكف عن الطيران للنزول عنده. وقيل: معناه المعونة وتيسير السعى له في طلب العلم، والله أعلم»^(١).

وقال أبو يحيى زكريا الساجي: كنا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين، فأسرعنا المشى، وكان معنا رجل ماجن متهم في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها، كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط^(٢).

سادس عشر: أن العلم يستثنى صاحبه من اللعن: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم»^(٣).

قال الطيبي: «وكان من الظاهر أن يكتفى بقوله: وما والاه لاحتوائه على جميع الخيرات والفاضلات ومستحسانات الشرع، لكنه خصص بعد التعميم دلالة على فضل العالم والمتعلم، وتفخيماً لشأنهما صريحاً، وإيذاناً بأن جميع الناس سواهما همج»^(٤).

وقال ابن القيم: «وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلم لحق المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه؛ إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه»^(٥).

سابع عشر: إيواء الله سبحانه وتعالى لطالب العلم: عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن

(١) معالم السنن - أبو سليمان الخطابي (٤/ ١٦٩).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٦٤).

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٩١)، والصحيحة (٢٧٩٧)، والمشكاة (٥١٧٦).

(٤) انظر: فيض القدير للمناوي (٣/ ٥٤٩).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٠).

رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟! أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله إليه...»^(١).

قال المهلب: «فيه من الفقه أن من جلس إلى حلقة فيها علم أو ذكر أنه في كنف الله وفي إيوائه، وهو ممن تضع له الملائكة أجنحتها، وكذلك يجب على العالم أن يؤوى من جلس إليه متعلمًا؛ لقوله: «فأواه الله إليه»»^(٢).

وقال ابن حجر: «وفي الحديث فضل ملازمة حلق العلم والذكر، وجلوس العالم والمذكر في المسجد»^(٣).

قال ابن القيم: «فلو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلًا»^(٤).

ثامن عشر: أن أهل العلم يغبطون: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(٥).

قال ابن بطلال: «ترجم البخاري لهذا الباب: باب الاغتباط في العلم والحكمة؛ لأن من أوتى الحكمة مثل هذه الحال فينبغي أن يغبط وينافس فيها»^(٦).

وقال ابن حجر: «دَلَّ الحديث على أن الغبطة لا تكون إلا بأحد أمرين: العلم أو

(١) أخرجه البخاري (٦٦) باب من قعد حيث انتهى من المجلس ومسلم (٢١٧٦) باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها.

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطلال (١/١٤٨).

(٣) فتح الباري (١/١٥٧).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/١٢٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧٣) باب الاغتباط في العلم والحكمة، ومسلم (٨١٦) باب فضل من يقوم بالقرآن.

(٦) شرح صحيح البخاري / لابن بطلال (١/١٥٨).

الجود، ولا يكون الجود محمودًا إلا إذا كان بعلم»^(١).

تاسع عشر: دعاء النبي ﷺ لأهل العلم بالنضارة:

عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نُصِّرُ اللَّهَ أَمْرًا سَمِعَ مِنْهُ حَدِيثًا فَحَفَظَهُ حَتَّى يَبْلُغَهُ، فَرَبَّ حَامِلٍ فَقَهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرَبَّ حَامِلٍ فَقَهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»^(٢).

قال المنذرى: «معناه الدعاء له بالنضارة وهى النعمة والبهجة والحسن، فيكون تقديره: جمّله الله وزيّنه، وقيل غير ذلك»^(٣).

وقال ابن القيم: «ولو لم يكن فى فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفاً؛ فإن النبى دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه»^(٤).

وقال الملا على القارى: «وقد استجاب الله دعاءه؛ فلذلك تجد أهل الحديث أحسنَ الناسَ وجهًا وأجملهم هيئة، وروى عن سفيان أنه قال: ما من أحد يطلب الحديث إلا وفى وجهه نضرة أى بهجة صورية أو معنوية»^(٥).

عشرون: مباهاة الملائكة بطلبة العلم: عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ مَعَاوِيَةَ عَلَى حَلَقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلِسُكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، قَالَ: اللَّهُ مَا أَجْلِسُكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقْلَ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلِسُكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنُحَمِّدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «اللَّهُ مَا أَجْلِسُكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ

(١) فتح البارى (١/١٦٦).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/٤٣٦)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذى (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، وقال الترمذى: «حديث حسن»، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٩٠).

(٣) الترغيب والترهيب (١/١٠٨).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/٧١).

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح/ الملا على القارى (١/٢٨٨).

وجل يباهى بكم الملائكة»^(١).

قال النووي: «معناه: يظهر فضلكم لهم، ويريههم حسن عملكم، ويشئى عليكم عندهم»^(٢).

الحادى وعشرون: تقديم أهل العلم فى الولايات الدينية:

عن أبى مسعود البدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَأُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمَهُمْ بِالسَّنَةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السَّنَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمَهُمْ إِسْلَامًا أَوْ سَنًا»^(٣).

قال ابن القيم: «فقدّم فى الإمامة تفضيله العلم على تقدّم الإسلام والهجرة... وهذا يدلّ على شرف العلم وفضله، وأن أهله أهل التقدّم إلى المراتب الدينية»^(٤).

الثانى وعشرون: أن العلم ميراث النبوة: عن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظٍّ وَافِرٍ»^(٥).

قال ابن القيم: هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كلّ موروث ينتقل ميراثه إلى مورثه إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم فى تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحقّ الناس بميراثهم وفى هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث وهذا كما أنه ثابت فى ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو فى ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء»^(٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠١) باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٢) شرح صحيح مسلم (٢٣/١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٦٧٣) باب من أحق بالإمامة.

(٤) مفتاح دار السعادة (١/٧٦).

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذى (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألبانى فى

صحيح الجامع (٦٢٩٧)، وصحيح الترغيب (٧٠).

(٦) مفتاح دار السعادة (١/٦٦).

الثالث وعشرون: استغفار الحيتان وغيرها لطالب العلم: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء»^(١).

قال الخطابي: «وقيل في قوله: «وتستغفر له الحيتان في جوف الماء»: إن الله قد قيّض للحيتان وغيرها من أنواع الحيوان بالعلم على ألسنة العلماء أنواعاً من المنافع والمصالح والإرفاق، فهم الذين يبنوا الحكم فيها فيما يحلّ ويحرم منها، وأرشدوا إلى المصلحة في بابها، وأوصوا بالإحسان إليها ونفى الضرر عنها، فألهمها الله الاستغفار للعلماء مجازاة على حسن صنيعهم بها وشفقتهم عليها»^(٢).

الرابع والعشرون: لا تنجح الدعوة إلا بالعلم: قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨]. قال ابن القيم: «وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعوه به وإليه، بل لا بدّ في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء»^(٣).



(١) صحيح: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه (١٨٢) واللفظ له، وابن حبان في صحيحه والبيهقي،

وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٠).

(٢) معالم السنن - أبو سليمان الخطابي (٤/ ١٦٩ - ١٧٠).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٤).

٢٣- البركة في من دعا إلى الإسلام

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): يَا رَسُولَ اللَّهِ نِعَمَ الرَّجُلُ بُرَيْدَةَ بْنُ الْحَصِيبِ لِقَوْمِهِ عَظِيمُ الْبَرَكَةِ عَلَيْهِمْ مَرَرْنَا بِهِ لَيْلَةً مَرَرْنَا وَنَحْنُ مُهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَسْلَمَ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مَنْ أَسْلَمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) نِعَمَ الرَّجُلُ بُرَيْدَةَ لِقَوْمِهِ وَغَيْرَ قَوْمِهِ يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ خَيْرَ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ مُدَافِعًا عَنْ قَوْمِهِ مَا لَمْ يَأْتُمْ فَإِنَّ الْإِثْمَ لَا خَيْرَ فِيهِ. ^(١)

قال ابن القيم: إن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل ونصحه لكل من اجتمع به قال الله تعالى إخباراً عن المسيح ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي معلماً للخير داعياً إلى الله مذكراً به مرغباً في طاعته فهذا من بركة الرجل ومن خلا من هذا فقد خلا من البركة ومحقت بركة لقائه والاجتماع به بل تمحق بركة من لقيه واجتمع به فإنه يضيع الوقت في الماجريات ويفسد القلب وكل آفة تدخل على العبد فسيبها ضياع الوقت وفساد القلب وتعود بضياع حظه من الله ونقصان درجته ومنزلته عنده ولهذا وصى بعض الشيوخ فقال احذروا مخالطة من تضيع مخالطته الوقت وتفسد القلب فإنه متى ضاع الوقت وفسد القلب انفرطت على العبد أموره كلها وكان ممن قال الله فيه ﴿وَلَا تُطْعَمَنَ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ^(٢٨) [الكهف: ٢٨] ومن تأمل حال هذا الخلق وجدهم كلهم إلا أقل القليل ممن غفلت قلوبهم عن ذكر الله تعالى واتبعوا أهواءهم وصارت أمورهم ومصالحهم فرطاً أي فرطوا فيما ينفعهم ويعود بصلاحهم واشتغلوا بما لا ينفعهم بل يعود بضررهم عاجلاً وآجلاً وهؤلاء قد أمر الله سبحانه رسوله ألا يطيعهم فطاعة الرسول لا تتم إلا بعدم طاعة هؤلاء فإنهم إنما يدعون إلى ما يشاكلهم من اتباع الهوى والغفلة عن ذكر الله والغفلة عن الله والدار الآخرة متى تزوجت باتباع الهوى تولد ما بينهما كل شر وكثيراً ما يقترن أحدهما بالآخر ولا يفارقه ^(٢).

(١) مغازي الواقدي (١/ ٧٨١).

(٢) انظر رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: (ص: ٥٦).

بركة الأقوال

١- بركة الذكر ومجالسة الصالحين

فهناك أقوال إذا جاء بها المسلم ملتصقًا للخير والبركة حصل له ما أراد، إذا اتبع في ذلك السنة ولم يكن في ذلك مانع.

فمن هذه الأقوال: ذكر الله وتلاوة كتابه ^(١) فمجالس الذكر ومجالسة الصالحين هي أحب المجالس إلى رسول الله ﷺ فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلى من أن أعتق أربعة» ^(٢).

ومجالس الذكر هي مجالس الملائكة كما في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة فضلًا عن كتاب الناس يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلم إلى حاجتكم، فتحف بأجنحتها إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: وهل رأوني؟ قال: يقولون: لا والله يا ربنا ما رأوك، فيقول: كيف لو أنهم رأوني؟ قال: فيقولون: لو أنهم رأوك كانوا أشد عبادة وأشد تحميدًا وتمجيدًا، وأكثر تسبيحًا، فيقول: ما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد حرصًا عليها، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، فيقول: مم يتعذون؟ قال: فيقولون: من النار، فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة،

(١) انظر وسائل نبيل البركات/ للشيخ/ معاوية محمد هيكمل. مجلة التوحيد العدد ٤٠٦ السنة الرابعة والثلاثون.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤٦٥)، والمشكاة (٩٧٠).

فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: إن فيهم فلانا ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم^(١) فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم، فلهم نصيب من قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] وإن الله، عز وجل، ليباهي بالذاكرين الملائكة، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إنني لم أسألكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلة من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه. قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن علينا بك. قال: «الله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذلك؟ قال: «أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»^(٢).

فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى، دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له وأن له منزلة على غيره من الأعمال.^(٣)

وَأَمَّا الْبَرَكَةُ فَلَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهَا لقوله ﷺ: «هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ» نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ لَا يَحْرِمَنَا مِنْ بَرَكَاتِهِمْ بِمَنَّةٍ.

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِيرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(٤).

(١) تقدم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠١) باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٣) تفسير ابن كثير (٤٣٣/٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٧٠) باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وقوله جل ذكره ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، وأخرجه مسلم (٢٦٧٥) باب الحث على ذكر الله تعالى.

وعن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن الله عز وجل عبادة ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله فجثى رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله انعتهم لنا جلهم لنا يعنى صفهم لنا شكلهم لنا فسر وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي فقال رسول الله ﷺ:

هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا يرضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها فيجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً يفرغ الناس يوم القيامة ولا يفرعون وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ^(١).

وأفضل الذكر لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» ^(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عِدَّةٌ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَحُجِبَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمَسَّى وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ بِمَا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ» ^(٣).

وهي كلمة النجاة في الدنيا والآخرة، وأساس كل بركة حاصلة، وذلك لما

(١) صحيح: أخرجه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن والحاكم وقال صحيح الإسناد. وصححه الألباني في صحيح الترهيب والترهيب (٣٠٢٧).

(٢) حسن: أخرجه الترمذى (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني في المشكاة (٢٥٩٨)، الصحيحة (١٥٠٣)، وصحيح الجامع (٣٢٧٤).

(٣) أخرجه البخارى (٦٠٤٠) باب فضل التهليل ومسلم (٢٦٩١) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

اشتملت عليه من نفى الشرك وتوحيد الله الذي هو أفضل وأجل الأعمال، وأساس الملة والدين، فمن قالها وعمل بمقتضاها من العلم واليقين والصدق والإخلاص والمحبة والقبول والانقياد وغير ذلك مما تقتضيه الكلمة المباركة واستقام على ذلك فهذه الحسنة التي لا يعدلها شيء قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[الأحقاف: ١٣، ١٤] (١).



(١) راجع اتبعوا ولا تبندعوا وسائل نيل البركات للشيخ/ معاوية محمد هيكل . مجلة التوحيد ص: (٣٨) - (٤١) العدد (٤٠٦) السنة الرابعة والثلاثون - شوال (١٤٢٦) هـ.

٢- بركة كتاب الله عز وجل

كتاب الله هو المعجزة الخالدة لهذا الدين، وهو الكتاب الحكم الذي أنزل على النبي الكريم، وإذا كان الأنبياء السابقون عليهم السلام قد أوتوا من المعجزات ما آمن عليه البشر في وقتهم ثم انتهت هذه المعجزات بموتهم وفناء أقوامهم، فإن الذي أوتيته محمد ﷺ ظل وسيظل معجزة يدركها اللاحقون بعد السابقين، ويرأها المتأخرون كما رأها المتقدمون.

وتلك ورثي معجزة تتناسب وطبيعة هذا الدين الذي أراد الله له أن يكون آخر الأديان، وتتناسب مع القرآن الذي أراد الله أن يكون آخر كتاب ينزل من السماء، يقول النبي ﷺ في ذلك كله «ما في الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(١).

إنه القرآن؛ كتاب الله ووحيه المبارك.. ﴿كَتَبْنَا الْحِكْمَةَ إِبْنَهُ ثُمَّ فَضَّلْتُمْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هُود: ١]. القرآن كلام الله المنزل، غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. ﴿وَلَهُ لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

أحسن الكتب نظاماً، وأبلغها بياناً، وأفصحها كلاماً، وأبينها حلالاً وحرماً. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا.. هو الجد ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.. هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد.. لا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.. ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]. أنزله الله رحمةً للعالمين، ومحجةً للسالكين، وحجةً

(١) أخرجه البخاري (٤٦٩٦) باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل. من حديث أبي هريرة ؓ.

على الخلق أجمعين، ومعجزةً باقية لسيد الأولين والآخرين. أعز الله مكانه، ورفع سلطانه، ووزن الناس بميزانه. من رفعه؛ رفعه الله، ومن وضعه؛ وضعه الله، قال ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»^(١).

إنها كرامة، وأى كرامة أن يكون بين أيدينا كتاب ربنا، الذى أحاط بكل شىء علمًا، وأحصى كل شىء عددًا. فهو معجز فى فصاحته، فلم يستطع العرب على فصاحتهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله. وهو معجز فى نظمه، وهو معجز فى عدم تبدليه وتغييره أو تحريفه أو زيادته ونقصانه؛ لأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال ابن عقيل: حفظ جميعه، وآياته وسوره التى لا يدخل عليها تبديل من حيث عجز الخلائق عن مثلها فكان القرآن حافظ نفسه من حيث عجز الخلائق عن مثله... وقال أيضًا: ومن إعجاز القرآن أنه لا يمكن لأحد أن يستخرج منه آية قد أخذ معناها من كلام قد سبق، فإنه ما زال الناس يكشف بعضهم عن بعض فيقال: المتنبى أخذ من البحرى.

إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمدًا كانت فى الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع، بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآية القرآنية (المعجزة الخالدة) ذلك أن تأثيرها دائم، ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن فى كل زمان وفى كل مكان، أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله. لقد أعجز القرآن الخلق فى أسلوبه ونظمه، وفى علومه وحكمه، وفى تأثير هدايته وفى كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، وفى كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول، وفى كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول، وقد تحدى العرب بإعجازه، ونقل العرب هذا التحدى إلى كل الأمم فظهر عجزها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله

(١) أخرجه مسلم (٨١٧) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها.

بعقله وتدبره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى وشفاء القلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منشوره^(١).

فالقرآن كله بركة: بركة في تلاوته والعمل به، والتحاكم إليه واتباع أحكامه:

قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥٥] **والأنعام:** ١٥٥ وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [٥٠] **والأنبياء:** ٥٠ وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٢٩] **ص:** ٢٩ وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [٩٢] **والأنعام:** ٩٢.

عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾ [١] **تلك آية الكتاب المبین** [القصص: ١، ٢] يعنى مبين والله بركته ورشده وهداه^(٢). وعن قتادة ﴿حم﴾ [١] **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** [الزخرف: ١، ٢] مبين والله بركته، وهداه ورشده^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [١] **الجن:** ١ أى فى فصاحة كلامه. وقيل: عجا في بلاغة مواعظه. وقيل: عجا في عظم بركته^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [٥٠] **والأنبياء:** ٥٠، ﴿وَهَذَا﴾ يعنى القرآن العظيم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أشير إليه بهذا للإيدان بسهولة تناوله ووضوح أمره، وقيل: لقرب زمانه ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكر به من تذكر ﴿مُبَارَكٌ﴾ أى كثير الفائدة والنفع لاشتماله على منافع الدارين وعلوم الأولين والآخرين صفة بعد صفة.

وقال الإمام^(٥): جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عن هذا الكتاب المتمسك به

(١) مجموع الفتاوى/ ابن تيمية (١/ ٣٨٤).

(٢) تفسير الطبرى: (١٩/ ٥١٣).

(٣) المرجع السابق: (٢١/ ٥٦٢).

(٤) تفسير القرطبي: (١٩/ ٧).

(٥) يقصد الفخر الرازى فى التفسير الكبير (١٣/ ٨٠).

يحصل به عز الدنيا وسعادة الآخرة ولقد شاهدنا والحمد لله عز وجل ثمرة خدمتنا له في الدنيا فنسأله ان لا يحرمنا سعادة الآخرة إنه البر الرحيم^(١).

ووصف القرآن بالمبارك يعم نواحي الخير كلها لأن البركة زيادة الخير؛ فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته وهو أيضا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشرعة واللطائف البلاغية وهو في ذلك كله آية على صدق الذي جاء به لأن البشر عجزوا عن الإتيان بمثله وتحداهم النبي ﷺ بذلك فما استطاعوا. وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان وانتفع به من آمنوا به وفريق ممن حرموا الإيمان. فكان وصفه بأنه مبارك وافيًا على وصف كتاب موسى عليه السلام بأنه فرقان وضياء. وزاده تشريفًا بإسناد إنزاله إلى ضمير الجلالة. وجعل الوحي إلى الرسول إنزالًا لما يقتضيه الإنزال من رفعة القدر إذ اعتبر مستقرًا في العالم العلوى حتى أنزل إلى هذا العالم^(٢).

قال الفخر الرازي: معنى قوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ بركته كثرة منافعه وغزارة علومه. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ﴾ قال أهل المعاني كتاب مبارك أي كثير خيره دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية، وأقول: العلوم إما نظرية، وإما عملية أما العلوم النظرية، فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب وأما العلوم العملية، فالمطلوب، إما أعمال الجوارح وإما أعمال القلوب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتركية النفس ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة^(٣).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / الألوسي (٧/ ٢٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٦-٦٧) ط: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان - الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) المرجع السابق (١٣/ ٦٦).

ويقول الرازي: وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لى بسبب شىء من العلوم من أنواع السعادات فى الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «وهو أحق أن يسمى مباركاً من كل شىء لكثرة خيرهِ ومنافعه ووجوه البركة فيه»^(٢).

ويقول صاحب الظلال وهو يصف بركة القرآن: إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل الله عليهم الكتب. وهذا الكتاب الجديد، الذى ينكرون تنزيله، هو كتاب مبارك.. وصدق الله.. فإنه والله لمبارك.. مبارك بكل معانى البركة.. إنه مبارك فى أصله. باركه الله وهو ينزله من عنده. ومبارك فى محله الذى علم الله أنه له أهل.. قلب محمد الطاهر الكريم الكبير.. ومبارك فى حجمه ومحتواه. فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التى يكتبها البشر؛ ولكنه يحوى من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات فى كل فقرة منه ما لا تحويه عشرات من هذه الكتب الضخام، فى أضعاف أضعاف حيزه وحجمه! وإن الذى مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بنى البشر؛ وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزالون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير، أن هذا النسق القرآنى مبارك من هذه الناحية. وأن هنالك استحالة فى أن يعبر البشر فى مثل هذا الحيز - ولا فى أضعاف أضعافه - عن كل ما يحمله التعبير القرآنى من مدلولات ومفاهيم وموحيات ومؤثرات! وأن الآية الواحدة تؤدى من المعانى وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له فى كلام البشر.. وإنه لمبارك فى أثره. وهو يخاطب الفطرة والكيونة

(١) مفاتيح الغيب - أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى الرازى الملقب بفخر الدين

الرازى (١٥٥/٢٢) ط: دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م

(٢) جلاء الأفهام فى فضل الصلاة على محمد خير الأنام/ ابن القيم (٣٠٤) دار العروبة - الكويت -

الطبعة الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ - تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط.

البشرية بجملتها خطابًا مباشرًا عجيبًا لطيف المدخل؛ ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن؛ فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل. ذلك أن به من الله سلطانًا. وليس في قول القائلين من سلطان!

ولا نملك أن نمضى أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب.

وما نحن ببالغين لو مضينا شيئًا أكثر من شهادة الله له بأنه «مبارك» ففيها فصل الخطاب! (١).

ومن بركات القرآن أنه رقية، وأنه دواء وشفاء، ولكن كثيرًا من عباد الله حرموا أنفسهم هذا الخير. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

يقول ابن القيم - رحمه الله - شفاء معنوى وحسى فهو طمأنينة القلوب وسكينة النفوس وهداية العقول واستقامة السلوك، وهو راحة النفس ولذة الروح، وهو الذى يقع به للمرء من الهناء والسعادة ما لا يكون إلا به وبالارتباط معه وباليقين بما جاء فيه وبترطيب اللسان بتلاوته وبتشنيف الأذان بسماعه، وبإحياء القلوب بالتفاعل معه وبتشغيل العقول بالتدبر والتأمل فيه: ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ وتأمل هذه الآية القرآنية وهى تبين نزول القرآن على مرضى القلوب والنفوس، فإذا به كأنما هو غيثٌ أو مطرٌ يصيب أرضًا قاحلة فيلين قاسيها ويفجر الخيرات منها ويجعلها تورق وتخضر وتزهر بإذن الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧] كل حيرة كل شك كل ضلال كل ذلك يشفيه بإذن الله - عز وجل.

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للإستشفاء به وإذا أحسن العليل التداوى به ووضع على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه لم يقاومه الداء أبداً.

وكيف تقاوم الأدوية كلام رب الأرض والسماء الذى لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه وقد تقدم في أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التى هى حفظ الصحة والحمية واستفراغ المؤذى والإستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع وأما الأدوية القلبية فإنه يذكرها مفصلة ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]. فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله ومن لم يكفه فلا كفاه الله ^(١). ويقول ابن القيم عن نفسه: مكثت بمكة مدة يعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواءً فكنت أعالج نفسى بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألماً فكان كثيراً منهم يبرأ سريعاً.

ثم يقول رحمه الله: ولكن هاهنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أن الآيات والأدعية التى يستشفى بها ويرقى بها هى فى نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعى قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره. فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل. انتهى ^(٢).



(١) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢).

(٢) الجواب الكافي: (ص: ٥).

من بركات القرآن الكريم

إن الله سبحانه وصف القرآن بكونه هدى في غير موضع وأخبر أنه يهدي للتي هي أقوم الطرق وهي أقربها إلى الحق فإن الطريق المستقيم هو أقرب خط موصل بين نقطتين وكلما تعوج بعد. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأخبر سبحانه أنه شفاء لما في الصدور ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وهذا يتضمن أنه يشفي ما فيها من الجهل والشك والحيرة والريب. كما أن الهدى يتضمن أنه موصل إلى المقصود. فالهدى يوصلها إلى الحق المقصود من أقرب الطرق والشفاء يزيل عنها أمراضها المانعة لها من معرفة الحق وطلبه.

وجماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن، فإنه كفيلاً بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بياناً فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه كما يرى الليل والنهار... وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عما يضره فيصير القلب محباً للرشد مبغضاً للغي.

وكذلك أخبر أنه نور كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا

النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فهو نور البصائر من العمى كما هو شفاء الصدور من الجهل والشك...
وأخبر سبحانه أنه برهان فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُنَّ مِّن رَّبِّكُم وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُم نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وأخبر سبحانه أنه علم كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

وأخبر أنه حق... فقال تعالى: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [٢] نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ ﴿[آل عمران: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وأخبر أنه آيات بينات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [١١] [البقرة: ٩٩] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُفْرِهِمْ لَظَهِيمٌ﴾ [١] [الحديد: ٩].

وأخبر أنه أحسن القصص وأحسن الحديث قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وأخبر أنه أصدق الكلام فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وأخبر أن القلوب تطمئن به أى تسكن إليه من قلق الجهل والريب والشك كما يطمئن القلب إلى الصدق ويرتاب بالكذب فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ

يَذْكُرُ اللَّهُ إِلَّا يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

وجعل هذا من أعظم الآيات على صدقه وأنه حق من عنده ولهذا ذكره جواباً لقول الكفار ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فقال: ﴿قُلْ إِنَّا اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٧-٢٨] أى بكتابه الذى أنزله وهو ذكره وكلامه

وأخبر سبحانه أن التوراة التى هو أكمل وأجل منها إمام للناس فقال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢]، والإمام هو القدوة الذى يؤتم به.. وسماه سبحانه فرقاناً؛ لأنه فرق بين الحق والباطل فلو خالف صريح العقل لم يكن فرقاناً.

وأخبر أنه كتاب مبارك والمبارك الكثير البركة والخير والهدى والرحمة.

وأخبر أن الباطل لا يأتیه من بين يديه ولا من خلفه.

وأخبر أنه مهيمن على كل كتاب أى أمين عليه وحاكم وشاهد وقيم.

وأخبر أنه لا عوج فيه وأنه قيم فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا﴾ [الكهف: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨].

وجعله سبحانه حجة على خلقه كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وأخبر سبحانه أنه ضمن الهدى والفلاح لمن اتبع القرآن والضلال والشقاء لمن أعرض عنه؛ فكيف بمن عارضه بمعقول أو رأى أو حقيقة باطلة أو سياسة ظالمة أو قياس إبليسى أو خيال فلسفى ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ

اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٣٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ ءَايَتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٣٦﴾ ﴿طه: ١٢٣-١٢٦﴾.

فضمن سبحانه لمن اتبع هداه وهو كلامه الهدى فى الدنيا والآخرة والسعادة فى الدنيا والآخرة فهاهنا أمران: طريقة وغاية، فالطريقة الهدى والغاية السعادة والفلاح فمن لم يسلك هذه الطريقة لم يصل إلى هذه الغاية والله سبحانه قد أخبر أن كتابه الذى أنزله هو الهدى والطريق وقد أخبر سبحانه أن الذين اتبعوا النور الذى أنزل مع رسوله هم المفلحون لا غيرهم وقال تعالى: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارِبِّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴿البقرة: ١-٥﴾.

وكما جعل سبحانه الهدى والفلاح لمن اتبع كتابه وآمن به وقدمه على غيره جعل الضلال والشقاء لمن أعرض عنه واتبع غيره وعارضه برأيه ومعقوله وقياسه قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ ءَهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾، وقال ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ ﴿القمر: ٤٧﴾، وقال ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٣٤﴾﴾ ﴿طه: ١٢٤﴾، فوصفه بالعمى الذى هو ضد الهدى وبالمعيشة الضنك التى هى ضد السعادة فكتاب الله أوله هداية وآخره سعادة ^(١).

وقد هجر كتاب علام الغيوب. بل قرأ والقلوب لاهية ساهية فى لُجج الدنيا وأوديتها سابحة. كيف لا وقد زينا - غير متبعين - جدران بيوتنا بآيات القرآن، ثم لم نزين حياتنا بالعمل بالقرآن. يقرأه البعض - غير مقتدين - على الأموات، ثم لا يحكمونه فى الأحياء. بل جعلت البركة فى مجرد حمله وتلاوته. وتركت بركته

(١) انظر الصواعق المرسله (٣/ ١١٢٢-١١٢٩)، بتصرف وانظر إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان (٤٤، ٤٥/١).

الحقيقة المتمثلة في اتباعه وتحكيمة امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

جعلنا الله ممن اهتدى بأنواره، وعَمَّتْ عليه بركته في أفعاله وأقواله.

البركة لمن أخذ سورة البقرة

عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْ يَنْ الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا» وقال: «اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقْرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ» قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَّغْنِي أَنَّ الْبَطْلَةَ السَّحَرَةُ^(١).

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْغَمَامَةُ وَالْغَيَاةُ، كُلُّ شَيْءٍ أَظْلَمَ الْإِنْسَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ سَحَابَةٍ وَغَبْرَةٍ وَغَيْرِهَا. قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمُرَادُ أَنَّ ثَوَابَهُمَا يَأْتِي كَغَمَامَتَيْنِ^(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان له جرن من تمر فكان ينقص فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم فسلم عليه فرد عليه السلام فقال ما أنت جنى أم إنسى؟ قال جنى، قال فناولني يدك فناوله يده فإذا يده يد كلب وشعره شعر كلب، قال: هذا خلق الجن قال قد علمت الجن أن ما فيهم رجل أشد مني، قال: فما جاء بك قال بلغنا أنك تحب الصدقة فجئنا نصيب من طعامك قال فما ينجينا منكم قال هذه الآية التي في سورة البقرة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ البقرة من قالها حين يمسي أجبر منا حتى يصبح ومن قالها حين يصبح أجبر منا حتى يمسي فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقال صدق الخبيث^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤) باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٩٠ / ٦).

(٣) صحيح: أخرجه النسائي والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الترغيب

الرُّقَى^(١) والتبرك بالقرآن والمعوذات^(٢)

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرَضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوَّذَاتِ فَلَمَّا مَرَضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ^(٣) لِأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي^(٤).

قال النووي في شرح مسلم: (وَالنَّفْثُ) نَفَخَ لَطِيفٌ بِلَا رِيقٍ. فِيهِ اسْتِحْبَابُ النَّفْثِ فِي الرُّقِيَّةِ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى جَوَازِهِ، وَاسْتَحَبَّهُ الْجُمْهُورُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ. قَالَ الْقَاضِي: وَأَنْكَرَ جَمَاعَةُ النَّفْثِ وَالتَّفْلُ فِي الرُّقَى، وَأَجَازُوا فِيهَا النَّفْخَ بِلَا رِيقٍ،

(١) (الرُّقَى): جَمَعَ رُقِيَّةً بِسُكُونِ الْقَافِ، يُقَالُ رُقِيَ بِالْفَتْحِ فِي الْمَاضِي يَرْقِي بِالْكَسْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَرُقِيتْ فَلَانًا بِكَسْرِ الْقَافِ أَرْقِيهِ، وَاسْتَرْقَى طَلَبَ الرُّقِيَّةِ، وَالْجَمْعُ بغيرِ هَمْزٍ، وَهُوَ بِمَعْنَى التَّعْوِيزِ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ. (انظر فتح الباري (١٠/ ١٩٥)).

(٢) قَوْلُهُ: (بِالْقُرْآنِ وَالْمُعَوَّذَاتِ) هُوَ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُعَوَّذَاتِ سُورَةَ الْفَلَقِ وَالنَّاسِ وَالْإِخْلَاصِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَاخِرِ التَّفْسِيرِ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ. أَوْ الْمُرَادُ الْفَلَقُ وَالنَّاسُ وَكُلُّ مَا وَرَدَ مِنَ التَّعْوِيزِ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اعْزُودْ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(١٧)، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١٨) انظر فتح الباري (١٠/ ١٩٥).

(٣) قَوْلُهُ: (وَأَمْسَحَ بِيَدِهِ نَفْسَهُ) أَيْ أَمْسَحَ جَسَدَهُ بِيَدِهِ، وَفِي رِوَايَةِ الْكُشَيْبِيِّ «بِيَدِ نَفْسِهِ». قَالَ عِيَّاضُ: فَائِدَةُ النَّفْثِ التَّبَرُّكُ بِتِلْكَ الرُّطُوبَةِ أَوْ الْهَوَاءِ الَّذِي مَاسَهُ الذِّكْرُ كَمَا يُتَبَرَّكُ بِغُسَالَةِ مَا يُكْتَبُ مِنَ الذِّكْرِ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ التَّفَاوُلِ بِزَوَالِ ذَلِكَ الْأَلَمِ عَنِ الْمَرِيضِ كَانْفِصَالِ ذَلِكَ عَنِ الرَّاقِي انْتِهَى. وَلَيْسَ بَيْنَ قَوْلِهِ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ «كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ» وَبَيْنَ الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى «كَانَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ» مُعَارَضَةً لِأَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ فِي ابْتِدَاءِ الْمَرَضِ كَانَ يَفْعَلُهُ بِنَفْسِهِ وَفِي اسْتِدَادِهِ كَانَ يَأْمُرُهَا بِهِ وَتَفَعَّلَهُ هِيَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهَا. فتح الباري (١٠/ ١٩٧)

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢١٩٢) بَابَ رُقِيَّةِ الْمَرِيضِ بِالْمُعَوَّذَاتِ وَالنَّفْثِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوَّذَاتِ فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِرِكَابِهَا فَسَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ كَيْفَ يَنْفُثُ قَالَ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى يَدَيْهِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ بِمُعَوَّذَاتٍ.

وَهَذَا الْمَذْهَبُ وَالْفَرْقُ إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلِ ضَعِيفٍ.

قِيلَ: إِنَّ النَّفْثَ مَعَهُ رِيقٌ.

قَالَ: وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي النَّفْثِ وَالتَّفْلِ، فَقِيلَ هُمَا بِمَعْنَى، وَلَا يَكُونَانِ إِلَّا

بِرِيقٍ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يُشْتَرَطُ فِي التَّفْلِ رِيقٌ يَسِيرُ، وَلَا يَكُونُ فِي النَّفْثِ، وَقِيلَ عَكْسُهُ.

قَالَ: وَسُئِلْتُ عَائِشَةَ عَنْ نَفْثِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الرُّقِيَّةِ، فَقَالَتْ: كَمَا يَنْفُثُ أَكُلُ الزَّيْبِ لَا رِيقَ مَعَهُ.

قَالَ: وَلَا اعْتِبَارَ بِمَا يَخْرُجُ عَلَيْهِ مِنْ بَلَّةٍ، وَلَا يَقْصِدُ ذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ الَّذِي رَقَى بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ: فَجَعَلَ يَجْمَعُ بَزَاقَهُ وَيَتَفَلُّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(١).

قَالَ الْقَاضِي: وَفَائِدَةُ التَّفْلِ التَّبَرُّكُ بِتِلْكَ الرُّطُوبَةِ وَالْهَوَاءِ وَالنَّفْسِ الْمُبَاشِرَةِ لِلرُّقِيَّةِ، وَالذِّكْرُ الْحَسَنُ.

لَكِنْ قَالَ: كَمَا يُتَبَرَّكُ بِغُسَالَةٍ مَا يُكْتَبُ مِنَ الذِّكْرِ وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى. وَكَانَ مَالِكٌ يَنْفُثُ إِذَا رَقَى نَفْسَهُ، وَكَانَ يَكْرَهُ الرُّقِيَّةَ بِالْحَدِيدَةِ وَالْمِلْحِ، وَالَّذِي يَعْقِدُ، وَالَّذِي يَكْتُبُ خَاتَمَ سُلَيْمَانَ، وَالْعَقْدُ عِنْدَهُ أَشَدُّ كَرَاهَةً لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُشَابَهَةِ السَّحْرِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ الرُّقِيَّةِ بِالْقُرْآنِ وَبِالْأَذْكَارِ، وَإِنَّمَا رَقَى بِالْمُعَوِّذَاتِ لِأَنَّهُنَّ جَامِعَاتٌ لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ كُلِّ الْمَكْرُوهَاتِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، فَفِيهَا الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعَقْدِ، وَمِنْ شَرِّ السَّوَاحِرِ، وَمِنْ شَرِّ الْحَاسِدِينَ، وَمِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ ^(٢).



(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٤٨).

(٢) المرجع السابق (١٤/١٨٢، ١٨٣).

٣- بركة أسماء الله الحسنى

فاسم الله عز وجل هو الاسم الذى تنزل به البركات.

قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿بِزَكَاةٍ وَسْمٍ رَبِّكَ﴾

قال الراغب الأصفهاني: أى البركة والنعمة الفائضة فى صفاته إذا اعتبرت وذلك نحو الكريم والعليم والبارى والرحمن الرحيم. وقال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

أى نظيراً له يستحق اسمه، وموصوفاً يستحق صفته على التحقيق وليس المعنى هل تجد من يتسمى باسمه إذ كان كثير من أسمائه قد يطلق على غيره لكن ليس معناه إذا استعمل فيه كما كان معناه إذا استعمل فى غيره^(١).

قال ابن الأثير وغيره:^(٢) تبارك تفاعل من البركة والمعنى أن البركة تكتسب وتنال بذكر اسمه فلو كان لفظ الاسم معناه المسمى لكان يكفى قوله تبارك ربك فإن نفس الاسم عندهم هو نفس الرب فكان هذا تكريراً وقد قال بعض الناس إن ذكر الاسم هنا صلة والمراد تبارك ربك ليس المراد الإخبار عن اسمه بأنه تبارك وهذا غلط فإنه على هذا يكون قول المصلى تبارك اسمك أى تباركت أنت، ونفس أسماء الرب لا بركة فيها، ومعلوم إن نفس أسمائه مباركة وبركتها من جهة دلالتها على المسمى؛ ولهذا فرقت الشريعة بين ما يذكر اسم الله عليه وما لا يذكر اسم الله عليه فى مثل قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨].

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

(١) انظر مفردات غريب القرآن للأصفهاني (١/ ٢٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى/ ابن تيمية (٦/ ١٩٣).

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [البائدة: ١٠٧]، وقول النبي لعدى بن حاتم: «وإن خالط كلبك كلاب أخرى فلا تأكل فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره»^(١).

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا فَتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا ثُمَّ يَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»^(٤).

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ اسْمِ (اللَّهِ): لِهَذَا الْاسْمِ الشَّرِيفِ عَشْرُ خَصَائِصٍ لَفْظِيَّةٍ، وَسَاقِهَا. ثُمَّ قَالَ: وَأَمَّا خَصَائِصُهُ الْمَعْنَوِيَّةُ فَقَدْ قَالَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ ﷺ: «لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٥).

(١) صحيح: أخرجه النسائي وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٤٢٦٣)، وصحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٨)، وصحيح الجامع (٣١٣) نحوه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو عبد الله بن منده في «التوحيد» والأصبهاني في «الترغيب» (٧٣٩) وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة والبيهقي في الشعب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٩٨)، (٢٩٣٩).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٧٧٦)، والمشكاة (٨١٥).

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي وزاد أبو داود بعده قوله غيرك «ثم يقول لا إله إلا الله ثلاثاً» وفي آخر الحديث ثم يقرأ. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٧٧٥)، والمشكاة (١٢١٧).

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٦) باب ما يقال في الركوع والسجود.

وكيف نحصى خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل جلال وكل كمال، وكل عز وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود وفضل وبر فله ومنه، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم وغم إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العز، ولا فقير إلا صيره غنياً، ولا مستوحش إلا أنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه. فهو الاسم الذي تكشف به الكربات، وتستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات، وتقال به العثرات، وتستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات. وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسموات، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع.

وبه قامت الحدود، وبه شرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حقت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وضعت الموازين، بالقسط ونصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عبد رب العالمين وحمد، وبحقه بعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سعد من عرفه وقام بحقه، وبه شقى من جهله وترك حقه، فهو سر الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا وإليه انتهيا، فالخلق به وإليه ولأجله، فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه منتهياً إليه، وذلك موجب ومقتضاه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١) إلى آخر كلامه - رحمه الله تعالى (١).



(١) انظر كلام ابن القيم: عن اسم الله في فتح المجيد/ عبد الرحمن بن حسن آل شيخ ص: (٨-٩). ط: دار الكتب العلمية _ بيروت - لبنان - تحقيق/ محمد حامد الفقى.

بركة الرقية بأسماء الله تعالى

إن الرقى بأسماء الله تعالى تقتضى التوكل عليه، والالتجاء إليه، والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ ^(١) فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ اشْكَيْتَ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ ^(٢) وَعَيْنٍ حَاسِدٍ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ وَاللَّهُ يَشْفِيكَ» ^(٣).

وعن عبد العزيز بن صهيب قال: دخلت أنا وثابتُ البُنَانِيُّ على أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال ثابت يا أبا حمزة ^(٤) اشتكيت فقال أنس أفلا أرقيك برقية رسول الله ﷺ قال بلى قال: «اللهم رب الناس مذهب الباس ^(٥) اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت شفاء لا يغادر ^(٦) سقماً» ^{(٧)(٨)}.

وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ أَنَّهُ شَكَاَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ» ^(٩). وعن

(١) أتى النبي ﷺ: أى لِلزَّيَارَةِ أَوْ الْعِيَادَةِ.
(٢) مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ: أى خَبِيثَةٍ. قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ (١٤ / ١٧٠): قِيلَ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْسِ نَفْسُ الْأَدَمِيِّ وَقِيلَ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْعَيْنُ، فَإِنَّ النَّفْسَ تُطْلَقُ عَلَى الْعَيْنِ، يُقَالُ: رَجُلٌ (نَفْسُ) إِذَا كَانَ يُصِيبُ النَّاسَ بِعَيْنِهِ.

(٣) صحيح: صححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٩٧٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٥٢٣).

(٤) يَا أَبَا حَمْزَةَ: هَذَا كُنْيَةُ أَنَسٍ.

(٥) مَذْهَبُ الْبَاسِ: أى مُزِيلُ شِدَّةِ الْمَرَضِ.

(٦) لَا يَغَادِرُ: أى لَا يَتْرُكُ.

(٧) سَقَمًا: بِفَتْحَتَيْنِ وَبِضَمٍّ وَسُكُونٍ أى مَرَضًا وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّغْلِيلِ، وَفَائِدَةُ التَّقْيِيدِ أَنَّهُ قَدْ يَحْصُلُ الشِّفَاءُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ فَيُخَلِّفُهُ مَرَضٌ آخَرٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مَثَلًا فَكَانَ يَدْعُو بِالشِّفَاءِ الْمُطْلَقِ لَا بِمُطْلَقِ الشِّفَاءِ.

(٨) أخرجه البخارى (٥٤١٠) باب رقية النبي ﷺ.

(٩) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء.

عائشة أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات ^(١) وينفث ^(٢) فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها ^(٣).

قال ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري: في الاسترقاء بالمعوذات استعاذة بالله تعالى من شر كل من خلق ومن شر النفاثات في السحر ومن شر الحاسد ومن شر الشيطان ووسوسته، وهذه جوامع من الدعاء تعم أكثر المكروهات ولذلك كان عليه السلام يسترقى بهما، وهذا الحديث أصل ألا يسترقى إلا بكتاب الله وأسمائه وصفاته ^(٤).

وعن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب وإنك نهيت عن الرقى قال فعرضوها عليه فقال: «ما أرى بأساً من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه» ^(٥).

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقى في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا على رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك» ^(٦).

عن عائشة قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنِي أَنْ أُسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ ^(٧).
عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجَارِيَةٍ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ

(١) بِالْمَعُودَاتِ: أَيْ يَقْرَأُهَا مَا سَحًا لِجَسَدِهِ عِنْدَ قِرَاءَتِهَا. وَفِي رِوَايَةِ الْمُفَضَّلِ بْنِ فَصَّالَةَ عَنْ عَقِيلٍ «ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ». فتح الباري (١٠/٢١٠).

(٢) نَفَثَ: أَيْ تَفَلَّ بِغَيْرِ رِيْقٍ أَوْ مَعَ رِيْقٍ خَفِيفٍ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٨) باب فضل المعوذات، ومسلم (٢١٩٢) باب رقية المريض بالمعوذات والنفث.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/٤٢٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢١٩٩) باب استحباب الرقية من العين والنملة والحممة والنظرة.

(٦) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك.

(٧) أخرجه مسلم (٢١٩٥) باب استحباب الرقية من العين والنملة والحممة والنظرة.

النَّبِيُّ ﷺ رَأَى بِوَجْهِهَا سَفْعَةً^(١) فَقَالَ: «بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا» يَعْنِي بِوَجْهِهَا صُفْرَةٌ^(٢).

قال ابن بطال: الرقية من العين والنظرة وغير ذلك باسم الله تعالى وكتابه مرجو بركتها؛ لأمر النبي عليه السلام بذلك، وقد أمر رسول الله ﷺ باغتسال العائن وصب ذلك الماء على العين^(٣).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَى عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخْبَأَةٍ فَلَبِطُ سَهْلٌ فَأَتَيْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ وَاللَّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَلْ تَتَّهِمُونَ لَهُ أَحَدًا قَالُوا: نَتَّهِمُ عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: عَلَامَ يُثْلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ أَلَا بَرَكْتُ اغْتَسِلَ لَهُ فَعَلَّ عَامِرٌ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَاخْلَعَهُ إِزَارَهُ فِي قَدَحٍ ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ فَرَّاحَ سَهْلٍ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ^(٤).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرُوا وَهِيَ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَصَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمْ فَلَدَغَ سَيِّدُ ذَلِكَ

(١) السَّفْعَةُ: وَقَدْ فَسَّرَهَا فِي الْحَدِيثِ بِالْصُّفْرَةِ، وَقِيلَ سَوَادٌ، وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ هِيَ لَوْنٌ يُخَالِفُ لَوْنَ الْوَجْهِ، وَقِيلَ أَخَذَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ. شرح النووى على صحيح مسلم (١٤/ ١٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٧).

(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٩/ ٤٣٠).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ حديث رقم: (٣٤٦٠)، وأحمد في المسند حديث رقم (١٥٩٨٠)، وابن ماجه (٣٥٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٦٧)، والمشكاة (٤٥٦٢).

وفيه بيان صفة اغتسال عامر، وعند أحمد صفة الصب على سهل. وفيه: (ثم صب ذلك الماء عليه يصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه ثم يكفى القدح وراءه ففعل به ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس). وفي المعجم الكبير (ج٦/ ص ٨٣) فقال ﷺ: «علام يقتل أحدكم أخاه! إذا أعجبه من أخيه شيء فليدع بالبركة». وأمره النبي ﷺ أن يغسل وجهه ويديه وطرف إزاره وركبتيه ثم شرب منه وصب عليه فراح مع الناس). قال ابن بطال: فيه من الفقه انه إذا عرف العائن أنه يقضي عليه بالوضوء لأمر النبي عليه السلام بذلك وأنها نشرة ينتفع بها. وقوله: «ألا بركت» فيه أن من رأى شيئاً فأعجبه فقال: تبارك الله أحسن الخالقين وبرك فيه؛ فإنه لا يضره بالعين وهي رقية منه. شرح ابن بطال (٩/ ٤٣٠).

الْحَيِّ فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ فَاتَوْهُمْ فَقَالُوا يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ نَعَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي وَلَكِنَّ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ فَاَنْطَلَقَ يَنْتَفِلُ عَلَيْهِ ^(١) وَيَقْرَأُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٢) فَكَانَتْما نُسْطَ مِنْ عِقَالٍ فَاَنْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلْبُهُ ^(٣) قَالَ فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ

فَقَالَ بَعْضُهُمْ ااقْسِمُوا فَقَالَ الَّذِي رَقَى لَا نَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ الَّذِي كَانَ فَتَنْظَرُ مَا يَأْمُرُنَا فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ ثُمَّ قَدْ - أَصَبْتُمْ ااقْسِمُوا وَاَضْرِبُوا إِلَى مَعَكُمْ سَهْمًا» ^(٤) فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٥).

قال ابن أبي حمزة: محلّ التفل في الرقية يكون بعد القراءة لتحصيل بركة القراءة

(١) قوله: فَاَنْطَلَقَ يَنْتَفِلُ: وَهُوَ نَفَخَ مَعَهُ قَلِيلَ بَرَاقٍ.

(٢) قال ابن حجر في الفتح: ولم يذكر في هذه الطريق عدد ما قرأ الفاتحة لكنه بينه في رواية الأعمش وأنه سبع مرات ووقع في حديث جابر ثلاث مرات والحكم للزائد. فتح الباري: (٤/٤٥٦).

(٣) قوله: وَمَا بِهِ قَلْبُهُ: بِحَرَكَاتِ أَيْ عِلَّةٌ، وَقِيلَ لِلْعِلَّةِ قَلْبُهُ لِأَنَّ الَّذِي تُصَيِّهُ يَقْلَبُ مِنْ جَنْبٍ إِلَى جَنْبٍ لِيُعْلَمَ مَوْضِعُ الدَّاءِ قَالَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: «وَقَدْ بَرِئْتُ فَمَا فِي الصَّدْرِ مِنْ قَلْبَةٍ» وَفِي نُسْخَةِ الدِّمِطِيَّيَ بِخَطِّهِ: قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ الْقَلْبَةُ دَاءٌ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقَلَابِ يَأْخُذُ الْبُعِيرَ فَيَأْلَمُ قَلْبُهُ فَيَمُوتُ مِنْ يَوْمِهِ.

(٤) قال النووي: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «ااقْسِمُوا وَاَضْرِبُوا إِلَى بِسْمِهِمْ مَعَكُمْ» فَهَذِهِ الْقِسْمَةُ مِنْ بَابِ الْمُرُوءَاتِ وَالتَّبَرُّعَاتِ وَمُؤَاَسَاةِ الْأَصْحَابِ وَالرَّفَاقِ، وَإِلَّا فَجَمِيعُ الشَّيْءِ مِلْكٌ لِلرَّاقِي مُخْتَصَّةٌ بِهِ، لَا حَقَّ لِلْبَاقِينَ فِيهَا عِنْدَ التَّنَازُعِ، فَقَاسَمَهُمْ تَبَرُّعًا وَجُودًا وَمُرُوءَةً، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَاَضْرِبُوا إِلَى بِسْمِهِمْ» فَإِنَّمَا قَالَهُ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ، وَمُبَالَغَةً فِي تَعْرِيفِهِمْ أَنَّهُ حَلَالٌ لَا شُبْهَةَ فِيهِ، وَقَدْ فَعَلَ ﷺ فِي حَدِيثِ الْعُبَيْرِ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ فِي حِمَارِ الْوَحْشِ مِثْلَهُ. شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٨٨).

وقال المهلب: ومما يدل على جواز أخذ الأجرة على ذلك، أن الذين أخذوا الغنم تخرجوا من قسمتها وأكلها حتى سألوا رسول الله عن ذلك، فأعلمهم النبي أنها حلال لهم أخذ الأجر عليه، وأكد تأنيبهم، وطيب نفوسهم بأن قال: «ااضربوا إلى معكم بسهم» شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/٤٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢١٥٦) باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، ومسلم (٢٢٠١) باب جَوَازِ أَخْذِ الْأَجْرَةِ عَلَى الرُّقِيَةِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَذْكَارِ.

فِي الْجَوَارِحِ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الرِّيقُ فَتَحْصُلُ الْبَرَكَةُ فِي الرِّيقِ الَّذِي يَنْفُلُهُ ^(١).

قال ابن بطال: وقوله عليه السلام: «وما يدريك أنها رقية» يدل أن في القرآن ما يخص الرقي وأن فيه ما لا يخصها، وإن كان القرآن كله مرجو البركة من أجل أنه كلام الله، لكن إذا كان في الآية تعوذ بالله أو دعاء كان أخص بالرقية مما ليس فيه ذلك، وإنما أراد النبي ﷺ بقوله: «وما يدريك أنها رقية» أن يختبر علمه بذلك؛ لأنه ربما خفى موضعها في الحمد، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيذُ﴾ ^[الفاتحة: ٥] هو الموضع الذي فيه الرقية؛ لأن الاستعانة به تعالى على كشف الضر، وسؤال الفرج والتبرؤ إليه من الطاقة، والإقرار بالحاجة إليه وإلى عونته هو في معنى الدعاء، ويحتمل أن يكون الراقي إنما رقى بالحمد لله لما علم أنها ثناء على الله، فاستفتح رقيته بالثناء رجاء الفرج، كما يرجي في الاستفتاح به في الدعاء الإجابة، ولذلك قال إبراهيم التيمي: إذا بدأ الرجل بالثناء قبل الدعاء فقد استوجب، وإذا بدأ بالدعاء قبل الثناء كان على الرجاء ^(٢).

ولكن هاهنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يُستشفى بها، ويُرقى بها هي نفسها نافعة شافعة؛ ولكن تستدعى قبول المحل، وقوة همة الفاعل، وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفع، أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة (أي طبيعة البدن) لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوى يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة (أي الأجسام) إذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقي والتعاويز بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة، وهمة مؤثرة في إزالة الداء ^(٣).

(١) فتح الباري (٤/٤٥٦).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/٤٠٧-٤٠٨).

(٣) تفسير وبيان لأعظم سورة في القرآن/ محمد بن جميل زينو.

٤- بركة تعظيم اسم الله

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «إن أيوب نبي الله لبث به بلاؤه خمس عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، قد كانا يغدوان^(١) إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: نعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فكشف عنه ما به فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، فقال له أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أنى كنت أمر بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، وكان يخرج لحاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحًا، قال: فإنى أنا هو، قال: وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت أحدهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض»^(٢).



(١) الغدو: السير أول النهار.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرک برقم: (٤٠٨٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وصححه الألبانى في السلسلة الصحيحة (١٧) وفيه:

٥- بركة « لا حول ولا قوة إلا بالله »

قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

قال القرطبي: وقيل: الجواب مضمر، أى ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون. «لا قوة إلا بالله» أى ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع.

قال أشهب قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا.

وقال ابن وهب وقال لى حفص بن ميسرة: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوبا «ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة - أو قال على كنز من كنوز الجنة» فقلت: بلى، فقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

وروى أنه من دخل منزل أو خرج منه فقال: «باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله» تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من قال - يعنى إذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله. لا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: كفيت ووقيت وهديت وتنحى عنه الشيطان فيقول لشیطان آخر: كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى»^(٣).



(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٤) باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٢) تفسير القرطبي: (٤٠٦/١٠).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان وروى الترمذى إلى قوله الشيطان وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٥٠٩٥)، وصحيح الجامع (٤٩٩)، والكلم الطيب. حديث رقم: (٥٩).

٦- بركة الأذان

عن عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة عن عبد الله بن محيريز وكان يتيما في حجر أبي محذورة بن معير حين جهزه إلى الشام فقلت لأبي محذورة: أى عم إني خارج إلى الشام وإنى أسأل عن تأذنيك فأخبرني أن أبا محذورة قال خرجت في نفر فكنا ببعض الطريق فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذن ونحن عنه متنكبون فصرخنا نحكيه نهزأ به فسمع رسول الله ﷺ فإرسل إلينا قوماً فأقعدونا بين يديه فقال: «أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع» فأشار إلى القوم كلهم وصدقوا فأرسل كلهم وحبسني وقال لى قم فأذن فقامت ولا شىء أكره إلى من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرنى به فقامت بين يدى رسول الله ﷺ فألقى على رسول الله ﷺ التآذين هو بنفسه فقال: «قل الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ثم قال لى ارفع من صوتك أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الصلاة حى على الفلاح حى على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله»، ثم دعانى حين قضيت التآذين فأعطانى صرة فيها شىء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبى محذورة ثم أمرها على وجهه ثم على ثديه ثم على كبده ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سره أبى محذورة ثم قال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك وبارك عليك» فقلت يا رسول الله أمرتنى بالتآذين بمكة قال: «نعم» قد أمرتك فذهب كل شىء كان لرسول الله ﷺ من كراهية وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ قال وأخبرني ذلك من أدرك أبا محذورة على ما أخبرني عبد الله بن محيريز^(١).

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه باب التَّرجيع فى الأَذَانِ (٧٠٠)، وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٣٩٣/١). وصححه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجه (٧٠٨).

٧- الصلاة على النبي ﷺ وما فيها من البركة

معنى الصلاة على النبي: قال ابن القيم رحمه الله: وأصل هذه اللفظة في اللغة يرجع إلى معنيين:

أحدهما: الدعاء والتبريك.

والثاني: العبادة فمن الأول قوله تعالى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّعْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] وقول النبي ﷺ: «إذا دعى أحدكم فليجب فإن كان صائماً فليصل»^(١)^(٢). قيل فليدع لهم بالبركة وقيل يصلى عندهم بدل أكله وقيل إن الصلاة في اللغة معناها الدعاء.^(٣)

قال البيهقي في شعب الإيمان: وأما المباركة فإنها فضل الله تعالى جده، وإنما يكون منا هذا التبريك وهو أن نقول: اللهم بارك على محمد، وأصل البركة الدوام. فإذا قلنا: اللهم بارك على محمد، فالمعنى اللهم أدم ذكر محمد ودعوته وشريعته وكثر أتباعه وأشياعه وعرف أمته من يمينه وسعادته أن تشفعه فيهم وتدخلهم جناتك وتحلهم دار رضوانك فيجمع التبريك عليه الدوام والزيادة والسعادة، والله أعلم^(٤).
عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدى لك هدية خرج علينا رسول الله فقلنا قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

(١) (فليصل): اختلفوا في معنى فليصل قال الجمهور معناه فليدع لأهل الطعام بالمغفرة والبركة ونحو ذلك وأصل الصلاة في اللغة الدعاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وقيل المراد الصلاة الشرعية بالركوع والسجود أى يشتغل بالصلاة ليحصل له فضلها وثوابها وللحاضرين بركتها.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣١)، وفي رواية: «مَنْ دُعِيَ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ مُفْطَرًّا أَكَلَ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ وَلْيَدْعُ لَهُمْ». وفي رواية: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ، يَعْنِي الدُّعَاءَ».

(٣) انظر جلاء الأفهام/ ابن القيم (١/ ١٥٥).

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٢٢١).

مجيد اللهم بارك - وفي لفظ - وبارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي حميد الساعدي قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» هذا هو اللفظ المشهور^(٢).

وفي البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم»^(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: أئانا رسول الله ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلى عليك فكيف نصلى عليك؟ قال: فسكت رسول حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم»^(٤).

والصلاة على النبي ﷺ: هي سبب البركة في ذات المصلى وعمله وعمره وأسباب مصالحه؛ لأن المصلى داع ربه يبارك عليه وعلى آله وهذا الدعاء مستجاب والجزاء من جنسه^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «صلوا على فإن الصلاة على

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٦) باب الصلاة على النبي ﷺ، ومسلم (٤٠٦) باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) باب الصلاة على النبي ﷺ، ومسلم (٤٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٧) باب الصلاة على النبي ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم (٤٠٥) باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد.

(٥) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام/ ابن القيم الجوزية: (١/ ٤٤٧) دار العروبة - الكويت - الطبعة الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط.

زكاة لكم»^(١).

فهذا فيه الإخبار بأن الصلاة زكاة للمصلى على النبي والزكاة تتضمن النماء والبركة والطهارة والذي قبله فيه: «إنها كفارة» وهي تتضمن محو الذنب فتضمن الحديثان أن بالصلاة عليه تحصل طهارة النفس من رذائلها ويثبت لها النماء والزيادة في كمالاتها وفضائلها وإلى هذين الأمرين يرجع كمال النفس فعلم أنه لا كمال للنفس إلا بالصلاة على النبي التي هي من لوازم محبته ومتابعته وتقديمه على كل من سواه من المخلوقين^(٢).

وقال ابن الجوزي: واعلموا رحمكم الله أن في الصلاة على سيدنا محمد ﷺ عشر كرامات: إحداهن صلاة الملك الجبار، والثانية شفاعة النبي المختار، والثالثة الاقتداء بالملائكة الأبرار، والرابعة مخالفة المنافقين والكفار، والخامسة محو الخطايا والأوزار، والسادسة قضاء الحوائج والأوطار، والسابعة تنوير الظواهر والأسرار، والثامنة النجاة من عذاب دار البوار، والتاسعة دخول دار الراحة والقرار، والعاشرة سلام الملك الغفار^(٣).



(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن فضيل عن ليث بن كعب عن أبي هريرة. (٣٩٩/٢)، وانظر بغية الحارث (٣١٨/١) وأخرجه البزار: انظر كنز العمال (٤٩٤/١) برقم: (٢١٨٢).

(٢) المرجع السابق: (٤٢٠/١).

(٣) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزي - ص: (٣١٩) ط: مكتبة الإيمان.

٨- بركة الاستغفار والتوبة

تعريف الاستغفار: الاستغفار لغة: الاستغفار مصدر قولهم: استَغْفَرَ يستغفر، وهو مأخوذ من مادة (عَ فَ رَ) التي تدل على الستر في الغالب الأعم، فالغَفْرُ الستر والغفر والغفران بمعنى واحد، يقال: غفر الله ذنبه غفرًا ومغفرةً وغفرانًا.

وقال ابن منظور: وأصل الغَفْرِ التغطية والستر غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ أَيْ سَتَرَهَا ^(١).
يقال: اللهم اغفر لنا مغفرةً.

وقال ابن سيده: والغفر والمَغْفرة: التغطية على الذنوب والعفو عنها ^(٢).

وقال الراغب: الغفر إلباس ما يصونه عن الدنس.

الاستغفار شرعًا: الاستغفار من طلب الغفران والغفران تغطية الذنب بالعفو عنه وهو أيضًا طلب ذلك بالمقال والفعال.

اقتران الاستغفار بالتوبة

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٢٠﴾ [هود: ٣]، ويقول عز وجل: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ۝٥٢﴾ [هود: ٥٢].

الفرق بين الاستغفار والتوبة

إذا اقرن ذكر التوبة بالاستغفار فإن الاستغفار حينئذ هو طلب المغفرة بالدعاء، والتوبة هي الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة.

وقيل: إن الاستغفار إذا اقرن بالتوبة فإنه يعنى طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، وأيضًا فالاستغفار

(١) انظر لسان العرب - ابن منظور (٢٥/٥).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم - ابن سيده (٤٢٤/٢).

من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقية شر الذنب، والتوبة أن تحصل له بعدها الوقاية مما يحبه.

وإذا أفرد الاستغفار أو أفردت التوبة يكون معناهما واحداً، قال ابن القيم: «الاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، لا كما يظنه بعض الناس أن المغفرة تعنى الستر، فإن الله يستر على من يغفر له، ومن لا يغفر له ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه»^(١). وفي سنة الرسول ﷺ كثير من الأحاديث التي تدل على إكثاره ﷺ من التوبة، وفي فعله تعليم لأمته عليه الصلاة والسلام.

فعن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطيأى وعمدى وجهلى وهزلى، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير»^(٢). ووجه الدلالة من الحديث أن العبد يسأل الله التوبة والمغفرة في جميع أحواله في العمد والجهل والهزل وما فعله في السر والعلانية.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٣).

قال ابن بطال: «الأنبياء أشد الناس اجتهاداً في العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة فهم دائبون في شكره معترفون له بالتقصير».

وقال الغزالي: «كان ﷺ دائم الترقى فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة وهذا مفرع على أن العدد المذكور في استغفاره كان مفرقاً

(١) مدارج السالكين/ ابن القيم (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) أخرجه البخارى (٦٠٣٥) باب قول النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت»، ومسلم (٢٧١٩) باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

(٣) أخرجه البخارى (٥٩٤٨) باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

بحسب تعدد الأحوال».

من بركات الاستغفار والتوبة: أما فضائل التوبة وأسرارها، وبركاتها فمتعددة،

منها:

أولاً: محبة الله عز وجل للتائبين:

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

ثانياً: حصول المغفرة من الله عز وجل: قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. قال ابن كثير: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أى: كل من تاب إلى تبت عليه من أى ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بنى إسرائيل، وقوله: ﴿تَابَ﴾ أى: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق^(١).

ثالثاً: الفلاح في الدنيا والآخرة: قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

قال السعدى: فى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، لأن المؤمن يدعو إيمانه إلى التوبة، ثم علق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة وهى الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً^(٢).

رابعاً: تبديل السيئات إلى حسنات:

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

قال القرطبي: «قال النحاس: من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافر مؤمن وموضع عاصى مطيع، وقال مجاهد والضحاك: أن يبدلهم الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ذلك فى الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته، فيبدل الله السيئات حسنات. وقال القرطبي: فلا يبعد فى كرم الله تعالى إذا

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٠٨).

(٢) تفسير السعدى (١/ ٥٦٦).

صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة وقد قال ﷺ: «وأَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالَقَ النَّاسَ بِخَلْقِ حَسَنٍ»^(١). وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَخُولًا وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُوْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ: اعْرَضُوا عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتَعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكُرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تَعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنْ لَكَ مَكَانٌ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةٍ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ»^(٢).

خامساً: تكفير السيئات ودخول الجنات:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَمْنٍ مِنْهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ [التحریم: ٨].

قال السعدی - رحمه الله -: «قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح»^(٤).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي

(١) حسن: أخرجه أحمد تفسير القرطبي (١٣/ ٧٧-٧٨).

(٢) حسن: أخرجه أحمد والترمذي والدارمي، الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)، وصحيح الترغيب (٣١٦٠)، والمشكاة (٥٠٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠) باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٤) تفسير السعدی (١/ ٨٧٤).

فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ أَعْمَلَ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ» قَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: لَا أَدْرِي: أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ «أَعْمَلَ مَا شِئْتَ»^(١).

قال القرطبي: «يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان لينحل به عقد الإصرار ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة».

سادساً: منع العذاب في الدنيا: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار)^(٢).

سابعاً: الإمداد بالأموال والبنين وإنزال الغيث: قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢].

قال القرطبي - رحمه الله -: «هذه الآية دليل على أن الاستغفار يُستنزَل به الرزق والأمطار»^(٣).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: «أى إذا تبتم واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أى: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمّدكم بأموال وبنين، أى: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها)^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٨) باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٥١١-٥١٢) برقم: (١٦٠٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٣).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١). وروى ابن أبي الدنيا بسنده إلى الشعبي قال: «خرج عمر يستسقى بالناس، فما زاد على الاستغفار حتى رجع، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما نراك استسقيت! فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح»^(٢) السماء التي يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١﴾. ثم قرأ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۝١٢﴾^(٣). وجاء رجل إلى الحسن البصري يشكو إليه شدة الجذب ونقص الماء فقال له: استغفر الله.. وشكى آخر الفقر فقال له: استغفر الله.. وقال ثالث: يا أبا سعيد ادعوا الله أن يرزقني الولد فإنني عقيم، فقال له: استغفر الله.. وشكى رابع جفاف بستانه فقال له: استغفر الله.. فقال أحد الجالسين: أتاك رجالاً يشكون أنواعاً فأمرتهم جميعاً بالاستغفار، فقال الحسن رحمه الله إن الله تعالى يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾.

ثامناً: المتاع الحسن وزيادة القوة: إن من أسباب القوة ومضاعفتها كثرة الاستغفار كما قال الله تعالى عن هود عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝١٢﴾ [هود: ٣].

(١) **ضعيف:** أحمد ح (٢٢٣٤)، وأبو داود ح (١٥١٨)، وابن ماجه ح (٣٨١٩)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٧٠٦)، وضعيف أبي داود (٢٦٨)، وضعيف الجامع (٥٨٢٩).

(٢) قال ابن الأثير: «المجاديح» واحدها مجدح والياء زائدة للإشباع. والقياس أن يكون واحدها مجداح. والمجدح: نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر. فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء. وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (١/ ٢٤٣).

(٣) **حسن:** أخرجه ابن أبي الدنيا بسند حسن، وأخرجه عبد الرزاق (٤٩٠٢)، وسعيد بن منصور (٣٥٣/ ٥)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٨٥)، والبيهقي (٣/ ٣٥١) بسند جيد إلى الشعبي قال: خرج عمر يستسقى فما زاد على الاستغفار فقبل له في ذلك فذكره، قال أبو زرعة وأبو حاتم: الشعبي عن عمر مرسل. وانظر كنز العمال (٤٣١/ ٨).

وقال: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جُنُوبَكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

قال القرطبي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿يُمِيعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: يمتعكم يعمركم، وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أمتع الله بك ومتع.

وقال سهل بن عبد الله: المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق. **وقيل:** هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة.

والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه وأمر مخوف، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكرهاها، والأول أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جُنُوبَكُمْ﴾ [هود: ٥٢] وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى^(١).

فالاستغفار يزيد العبد قوة في جسده، فيتمتع بجوارحه وحواسه وعقله، وكذلك هو قوة له في طاعة ربه، فهو قوة على كل خير في العاجلة والآجلة.

تاسعاً: من ختم له بالاستغفار دخل الجنة: فعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها من النهار موقناً بها فمات قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»^(٢).

والاستغفار مشروع في كل وقت، وهناك أوقات وأحوال مخصوصة يكون

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٤٧) باب أفضل الاستغفار

للاستغفار فيها مزيد فضل، فيستحب الاستغفار بعد الفراغ من أداء العبادات؛ ليكون كفارة لما يقع فيها من خلل أو تقصير، كما شرع بعد الفراغ من الصلوات الخمس، فقد كان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة المفروضة يستغفر الله ثلاثاً؛ لأن العبد عرضة لأن يقع منه نقص في صلاته بسبب غفلة أو سهو. كما شرع الاستغفار بعد صلاة الليل، قال تعالى عن المتقين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾، وشرع الاستغفار بعد الإفاضة من عرفة والفراغ من الوقوف بها قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩]. وشرع الاستغفار في ختم المجالس فعن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا جلس مجلساً أو صلى تكلم بكلمات فسأله عن الكلمات فقال: «إن تكلم بخير كان طابعاً عليهن إلى يوم القيامة وإن تكلم بشر كان كفارة له: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»^(١).

وشرع الاستغفار في ختام العمر، وفي حالة الكبر، فقد قال تعالى لنبيه عند اقتراب أجله:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة: النصر: ١-٣]. فقد جعل الله فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، علامة على قرب نهاية أجل النبي ﷺ، وأمره عند ذلك بالاستغفار.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما: «إننا لنعد لرسول الله في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك التواب الرحيم»^(٢).

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «طوبى لمن وجد في صحيفته

(١) صحيح: أخرجه النسائي (١٣٤٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٦٤) والمشكاة (٢٤٥٠).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه، وقال حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في الصحيحة (٥٥٦)، وصحيح أبي داود (١٣٥٧) وصحيح ابن ماجه (٣٨١٤).

استغفارًا كثيرًا»^(١).

أخرجه الطبراني في الدعاء بسند حسن والبيهقي بسند لا بأس به عن الزبير أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار»^(٢).

وعن أبي هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(٣).

قال ابن الجوزي: «إن إبليس قال: أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبـ (لا إله إلا الله)، فلما رأيت ذلك بثث فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا»^(٤).

عاشراً: أن عبودية التوبة من أحبّ العبوديات إلى الله وأكرمها عليه، والله تبارك وتعالى يفرح بتوبة التائبين: قال النبي ﷺ: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً، وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومة، ثم رفع رأسه، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته؛ حتى اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه؛ فإذا راحلته عنده»^(٥). ولم يجئ هذا الفرع في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرع تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيد هذا الفرح لا يعبر عنه.

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨)، والنسائي في «عمل يوم وليلة»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠)، المشكاة (٢٣٦).

(٢) حسن: أخرجه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. وأخرجه الضياء في المختارة (٢٩٧/١)، والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد لا بأس به، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٦١٩)، وصحيح الجامع (٥٩٥٥)، وانظر الصحيحة (٢٢٩٩) ومجمع الزوائد (٣٤٧/١٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٩٤) باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، ومسلم (٧٥٨) باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه.

(٤) نضرة النعيم (٣٠١/٢).

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٤٩) باب التوبة، ومسلم (٢٧٤٤) باب في الحظ على التوبة والفرح بها.

أنها توجب للتائب آثارًا عجيبة من مقامات العبودية التي لا تحصل بدون التوبة؛ فتوجب له المحبة، والرقّة، واللفف، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه، فَرُتِّبَ له على ذلك أنواعٌ من النعم لا يهتدى العبد إلى تفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها أو يفسدها.

ومن تلك الآثار: حصولُ الذلِّ، والانكسارِ، والخضوعِ لله، وهذا أحبُّ إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة - وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة - فالذلُّ، والانكسارُ روحُ العبودية، ولُبُّها، ولأجل هذا كان الله - عز وجل - عند المنكسرة قلوبهم، وكان أقرب ما يكون من العبد وهو ساجد؛ لأنه مقامٌ ذلٌّ وانكسار، ولعل هذا هو السرُّ في استجابة دعوة المظلوم والمسافر والصائم؛ للكسرة في قلب كل واحد منهم؛ فإن لوعة المظلوم تُحْدِثُ عنده كسرةً في قلبه، وكذلك المسافر يجد في غربته كسرةً في قلبه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سَوْرَةَ النَّفْسِ السَّبْعِيَّةِ الحيوانية كما قرر ذلك ابن القيم رحمه الله^(١).



(١) انظر مدارج السالكين/ ابن القيم: (١/ ٢٩٧-٢٩٨)، وانظر دروس رمضان: للشيخ / محمد إبراهيم الحمد.

أسباب محق البركة^(١)

١- الفساد

قال الراغب: الفساد خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عليه أو كثيراً، ويستعمل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة^(٢).

وقال ابن الجوزي: والفساد تغير الشيء عما كان عليه من الصلاح، وقد يقال في الشيء مع قيام ذاته، ويقال فيه مع انتقاضها، ويقال فيه إذا بطل وزال. ويذكر الفساد في الدين كما يذكر في الذات. فتارة يكون بالعصيان، وتارة بالكفر، ويقال في الأقوال إنها فاسدة إذا كانت غير منتظمة، وفي الفعال إذا لم يعتد بها.

الفساد في الأرض:

من الفساد في الأرض ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ويكون هذا الفساد بقطع الطريق وإخافتها، وقيل: بقطع الرحم وسفك دماء المسلمين، وقد يدخل في هذا ارتكاب جميع المعاصي.

حكم الفساد أو الإفساد في الأرض: يقول ابن حجر بعد أن ذكر الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

كما ذكر الله تعالى تغليظ الإثم في قتل النفس بغير حق، والإفساد في الأرض أتبعه

(١) المَحَقُّ النقصان وذهاب البركة وشيء ما حُجِّقَ ذاهب وقد مَحَقَّ وَاَمَحَقَّ وَاَمَحَقَّ وَمَحَقَّهُ وَأَمَحَقَّهُ لُغَةً وَأَبَاهَا الْأَصْمَعِيُّ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: تَقُولُ مَحَقَّهُ اللَّهُ فَاَمَحَقَّ وَامَتَحَقَّ أَيْ ذَهَبَ خَيْرُهُ وَبَرَكَتُهُ. لِسَانَ الْعَرَبِ: (١٢/١٠).

(٢) المفردات (٣٩٧)، ونضرة النعيم (١١/٥٢٣٧).

بيان نوع من أنواع الفساد في الأرض^(١) وذكر أن عد هذا الفساد كبيرة هو ما صرح به جمع، وصرح بعضهم أنه بمجرد قطع الطريق وإخافة السبيل ترتكب الكبيرة، فكيف إذا أخذ المال، أو جرح، أو قتل، أو فعل كبائر.

من معاني كلمة الفساد في القرآن الكريم:

أحدها: المعصية. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴿١٢﴾ [البقرة: ١١-١٢].

والثاني: الهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) [الأنبياء: ٢٢].

الثالث: الخراب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) [النمل: ٣٤].

الرابع: المنكر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦) [هود: ١١٦].

الخامس: السحر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠) **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٨١﴾ [يونس: ٨٠-٨١].

قال القرطبي رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) [الروم: ٤١].

اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر، فقال قتادة والسدي: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد.

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: فساد البر قتل ابن آدم أخاه، قابيل قتل هابيل. وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا.

(١) انظر الزواجر عن اقتراف الكبائر: ابن حجر الهيتمي (ج ٢ / ٢٨٥، ٢٨٦).

وقيل: الفساد القحط وقلة النبات وذهاب البركة.

ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا.

قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية.

وعنه أيضا: أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم.

وقال عطية: فإذا قل المطر قل الغوص عنده، وأخفق الصيادون، وعميت دواب

البحر.

وقال ابن عباس: إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر، فما وقع فيها من

السماء فهو لؤلؤ.

وقيل: الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش.

وقيل: الفساد المعاصي وقطع السبيل والظلم، أى صار هذا العمل مانعا من

الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كله متقارب^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾

[الأعراف: ٥٦] قال أكثر المفسرين لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة

الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة

غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض بل فساد الأرض في

الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا

كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ **[الروم: ٤١]**، وقال عطية في الآية ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله

المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم.

وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم

وتقول: اللهم عنهم فبسببهم أجذبت الأرض وقحط المطر وبالجملية فالشرك

والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله هو أعظم الفساد

في الأرض ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا

(١) تفسير القرطبي: (١٤ / ٤٠).

لغيره والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله ومن تدبير أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموماً وخصوصاً ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.^(١) عن عبد الله بن بسر المازني، يقول: «إذا وضع السارق يده في الشيء وضع الشيطان يده مع يده فرفعت منه البركة»، فقلت: سبحان الله أرأيت إن كان لرجل كسب حلال طيب من عطاء^(٢) أو غيره فدفعه إلى أهله، فدفعه أهله إلى الخازن أو غيره يشتري لهم شيئاً، فسرق منه أترفع منه البركة لذلك؟ فقال: هكذا أبلغنا.^(٣)

قِلَّةُ الْبَرَكَاتِ وَالْآفَاتِ جَاءَتْ مِنْ كَثْرَةِ الْفُسَادِ:

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه ولم تنزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسول تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين والقحوط.

والجدوب وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها وسلب منافعها أو نقصانها أموراً متتابعة يتلو بعضها بعضاً فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٤١] **[الروم: ٤١]**، ونزل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها وأنت ترى كيف

(١) بدائع الفوائد: (٣/ ٥٢٥-٥٢٦).

(٢) العطاء: نصيب الفرد من بيت المال.

(٣) مسند الشاميين للطبراني (٢/ ٤٠٠) رقم: (١٥٧٨).

تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان وكيف يحدث من تلك الآفات آفات آخر متلازمة بعضها أخذ برقاب بعض وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياهم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم، وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم حكمًا قسطًا وقضاء عدلًا وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه قال أبو النضر: لا يخرجكم إلا فرارًا منه ^(١).

وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام وفي نظيرها عظة وعبرة وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء والقحط والجذب وجعل ظلم المساكين والبخس في المكايل والموازين وتعدى القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ولا يعطفون إن استعطفوا وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولائهم فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها فتارة بقحط وجذب وتارة بعدو وتارة بولاة جائرين وتارة بأمراض عامة وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزا لتحق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له والعقل يسير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده وينظر مواقع عدل الله وحكمته وحينئذ يتبين

(١) أخرجه البخارى (٣٢٨٦) باب حَدِيثُ الْعَارِ، ومسلم (٢٢١٨) باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.

له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون وإلى دار البوار صائرون والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره وبالله التوفيق^(١).

٢- المعاصي

معنى المعصية:

لغة: قال أبو عبيد: «وأصل العصا الاجتماع والاتلاف. ومنه قيل للخوارج: قد شقوا عصا المسلمين: أى فرقوا جماعتهم»^(٢).

وقال ابن منظور: «العصيان خلاف الطاعة، عصى العبد ربه إذا خالف أمره. وعصى فلان أميره يعصيه عصياً وعصيائاً ومعصية إذا لم يطعه فهو عاص وعصيّ»^(٣).

وشرعاً: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «المعصية هى مخالفة الأمر الشرعى، فمن خالف أمر الله الذى أرسل به رسله، وأنزل به كتبه فقد عصى»^(٤). وقيل: «المعاصى: هى ترك المأمورات، وفعل المحظورات، أو ترك ما أوجب وفُرض من كتابه أو على لسان رسول ﷺ وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله ﷺ من الأقوال والأعمال الظاهرة أو الباطنة».

إن أضرار المعاصى وشؤم الذنوب عظيمٌ وخطير، فهى موجبةٌ للذل والحرمان، جالبة للصمد عن سبيل الرحمن، تفسد القلوب، وتورث الهوان، وتوجب اللعنة من الله ومن رسوله، تزيل النعم، وتجلب النقم، وتلقى الرعب والخوف فى القلوب، تعمى البصيرة، وتسقط الكرامة، توجب القطيعة وتمحق البركة، ما لم يتب العبد منها

(١) زاد المعاد: ابن القيم (٤/٣٢٦).

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٣/٥٠) ط: دار إحياء التراث العربى - بيروت - ٢٠٠١م - تحقيق:

محمد عوض مرعب.

(٣) لسان العرب مادة: (عصى) (١٥/٦٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/٢٦٩).

ويرجع إلى الله تعالى خائفاً وجللاً تائباً طائعاً، قال ابن المبارك رحمه الله:

رَأَيْتَ الذُّنُوبَ تَمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُوْرُثُ الذِّلَّ إِدْمَانَهَا

وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرَ لِنَفْسِكَ عَصِيَانَهَا

قال مجاهد رحمه الله: في قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُوتُ﴾ ﴿١٥٩﴾ **إِنْ الْبَهَائِمُ إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمُ السَّنَةُ قَالَتْ:** هذا من أجل عصاة بني آدم لعن الله عصاة بني آدم ^(١).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنْ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءٌ فِي الْوَجْهِ، وَنُورٌ فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةٌ فِي الرِّزْقِ وَقُوَّةٌ فِي الْبَدَنِ، وَمَحَبَّةٌ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنْ لِلْسَيِّئَةِ سَوَادٌ فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَوَهْنٌ فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصٌ فِي الرِّزْقِ، وَبَغْضٌ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ». قال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «إِنْ الرَّجُلُ لِيَحْرُمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصِيبُهُ» ^(٢).

إِنْ لِلْمَعَاصِي أَيْهَا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ الْمَضْرُوبَةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، مِنْ حَرَمَانٍ لِلرِّزْقِ، وَوَحْشَةٍ يَجِدُهَا الْعَاصِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَمِنْ تَعَسَّرِ الْأُمُورِ عَلَيْهِ، وَحَرَمَانِ التَّوْفِيقِ وَالظُّلْمَةِ فِي الْقَلْبِ، وَحَرَمَانِ الطَّاعَةِ، وَنَقْصٍ فِي الْعَمْرِ، وَمَحَقٍ لِلْبَرَكَةِ، وَأَعَزَّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ نَقْصُ الْعِلْمِ وَحَرَمَانُهُ، قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سَوْءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ أَعْلَمُ: بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ وَنُورُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

فَكَمْ مِنْ حَافِظٍ لِكِتَابِ اللَّهِ أَنْسِيَهُ حِينَ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِمَعَاصِيهِ، وَكَمْ مِنْ مُجَدِّ فِي الْبَحْثِ وَالتَّدْقِيقِ حُرِّمَ بَرَكَةُ الْعِلْمِ وَالْوَقْتُ بِسَبَبِ هَنَةٍ أَوْ زَلَّةٍ..

وَتَذَكَّرُ أَنَّ الْعِلْمَ الْحَقُّ مَا أُوْرَثَ خَشْيَةً وَذُلًّا.. وَأَعْقَبَ تَعَبْدًا وَقُرْبًا..

وَمِنْ أَضْرَارِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ حَرَمَانِ الرِّزْقِ، فَكَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ مُجْلِبَةٌ لِلرِّزْقِ،

(١) الدر المنثور - السيوطي (١/ ٣٩١).

(٢) **ضعيف:** أخرجه أحمد، والنسائي وابن ماجه وابن حبان، والحاكم، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع

فالمعصية مجلبة للفقر، وقد يخالط النفوس شك من هذا، إذا نظر الناس في واقع الكثير..

فكم من العصاة بل من الكفار من بُسِطَ له في رزقه، ونُعمَ في حياته؟! وكم من العباد والعلماء من عاش حياته بين الفقر والعوز؟!..

فيقال: إنما الرزق في بركته لا كثرته. فالتأمل في حياة الفريقين على مر العصور، يجد السعادة مع البركة، وإن كان الرزق يسيرًا، والشقاء محققًا، وإن بلغ في الغنى ما بلغ..

ومنها حرمان الطاعة.. ومن المعلوم أن الطاعة تتبع أختها، والمعصية كذلك، وكلما ازداد العبد طاعة وقربًا كلما يُسر له في عمل الصالحات، وأضحت أهون عليه من كل شيء، وأحب إليه من أي شيء.

وكلما ازداد العبد معصية وبُعدًا، كلما تثاقل عن الطاعة وحرمها، وألف المعصية وأحبها، ولو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصد عن الطاعة لكان في ذلك كفاية لما فيه من الحرمان..

قال ابن القيم رحمه الله: «مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها كمثل نواة غرستها فصارت شجرة ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه وكذلك تداعى المعاصي، فليتدبر اللبيب هذا المثال». اهـ. (١).

ومنها أنها سبب لهوان العبد على ربه، عن جبير بن نفير قال: لما فتحت قبرص فرّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، فقال: «ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى» (٢).

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، ويكفى قول

(١) الفوائد/ ابن القيم: ص: (٣٥) ط: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣ م.

(٢) الجواب الكافي/ ابن القيم (ص: ٢٧).

أحكم الحاكمين ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨]. هذا وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفاً من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه. ومنها أنه ينسلخ من القلب استقباحتها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة، حتى يغدو الحديث عن المعاصي والآثام محل الافتخار والتزين -نعوذ بالله من الخذلان..

روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»^(١). ومنها أن غيره من الناس والدواب يحرمون الخير بشؤم ذنبه، عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال أبو هريرة: بلى والله حتى الحبارى لتموت في وكرها هزلاً لظلم الظالم^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم»^(٣). وقال مجاهد رحمه الله: «إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم». وقال عكرمة رحمه الله: «دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون: منعنا القطر بذنوب بنى آدم». فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له.

وقال كعب رحمه الله: «إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي، فترعد فرقاً

(١) أخرجه البخارى (٥٧٢١) باب ستر المؤمن على نفسه، ومسلم (٢٩٩٠) باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٧٤٧٩).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد والترمذى وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى في الصحيحة (٢٦١٨)، والمشكاة (٢٥٧٧).

من الرب جل جلاله أن يطلع عليها». ومنها: أن المعصية تورث الذل، فإن العز كل العز في طاعة الله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

قال ابن القيم رحمه الله: أى فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزنى بطاعتك، ولا تذلى بمعصيتك ^(١).

قال الحسن البصري رحمه الله: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

ومنها: وهى من أعظمها، أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال بعض السلف: هو الذنب بعد الذنب.

قال ابن القيم رحمه الله: وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رائئاً، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد ^(٢).

ومنها: أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، ولقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك» ^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. أى أنساه مصالح نفسه وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها، وسرورها ونعيمها.. فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من

(١) الجواب الكافي/ ابن القيم: (ص: ٣٨).

(٢) المرجع السابق (ص: ٣٩).

(٣) **حسن:** أخرجه النسائي والبخاري بإسناد صحيح والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، وحسنه الألبانى في الصحيحة (٢٢٧)، وانظر صحيح الترغيب (٦٦١) من حديث أنس بن مالك. ومعنى تكلنى: تتركنى.

عظمته وخوفه، والقيام بأمره.. فترى العاصي مهماً مصالح نفسه مضيئاً لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطاً، قد فرط في سعادته الأبدية وحياته السرمدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة..

أحلام نوم، أو كطل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع فالله سبحانه يعوض من كل شيء سواه، ولا يعوض منه شيء، ويعني عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء..

وكيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين، وكيف ينسى ذكره، ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم ظلم، فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسه..

ومنها: أنها تزيل النعم وتحل النقم، قال على رضي الله عنه: (ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة) قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وما منع قطر السماء، ولا غابت بركة الأرض إلا لسبب ذنوب العباد، وما حلت الهموم والغموم، والأكدار والأحزان إلا بذنوب العباد، فالذنوب هي أساس البلاء وأصل الوباء.

ومنها: بغض الخلق له وخاصة أهل الصلاح والديانة..

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٧) باب ذكر الملائكة، ومسلم (٢٦٣٧) باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (ليحذر امرؤ أن تلعه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، إن العبد يخلو بمعاصي الله فيُلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر).

ومن عقوباتها: أنها تجرئ على العبد ما لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات فتجرئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغريب حتى تؤزه إلى المعصية أژًا، وتجرئ عليه شياطين الإنس بما تقدر من الأذى في غيبته وحضوره، وتجرئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم..

قال بعض السلف: إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق امرأتى ودابتى ^(١).

ومن أعظم آثار الذنوب وأضرارها أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن العبد العاصي إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانته قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له..

فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله والإنابة إليه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فإن دعا أو ذكر فبقلب غافل ساهٍ، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة لم تنقد له ولم تطاوعه، كمن له جند تدفع عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أقواتهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

والأعظم من هذا والأنكى، والأمر والأدهى، أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تبارك وتعالى، فيتلعثم لسانه، ويعجم بيانه عن أن ينطق بكلمة التوحيد وشهادة الحق..

ولا غرابة في ذلك.. ألم يكن في حال حضور ذهنه وقوته، وكمال إدراكه قد أسلم الزمام لشیطانة فاستعمله بما يريد، وقاده إلى حيث شاء، فأنتى للخلاص من سبيل حينئذٍ..

ومنتهى الحسرة حين يخذل المرء في عرصات القيامة ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤]،

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥) [الأنعام: ١٥].

وفي البخارى من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى»، قيل: يا رسول الله.. ومن يأبى؟ قال: «من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى»^(١).

أضرار المعاصي: قال ابن القيم - رحمه الله - فى الجواب الكافى^(٢): مما ينبغى أن يُعلم أن الذنوب والمعاصى تضر، ولا بدّ أن ضررها فى القلب كضرر السموم فى الأبدان، على اختلاف درجاتها فى الضرر، وهل فى الدنيا والآخرة شر وداءٌ إلا بسبب الذنوب والمعاصى؟

فما الذى أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعمة والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسح ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح صورة وأشنع، وبُدل بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفرًا؟

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟.

وما الذى سلّط الريح على قوم عادٍ حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودّمرت ما مرّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابّهم حتى صاروا عبرةً للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟.

وما الذى رفع اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم أجمعين؟

(١) أخرجه البخارى (٦٨٥١) باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٢) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى (الداء والدواء) لابن القيم (ص: ٢٦-٢٧) دار الكتب العلمية - بيروت.

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، والأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا؟

وما الذى أهلك قوم صاحب قصة سورة يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذى بعث على بنى إسرائيل قومًا أولى بأسٍ شديد، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبرّوا ما علو تبتيرًا. اهـ.

وقال ابن القيم: ومن عقوبتها (أى المعاصى) أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله وما محت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُّوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا﴾ [البجن: ١٦] وأن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه وفى الحديث أن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته^(١).

وأخرج الإمام أحمد فى كتاب الزهد هذا الأثر قال الرب تبارك وتعالى فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل: إني إذا اطعت رضيت وإذا باركت وليس لبركتي

(١) صحيح: أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث والقضاعى فى مسند الشهاب بسند صحيح وأخرجه الحاكم، أخرجه ابن حبان والحاكم وأبو عبد الرزاق وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٨٦٦)، وانظر تخريج مشكلة الفقر (١٩ / ١) رقم: (١٥).

منتهى وإذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد^(١). وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه. وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره بل فحياة البهائم خير من حياته فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبه وعبادته وحده أو الإنابة إليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض به الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة فمن كل شيء يفوت العبد عوض وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات والعاجز بالذات عن القادر بالذات والميت عن الحي الذي لا يموت والمخلوق عن الخالق ومن لا وجود له فلا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحواله على هذا الديون وأهله وأصحابه وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته محوقة ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما في مقارنة اسم الله من البركة وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة فإن الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه وكل ما نسب إليه مبارك فكلامه مبارك ورسوله مبارك وعبد المؤمن النافع لخلقه مبارك وبيته الحرام مبارك وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه فلا مبارك إلا هو وحده ولا مبارك إلا ما نسب إليه أعنى إلى محبته وألوهيته ورضاه وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه وكلما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه وكلما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على قدر قربته منه وضد البركة اللعنة فأرض لعنها الله أو

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص: (٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤ / ٤١ - ٤٢).

شخص لعنه الله أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة وكلما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل فكل وقت عصيت الله فيه أو مال عصي الله به أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها وهكذا الجاه والعلم وفي الترمذي عنه: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه أو عالم أو متعلم» وفي أثر آخر: «ملعون ما فيها إلا ما كان لله» هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان^(١).

٣- أكل الحرام

قال الله تعالى: ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلْسُخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [البقرة: ٤٢].

أكالون للسخة.. والسحت كل مال حرام.. والربا والرشوة وثمان الكلمة والفتوى! في مقدمة ما كانوا يأكلون، وفي مقدمة ما تأكله المجتمعات التي تنحرف عن منهج الله في كل زمان!

وسمى الحرام سحتاً لأنه يقطع البركة ويمحقها. وما أشد انقطاع البركة وزوالها من المجتمعات المنحرفة. كما نرى ذلك بأعيننا في كل مجتمع شارد عن منهج الله وشرعية الله^(٢).

(١) انظر الجواب الكافي (١/ ٥٦-٥٧).

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب (٢/ ٨٩٣).

إن من لا يخاف الله لا يبالي من أين اكتسب المال وفيما أنفقه بل يكون همه زيادة رصيده ولو كان سحتاً وحراماً من سرقة أو رشوة أو غصب أو تزوير أو بيع محرم أو مراباة أو أكل مال يتيماً أو أجره على عمل محرم ككهانة وفاحشة وغناء أو اعتداء على بيت مال المسلمين والممتلكات العامة أو أخذ مال الغير بالإحراج أو سؤال بغير حاجة ونحو ذلك ثم هو يأكل منه ويلبس ويركب ويبنى بيتاً أو يستأجره ويؤثته ويدخل الحرام بطنه وقد قال النبي ﷺ: « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به... »^(١).

وسيُسأل يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وهنالك الهلاك والخسار فعلى من بقى لديه مال حرام أن يسارع بالتخلص منه وإن كان حقاً لآدمي فليسارع بإرجاعه إليه مع طلب السماح قبل أن يأتي يوم لا يتقاضى فيه بالدينار ولا بالدرهم ولكن بالحسنات والسيئات.

فليس كثرة المال عند بعض الناس دليلاً على برسته، بل قد يكون شقاء على صاحبه، وكم سمعنا عن من ملك المال والقصور يعيش في تعاسة وهموم، وقد قال ﷺ: « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يجب فإنها هو استدراج ».

ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]^(٢).

فالواجب على المرء أن يقي نفسه وأهله أكل الحرام المؤدى إلى دخول النار:

قال الله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَثُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

عن ابن عباس: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٩).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر ؓ. وصححه الألباني في صحيح الجامع

الله، ومُروا أهليكم بالذكر، ينجيكم الله من النار^(١).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

قال ابن كثير: «يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة»^(٢).

وقد جاء في الإسرائيليات وذكره ابن دينار «أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلَاءٌ فَخَرَجُوا مَخْرَجًا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَبِيِّهِمْ أَنْ أَخْبِرْهُمْ أَنْكُمْ تَخْرُجُونَ إِلَى الصَّعِيدِ بِأَبْدَانٍ نَجَسَةٍ، وَتَرْفَعُونَ إِلَى أَكْفًا قَدْ سَفَكْتُمْ بِهَا الدَّمَاءَ، وَمَلَأْتُمْ بِهَا بُيُوتَكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، الْآنَ اشْتَدَّ غَضَبِي عَلَيْكُمْ، وَلَنْ تَزْدَادُوا مِنِّي إِلَّا بُعْدًا».

والله لو لم يكن في أكل الحرام إلا أنه لا ترفع لصاحبه دعوة لكفى بذلك زاجرًا عنه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يرى أحدكم فلوه أو فصيله»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر

(١) تفسير الطبري (٤٩١ / ٢٣) وتفسير ابن كثير (١٦٧ / ٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٨٠ / ١).

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٤) وفي رواية له: «لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها بيمينه فيربها كما يرى أحدكم فلوه أو قلوصه، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم». (فلوه أو قلوصه): وهى الناقة الفتية. شرح النووي (٩٩ / ٧).

الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ^(١).
فقد أشار النبي ﷺ إلى أن التمتع بالحرام أكلاً، وشرباً، ولبساً، وتغذية أعظم مانع من قبول الدعاء.

قال ابن رجب: «المراد أنه تعالى لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيباً حلالاً، وقد قيل: إن المراد في هذا الحديث أعم من ذلك وهو أنه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها كالرياء والعجب ولا من الأموال إلا ما كان طيباً حلالاً، وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله.

قال النووي: «فيه الحث على الإنفاق من الحلال والنهي عن الإنفاق من غيره، وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره» ^(٢).

قال القرطبي: «وإنما لا يقبل الله الصدقة من المال الحرام لأنه غير مملوك من المتصدق، وهو ممنوع من التصرف فيه، فلو قبلت منه لزم أن يكون مأموراً به منهياً عنه من وجه واحد وهو محال، لأن أكل الحرام يفسد القلوب فتحرم الرقة والإخلاص فلا تقبل الأعمال».

وقال الحافظ ابن حجر: «ومعنى الكسب المكسوب، والمراد به ما هو أعم من تعاطي التكسب أو حصول المكسوب بغير تعاط كال ميراث، وكأنه ذكر الكسب، لكونه الغالب في تحصيل المال، والمراد بالطيب: الحلال لأنه صفة الكسب» ^(٣).

وقد حذر النبي ﷺ من أكل الحرام بقوله: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٠/٧).

(٣) فتح الباري (٢٧٩/٣).

به»، ولهذا عندما رأى رسولنا الحسن يرفع ثمرة من تمر الصدقة المحرمة على رسول الله وآله إلى فيه، قال له: «كخ كخ» حتى رماها.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخَذَ ثَمَرَةً مِنْ تَمَرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْمِ بِهَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» ^(١).

وها هو أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه ما كان ليأكل إلا حلالاً وكان أحياناً يسأل إذا شك في الطعام، وجاءه غلامه يوماً من الأيام فقدم له طعاماً فأكل منه لقمتين فقال الغلام لم تسألني اليوم يا أبا بكر إن هذا من كهانة كنت قد تكهنتها في الجاهلية فصادفني صاحبها فأعطاني هذا الطعام فعلم أنه طعام محرم فوضع إصبعيه في فمه يريد أن يخرج كادته روحه أن يخرج وما خرج هذا الطعام قالوا: يا أبا بكر رحمك الله تقتل نفسك للقمتين لا تعلم أنها محرمة عفا الله عنك، إن كنت تريد إخراجها فاشرب ماء فاشرب ماء ثم أدخل يده مرة أخرى كادت روحه أن يخرج وخرجت اللقمتين قالوا: عفا الله عنك قال: والله لو لم تخرج إلا وروحي معها لأخرجتها.

إن امرأة من السلف يوم يخرج زوجها في الصباح تقول له: اتق الله ولا تطعمنا إلا حلالاً، فإننا نصبر على الجوع، لكننا لا نصبر على النار. إن لأكل الحلال أثراً عجيبيّاً على القلب وراحته وسعادته. إن لأكل الحلال أثراً كبيراً على صلاح الأولاد وبرهم بآبائهم.

بل إن لأكل الحلال أثراً كبيراً على سعة الرزق ونماء المال. ^(٢).

فكم من المحرومين بسبب المعاصي والذنوب؟ نسأل الله العفو والعافية.



(١) أخرجه البخاري (١٤٢٠) باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ وآله، ومسلم (١٠٦٩) باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم. واللفظ له.

(٢) راجع المحرومون د/ إبراهيم الدويش.

٤- أخذ الرشوة وإعطاؤها

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾

[البقرة: ١٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَلُونَ لِلشُّحِّ﴾ [المائدة: ٤٢].

قَالَ الْحَسَنُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، فِي تَفْسِيرِهِ: هُوَ الرِّشْوَةُ.

قال ابن حجر العسقلاني: الرشوة: بضم الراء وكسرهما ويجوز الفتح وهى ما يؤخذ بغير عوض ويعاب أخذه، وقال ابن العربى: الرشوة كل مال دفع يبتاع به من ذى جاه عوناً على ما لا يحل، والمرتشى قابضه، والراشى معطيه، والرائش الواسطة^(١).

قال الأمير الصنعاني: والراشى هو الذى يبذل المال ليتوصل به إلى الباطل، مأخوذ من الرشا وهو الحبل الذى يتوصل به إلى الماء فى البئر^(٢).

وقال أيضاً: وفى النهاية لابن الأثير قال: الراشى من يعطى الذى يعينه على الباطل، والمرتشى الآخذ، والرائش هو الذى يمشى بينهما، وهو السفير بين الدافع والآخذ على سفارته أجراً، فإن أخذ فهو أبلغ أى: بالاثم والحرمة^(٣).

قال العلماء: فالراشى هو الذى يعطى الرشوة والمرتشى هو الذى يأخذ الرشوة وإنما تلحق اللعنة الراشى إذا قصد بها أذية مسلم أو ينال بها ما لا يستحق، أما إذا أعطى ليتوصل إلى حق له ويدفع عن نفسه ظلماً فإنه غير داخل فى اللعنة.

كما قال ابن حزم فى «المحلى»: الرشوة هى ما أعطاه المرء ليحكم له بباطل أو ليولى ولاية أو ليظلم له إنسان فهذا يأثم المعطى والآخذ فأما من منع من حقه فأعطى ليدفع عن نفسه الظلم فذلك مباح للمعطى وأما الآخذ فآثم^(٤).

وأما الحاكم فالرشوة عليه حرام أبطل بها حقاً أو دفع بها ظلماً. وقد روى فى

(١) فتح البارى: ابن حجر (٥/ ٢٢١).

(٢) سبل السلام (٢/ ٤٣).

(٣) سبل السلام (٤/ ١٢٤).

(٤) المحلى بالآثار: ابن حزم (٩/ ١٥٨).

حديث آخر: إن اللعنة على الرائش أيضًا وهو الساعى بينهما وهو تابع للراشى في قصده خيرًا لم تلحقه اللعنة وإلا لحقته^(١)

قال القرضاوى في كتابه الحلال والحرام: ومن أكل أموال الناس بالباطل أخذ الرشوة، وهى ما يدفع من مال إلى ذى سلطان أو وظيفة عامة ليحكم له أو على خصمه بما يريد هو أو ينجز له عملاً أو يؤخر لغريمه عملاً، وهلم جرا^(٢).

أدلة تحريم الرشوة:

فالرشوة كسب خيىث وأكلٌ لأموال الناس بالباطل وإعانة على الظلم والعدوان وهدر لكرامة الإنسان لما يترتب عليها من ضياع الحقوق وفساد المجتمعات، وقد تواعد رسول الله ﷺ أكلة الرشوة والمتعاملين بها بالطرد والإبعاد عن مظان الرحمة كما جاءت الأحاديث مصرحة بذلك. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ الراشى والمرتشى»^(٣). وعن ثوبان رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ الراشى والمرتشى والرئاش: يعنى الذى يمشى بينهما»^(٤).

حكم هدايا العمال والحكام وعامة الناس:

أ - فقد وردت أحاديث صحيحة بحرمة هدية الحاكم من قضاة ومسؤولين وغيرهم واعتبرت من الرشوة التى صرح النبى ﷺ بحرمتها وأكل أموال الناس بالباطل وخصوصاً إذا كان هناك مصلحة للمهدى عند المهدى إليه، وبالأدلة الشرعية على حرمتها يتضح ذلك.

ب - وهناك من أباح هدية الحاكم لدفع ظلم أو تحقيق حقٍّ كما سيأتى.

(١) الكبائر - الذهبي: (١٣١) ط. دار الندوة الجديدة - بيروت.

(٢) الحلال والحرام: د/ يوسف القرضاوى ص: (٢٤).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه ولفظه قال رسول الله ﷺ:

«لعنة الله على الراشى والمرتشى» وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وصححه

الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٣٣٦)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢٣١٣).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد والبيهقى فى «شعب الإيمان»، وصححه الألبانى فى المشكاة (٣٧٥٥).

ت - وهناك من أباح للمُهدى للحصول على حقه وحرّم على الآخذ - أى: المهدى إليه -، والحق في ذلك أن الأحاديث الصحيحة تفيد الحرمة على الجميع: المهدى والمهدى إليه للأدلة الصريحة في التحريم والتحذير من ذلك: فعن أبي حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل النبي رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية - على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلى، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإنني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلى، أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة، فلا أعرفنّ أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى روى بياض إبطيه فقال: اللهم هل بلغت» ^(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ومن شفع لأخيه شفاعاً فأهدى له هدية فقد أتى باباً عظيماً من الربا» ^(٢). وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعاً: «هدايا العمال حرام كلها» ^(٣).

وعن أبي حميد الساعدي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هدايا العمال غلول» ^(٤).

أقوال العلماء في هدايا العمال وغيرهم:

١ - جمهور علماء الإسلام لا يجيزون هدايا الحكام ولا العمال للأدلة المتقدمة؛ لما في ذلك من أكل أموال الناس بالباطل واعتبروها من السحت وإعانة على الظلم لما يترتب على ذلك من محاباة المُهدى بسبب هديته.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٨) باب احتيال العامل ليهدي له، ومسلم (١٨٣٢) باب تحريم هدايا العمال.
(٢) حسن: أخرجه أحمد (٢١٢٢١)، وأبو داود (٣٥٤١)، والطبراني في الكبير (٧٨٥٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣١٦)، والمشكاة (٣٧٥٧)، وصحيح الترغيب (٢٦٢٤)، والصحيحة (٣٤٦٥).

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد وفي إسناده مقال، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٠٩١).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٢١).

٢- وهناك من جعله في درجة الكفر، ولعل هذا القول فيه مغالاة، وسيأتى بيانه في موضعه. ولربما كان مقصدهم الكفر العملى لا الاعتقادى. والله أعلم.

٣- وهناك من أجاز هدية الحاكم من باب المكافأة، والإثم على الحاكم لا على المهدى إذا كان لا يتوصل إلى حقه إلا بالهدية.

ونقل ابن حجر العسقلانى قول فرات بن مسلم فى هذا الموضوع فى فتح البارى. قال رحمه الله: إن لم يكن المهدى له حاكماً والإعانة لدفع مظلمة أو إيصال حق فهو جائز ولكن يستحب له ترك الأخذ، وإن كان حاكماً فهو حرام^(١). اهـ. ملخصاً.

أقوال علماء الإسلام في هذه المسألة:

قال ابن قدامة فى المغنى: فأما الرشوة فى الحكم ورشوة العامل فحرام بلا خلاف، قال الله تعالى: ﴿ أَكَلُوا لِمَا سُحَّتْ ﴾ [المائدة: ٤٢].

قال الحسن البصرى وسعيد بن جبیر فى تفسيره: هو الرشوة، وقال: إذا قبل القاضى الرشوة بلغت به إلى الكفر، إلى أن قال: ولأن المرتشى إنما يرتشى ليحكم بغير الحق أو ليوقف الحكم عنه، وذلك من أعظم الظلم.

ثم قال ابن قدامة^(٢): قال مسروق: سألت ابن مسعود عن السحت، أهو الرشوة فى الحكم؟ قال: لا، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] - ﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] - ﴿ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧] ولكن السحت أن يستعينك الرجل على مظلمة فيهدى لك، فلا تقبل.

وقال قتادة: قال كعب: الرشوة تسفه الحليم وتعمى عين الحكيم - إلى أن قال ابن قدامة -:

فأما الراشى؛ فإن رشاه ليحكم له بباطل أو يدفع عنه حقاً فهو ملعون، وإن رشاه ليدفع عنه مظلمة ويجزيه على واجبه؛ فقد قال عطاء وجابر بن زيد والحسن: لا بأس أن يصانع على نفسه.

(١) فتح البارى (٥/ ٢٢١).

(٢) المغنى لابن قدامة: (١١/ ٤٣٧).

قال الشوكاني في نيل الأوطار^(١): قال ابن رسلان في شرح السنن: ويدخل في إطلاق الرشوة الرشوة للحاكم والعامل على أخذ الصدقات، وهى حرام بالإجماع. وقال الشوكاني أيضًا: قال المنصور بالله وأبو جعفر وبعض أصحاب الشافعى: وإن طلب بذلك حقًا مجمعًا عليه جاز. قيل: وظاهر المذهب المنع لعموم الخبر.

وقال الأمير الصنعاني^(٢): في كتابه سبل الإسلام والرشوة حرام بالإجماع سواء كانت للقاضى أو للعامل على الصدقة أو لغيرهما، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ثم قال: وحاصل ما يأخذه القضاة من الأموال على أربعة أقسام:

الأول: الرشوة: إن كانت ليحكم له الحاكم بغير حق فهى حرام على الآخذ والمعطى. وإن كانت ليحكم له بالحق على غريمه فهى حرام على الحاكم دون المعطى لأنها لاستيفاء حقه. وقيل: تحرم لأنها توقع الحاكم فى الإثم.

الثانى: الهدية: فإن كانت ممن يهاديه قبل الولاية فلا تحرم استدامتها، وإن كان لا يهدى إليه إلا بعد الولاية، فإن كانت ممن لا خصومة بينه وبين أحد عنده جازت وكرهت، وإن كانت ممن بينه وبين غريمه خصومة عنده فهى حرام على الحاكم والمهدى.

الثالث والرابع: الأجرة: وأما الأجرة فإن كان للحاكم جراية من بيت المال ورزق حرمت بالاتفاق يعنى حرمت الهدية للحاكم بالاتفاق لأنه إنما أجرى له الرزق لأجل الاشتغال بالحكم فلا وجه للأجرة، وإن كانت لا جراية له من بيت المال جاز له الأجرة على قدر عمله غير حاكم، فإن أخذ أكثر مما يستحقه حرم عليه؛ لأنه إنما يعطى الأجرة لكونه عمل عملاً لا لأجل كونه حاكماً، ولا يستحق لأجل كونه حاكماً شيئاً من أموال الناس اتفاقاً. فأجرة العمل مثله وأخذ الزيادة على أجرة مثله حرام.

(١) نيل الأوطار للشوكاني (٨/ ٢٦٨).

(٢) سبل السلام (٤/ ١٢٤).

لذا قيل: إن تولية القضاء لمن كان غنياً أولى من تولية من كان فقيراً، وذلك لأنه لفقره يصير متعرضاً إلى ما لا يجوز له تناوله إذا لم يكن له رزق من بيت المال.

قال القرضاوى فى كتابه الحلال والحرام: وقد حرم الإسلام على المسلم أن يسلك طريق الرشوة للحكام وأعوانهم، كما حرم على هؤلاء أن يقبلوها إذا بذلت لهم، كما حظر على غيرهم أن يتوسطوا بين الآخذين والدافعين - ثم ساق الأدلة على تحريم ذلك - ثم قال: والإسلام يحرم الرشوة فى أى صورة كانت وبأى اسم سميت، فتسميتها باسم الهدية لا يخرجها من دائرة الحرام إلى الحلال^(١).

الرشوة لرفع الظلم:

ثم قال القرضاوى فى كتابه المذكور^(٢): ومن كان له حق مضى لم يجد طريقة للوصول إليه إلا بالرشوة، أو دفع ظلم لم يستطع دفعه عنه إلا بالرشوة، فالأفضل له أن يصبر حتى ييسر الله له أفضل السبل لرفع الظلم ونيل الحق، فإن سلك سبيل الرشوة من أجل ذلك فالإثم على الآخذ المرتشى وليس عليه إثم الراشئ. وهذه الحالة مادام قد جرب كل الوسائل فلم تأت بجدوى، ومادام يرفع عن نفسه ظلماً أو يأخذ حقاً له دون عدوان على حقوق الآخرين.

ثم قال: وقد استدل بعض العلماء على ذلك بأحاديث الملحّين الذين كانوا يسألون النبى من الصدقة فيعطيههم وهم لا يستحقون، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن أحدكم ليخرج بصدقته من عندى متأبطها - أى يحملها تحت إبطه - وإنما هى له نار»، قال عمر: يا رسول الله كيف تعطيه وقد علمت أنها له نار؟ قال: «فما أصنع؟ يابون إلا مسألتي، ويأبى الله عز وجل لى البخل»^(٣).

وقال القرضاوى معقّباً على ذلك: فإذا كان ضغط الإلحاح جعل الرسول يعطى

(١) الحلال والحرام ص (٢٤).

(٢) المرجع السابق (٢٤١).

(٣) صحيح: أخرجه أبو يعلى بإسناد جيد وروى عن أحمد نحوه ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٨١٥)، (٨٤٤).

السائل ما يعلم أنه نار على أخذه، فكيف يكون ضغط الحاجة على دفع ظلم أو أخذ حق مهدور؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الفتاوى: قال رحمه الله رحمة واسعة^(١): ولهذا قال العلماء يجوز رشوة العامل لدفع الظلم، لا لمنع الحق، وإرشاؤه حرام فيهما، وكذلك الأسير والعبد المعتقد إذا أنكر سيده عتقه له أن يفتدى نفسه بمال يبذله، ويجوز له بذله وإن لم يجز للمستولى عليه بغير حق أخذه.

حكم هدية غير الحكام والعمال:

- ١ - أما هدية غير الحكام والعمال فإذا توصل بها إلى تحقيق ظلم أو إبطال حق فلا خلاف بين علماء الإسلام على أنها حرام.
- ٢ - وأما إذا لم يتوصل بها إلى تحقيق ظلم أو إبطال حق وإنما قصد بها منفعة للمهدى إليه فهي جائزة ومشروعة.
- ٣ - وهناك من أجاز للمهدى أن يتوصل إلى حقه ومنعها على المهدى إليه - واستدل المانعون بعموم النصوص الواردة بتحريم أكل أموال الناس بالباطل وبغير حق ومن غير طيب نفس. فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من شفع لأخيه شفاعاً فأهدى له هدية فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا»^(٢).
- وقال الأمير الصنعاني^(٣):** وفيه دليل على تحريم الهدية في مقابلة الشفاعه، وظاهره سواء كان قاصداً لذلك عند الشفاعه أو غير قاصد.
- وقال الصنعاني^(٤):** والرشوة حرام بالإجماع، سواء كانت للقاضي أو العامل على الصدقة أو لغيرهما.

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/٢٥٨).

(٢) تقدم.

(٣) سبل السلام (٣/٤٢).

(٤) سبل السلام (٤/١٤).

خلاصة القول في المسألة^(١):

والظاهر من الأدلة الصريحة أن الرشوة حرام بجميع ضروبها وأشكالها وألوانها إذا كان يتوصل بها إلى إبطال حق أو إقرار ظلم لما يترتب على ذلك من المفساد والأضرار وهذا حرام شرعاً.

والإسلام راعى أن درء المفساد مقدم على جلب المصالح، والتسامح بجواز الرشوة يعود الناس على أكل الحرام وعدم الشعور بالمسؤولية لما يترتب على ذلك من تعطيل مصالح المسلمين

وتأخير أعمالهم وعدم إنجازها إلا بالرشوة - فتتعدم الثقة بين الناس وتقل أواصر المودة والمحبة بينهم، وهذا مما حذر منه القرآن الكريم ونهى عنه النبي الأمين صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البائدة: ٢].

وفي الحديث الشريف عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٢)

ولاشك أن الرشوة قتل لروح التعاون بين المسلمين وهدر لكرامة المؤمنين. ومن عود نفسه على أخذ الرشوة وأكلها فقد سنّ في الإسلام سنة سيئة، عليه إثمها وإثم من استنّ به وقلده بهذا الجرم. فالمؤمن يترفع عن ذلك ويرضى بالكسب الحلال الذي رغب فيه الإسلام.

قال القرضاوى^(٣): ولا غرابة في تحريم الإسلام للرشوة وتشديده على كل من اشترك فيها، فإن شيوعها في مجتمع شيوع للفساد والظلم، من حكم بغير الحق أو

(١) راجع حكم الرشوة في الكتاب والسنة - يوسف البرقاوى.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار.

(٣) الحلال والحرام ص (٢٤).

امتناع عن الحكم بالحق، وتقديم من يستحق التأخير، وتأخير من يستحق التقديم، وشيوع روح النفعية في المجتمع لا روح الواجب. ١.هـ.

والحق أن الإسلام حرم على المسلم كل فعل أو قول أو واسطة تساعد على الباطل أو يتوصل بها إلى الحرام، كأكل الربا ومعطى الربا وكاتب المعاملة بينهما والشاهد عليها واعتبر الإسلام الجميع في الجرم سواء.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: «هم سواء» ^(١).

فالحديث الشريف شمل الجميع بالإثم لأن عملية الربا تقوم على أربعة أركان لا تتم إلا بهذه الأركان الأربعة، فكل ركن ساعد على الظلم وأعان على الباطل، فدخل في غضب الله ووعيده. وهذا ما يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وكذا الحال في الرشوة، فكل من أعان على ترويجها بين الأفراد وفي المجتمعات فهو على خطر عظيم، دخل في الوعيد الشديد.

فليحذر المؤمن من المروجين للباطل والمزينين للحرام، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الصحيح: «إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه..» ^(٢).



(١) أخرجه مسلم (١٥٩٨) باب لعن آكل الربا ومؤكله.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢) باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم (١٥٩٩) باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

٥- أكل الربّا

الربّا يمحَق البركة: قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَاَ^(١) وَيُزِيهِ الصَّدَقَتِ^(٢) وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ^(٣)﴾ [البقرة: ٢٧٦] قال ابن كثير: يخبر الله تعالى أنه يمحَق الربّا، أى: يذهب، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ^(٤)﴾ [المائدة: ١٠٠] (٣).

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ قَالَ: ذَاكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَاَ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلَهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمَعْنَى أَنَّ أَمْرَهُ يُثَوِّلُ إِلَى قِلَّةٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَالَ « مَا كَانَ مِنْ رَبَّا وَإِنْ زَادَ حَتَّى يَغِبُطَ صَاحِبُهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَمْحَقُهُ » وَأَصْلُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ ابْنِ مَاجَهَ وَأَحْمَدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مَرْفُوعًا « إِنَّ الرِّبَاَ وَإِنْ كَثُرَ عَاقِبَتُهُ إِلَى قُلٍّ^(٤) ». وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ: سَمِعْنَا أَنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَى صَاحِبِ الرِّبَاَ أَرْبَعُونَ سَنَةً حَتَّى يُمْحَقَ^(٥) (٥).

لنعلم -أيها الإخوة- أن جميع المعاصي محاربة لله تعالى، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله: [ابن آدم! هل بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله فقد حاربه، لكن كلما كان الذنب أقبح كان أشد محاربة لله] ولهذا سُمي الله أكلة الربّا وقطاع الطريق محاربين لله ولرسوله؛ لعظيم ظلمهم للعباد، وسعيهم بالفساد في البلاد. وكذلك معاداة أولياء الله تعالى، قيل: إن أكل الربّا يعطى يوم القيامة سيفًا أو

(١) المحق: النقص والذهاب، ومنه محاق القمر وهو انتقاصه.

(٢) (ويربى الصدقات): أى ينميها في الدنيا بالبركة ويكثر ثوابها بالتضعيف في الآخرة.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٧١٣).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد وفي لفظ له قال الربّا وإن كثر فإن عاقبته إلى قل وقال فيه أيضا صحيح الإسناد وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٣٥٤٢)، وصحيح الترغيب (١٨٦٣).

(٥) فتح البارى (٤/ ٣١٥).

رمحًا ويقال له: حارب ودافع، والله تعالى يحاربه، فكيف وأتى تكون له الغلبة؟! **ولذلك قال الله في أكلة الربا: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَقْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٧٩]** فإن لم تتركوا أكل الربا. ﴿فَإِذْنُوا يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩] حرب الله عليهم ما يصيبهم به من الآفات وأنواع الانتقام، ولذلك قال النبي ﷺ: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قل» أى: يصبح في النهاية قليلًا منزوع البركة، تذهب الأموال من حيث لا يدري صاحبها، وآكل الربا لا يبارك له في ماله، فسرعان ما يذهب ويضمحل، والحرب من رسول الله ﷺ في الدنيا بما يقام عليه من التعزير والتنكيل، ومن خلفاء النبي ﷺ في الدنيا وأهل الصلاح من الحكام الذين يحاربون أكلة الربا، ﴿فَإِذْنُوا يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. وهذا كاف في بيان شناعة هذه الجريمة عند الله عز وجل.

وإيجاد الطبقة في المجتمع من جعل الأموال الطائلة تتركز في أيدي قلة من الناس ولعل هذا شيء من صور الحرب التي توعد الله بها المتعاملين بالربا. وكل من يشارك في الربا من الأطراف الأساسية والوسطاء والمعينين المساعدين ملعونون على لسان محمد ﷺ فعن جابر رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ: «آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه» وقال: «هم سواء» (١).

وبناء عليه لا يجوز العمل في كتابة الربا ولا في تقييده وضبطه ولا في استلامه وتسليمه ولا في إيداعه ولا في حراسته وعلى وجه العموم تحرم المشاركة فيه والإعانة عليه بأى وجه من الوجوه. ولقد حرص النبي ﷺ على تبيان قبح هذه الكبيرة فيما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٧) باب لعن آكل الربا ومؤكله. ولكن أهل الفتنة في زماننا، يحاولون أن يهونوا على الناس أمر الربا، وقد عظمه الله وقبحه، وأذن العامل به بحرب من الله ورسوله، في الدنيا والآخرة، ومن أضل ممن يهون على الناس حرب ربه يوم يقوم الناس لرب العالمين. فاللهم اهدنا ولا تقتنا كما فتنت رجلاً قبلنا، وثبتنا على دينك الحق، وأعاذنا من شر أنفسنا في هذه الأيام التي بقيت لنا، وهى الفانية وإن طالت، وصدق رسول الله أبى هو وأمى إذ قال: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا». قيل له: الناس كلهم؟! قال: «من لم يأكله ناله من غباره». (سنن البيهقي ٥: ٢٧٥)، فاللهم انفض عنا وعن قومنا غبار هذا العذاب الموبق. انظر حاشية تفسير الطبرى (١٢/٦).

ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم» ^(١)، وبقوله فيما جاء عن عبد الله بن حنظلة رضي الله عنه مرفوعاً: « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية » ^(٢).

وتحريم الربا عام لم يخص بما كان بين غنى وفقير كما يظنه بعض الناس بل هو عام في كل حال وشخص وكم من الأغنياء وكبار التجار قد أفلسوا بسببه والواقع يشهد بذلك وأقل ما فيه محق بركة المال وإن كان كثيرا في العدد قال النبي ﷺ: « الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل » ^(٣). ومعنى قل أى نقصان المال.

وليس الربا كذلك مخصوصا بما إذا كانت نسبته مرتفعة أو متدنية قليلة أم كثيرة فكله حرام صاحبه يبعث من قبره يوم القيامة يقوم كما يقوم الذى يتخطه الشيطان من المس والصرع.

ومع فحش هذه الجريمة إلا أن الله أخبر عن التوبة منها وبين كيفية ذلك فقال تعالى
لأهل الربا:

﴿ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] وهذا عين العدل.

ويجب أن تنفر نفس المؤمن من هذه الكبيرة وأن تستشعر قبحها وحتى الذين يضعون أموالهم فى البنوك الربوية اضطرابا وخوفا عليها من الضياع أو السرقة ينبغي عليهم أن يشعروا بشعور المضطر وأنهم كمن يأكل الميتة أو أشد مع استغفار الله تعالى والسعى لإيجاد البديل ما أمكن ولا يجوز لهم مطالبة البنوك بالربا بل إذا وضع لهم فى حساباتهم تخلصوا منه فى أى باب جائز تخلصا لا صدقة فإن الله طيب لا يقبل

(١) صحيح: أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى ومسلم ورواه البيهقى من طريق الحاكم ثم قال هذا إسناد صحيح، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٣٩)، وصحيح الترغيب (١٨٥١).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٧٥).

(٣) تقدم.

إلا طيبا ولا يجوز لهم الاستفادة منه بأي نوع من الاستفادة لا بأكل ولا شرب ولا لبس ولا مركب ولا مسكن ولا نفقة واجبة لزوجة أو ولد أو أب أو أم ولا في إخراج الزكاة ولا في تسديد الضرائب ولا يدفع بها ظلما عن نفسه وإنما يتخلص منها خوفا من بطش الله تعالى. القائل في كتابه ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار.

وصدق وعيد الله ووعدته. فهي نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة.. إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء.

وقد ترى العين - في ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجا وموارد موفورة، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد.

وقد أشرنا من قبل إلى الشقوة النكدة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة الموارد؛ وإلى القلق النفسى الذى لا يدفعه الثراء بل يزيده.

ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم. حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب المبيدة؛ كما تصحو وتنام في هم الحرب الباردة! وتثقل الحياة على أعصاب الناس يوما بعد يوم - سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا - ولا يبارك لهم في مال ولا في عمر ولا في صحة ولا في طمأنينة بال!

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون - الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع - وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة، والتطلع دائما إلى فضل الله وثوابه، والاطمئنان دائما إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها.

ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله - أفرادا وجماعات - في مالهم ورزقهم، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم.

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية، هم الذين لا يريدون أن يروا، لأن لهم هوى في عدم الرؤية! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبنوثة عمداً وقصدًا

من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت؛ فضغطوا عن رؤية الحقيقة! ^(١).
وهؤلاء الصنف من الناس هم الذين لا يحبهم الله ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله:
﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]

قال ابن كثير: أى: لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهى أن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفى بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل ^(٢).



(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٧١٥-٧١٦).

٦ - الكذب في البيع والشراء

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ رَفَعَهُ إِلَى حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»^(١).

قوله «صدقا»: أى من جانب البائع فى السوم ومن جانب المشتري فى الوفاء.

وقوله «بيننا»: أى لما فى الثمن والمثمن من عيب فهو من جانبيهما وكذا نقصه وفى الحديث حصول البركة لهما إن حصل منهما الشرط، وهو الصدق والتبيين، ومحققها إن وجد ضدها وهو الكذب والكتم، ويفيد الحديث أن الدنيا لا يتم حصولها إلا بالعمل الصالح وأن شؤم المعاصى يذهب بخير الدنيا والآخرة.^(٢)

قال ابن حجر فى الفتح: وفى الحديث حصول البركة لهما إن حصل منهما الشرط وهو الصدق والتبيين، ومحققها إن وجد ضدهما وهو الكذب والكتم، وهل تحصل البركة لأحدهما إذا وجد منه المشروط دون الآخر ظاهر الحديث يقتضيه، ويحتمل أن يعود شؤم أحدهما على الآخر بأن تنزع البركة من المبيع إذا وجد الكذب أو الكتم من كل واحد منهما وإن كان الأجر ثابتا للصادق المبين، وَالْوِزْرُ حاصل للكاذب الكاتم. وفى الحديث أن الدنيا لا يتم حصولها إلا بالعمل الصالح، وأن شؤم المعاصى يذهب بخير الدنيا والآخرة.^(٣)



(١) أخرجه البخارى (١٩٧٣) باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا، ومسلم (١٥٣٢) باب الصدق فى البيع والبيان.

(٢) الكبائر - الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ٨٨).

(٣) فتح البارى (٤/ ٣١١).

٧- الْحَلْفُ فِي الْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَلْفُ مُنْفَقَةٌ لِلْسَّلْعَةِ مُنْحَقَةٌ^(١) لِلْبَرَكَةِ^(٢)».

قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: وَالْمَحْقُ النَّقْصُ فَقَالَ: كَيْفَ تَجْتَمِعُ الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ؟ فَأَوْضَحَ الْحَدِيثَ أَنَّ الْحَلْفَ الْكَاذِبَ وَإِنْ زَادَ فِي الْمَالِ فَإِنَّهُ يَمْحَقُ الْبَرَكَةَ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا﴾ أَيْ يَمْحَقُ الْبَرَكَةَ مِنَ الْبَيْعِ الَّذِي فِيهِ الرِّبَا وَإِنْ كَانَ الْعَدَدُ زَائِدًا لَكِنَّ مَحْقَ الْبَرَكَةِ يُفْضِي إِلَى إِضْمِحْلَالِ الْعَدَدِ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَى إِضْمِحْلَالِ الْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي^(٣). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً وَهُوَ فِي السُّوقِ فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطَ لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَتَزَلَّتْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الْآيَةُ. [آل عمران: ٧٧]^(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنُ السَّبِيلِ وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا فَأَخَذَهَا^(٥) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالٍ أَمْرِي مُسْلِمٌ بِغَيْرِ حَقِّهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

(١) (الحلف): اليمين والمراد بها هنا الكاذبة. (منفقة) مروجة. (ممنقة) مذهبة. أى سبب لمحق البركة وذهابها إما بتلف يلحقه في ماله أو بإنفاقه في غير ما يعود نفعه إليه في العاجل أو ثوابه في الآجل (للبركة) الزيادة والنماء من الله تعالى.

(٢) أخرجه البخارى (١٩٨١) باب ﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٣٧﴾ ومسلم (١٦٠٦) باب النهي عن الحلف في البيع - بلفظ: «الحلف منفقة للسلعة ممنقة للربح».

(٣) فتح البارى (٣١٦/٤).

(٤) أخرجه البخارى (١٩٨٢) باب ما يكره من الحلف في البيع.

(٥) أخرجه البخارى (٢٢٣٠) باب إثم من منع ابن السبيل من الماء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧)

[آل عمران: ٧٧] (١).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، المسبل إزاره، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلْسَّلْعَةِ مَنَحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» وَقَالَ ابْنُ جَعْفَرٍ: «الْبُرْكَاةُ» (٣).

قال ابن الحاج في المدخل: وَلِيَحْذَرَ مِمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الْإِيمَانِ فِي بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ وَذَلِكَ مَذْمُومٌ. هَذَا إِذَا كَانَ حَلْفُهُ عَلَى حَقٍّ وَهُوَ مَذْمُومٌ كَمَا تَرَى فَكَيْفَ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَحْلِفُونَ عَلَى تَحْسِينِ سِلْعِهِمْ وَقَدْ تَكُونُ عَلَى خِلَافِ مَا حَلَفُوا عَلَيْهِ بَلْ هُوَ الْغَالِبُ إِذْ إِنَّهَا لِأَجْلِ تَحْسِينِ سِلْعِهِمْ وَتَرْزِيئِهَا فِي عَيْنِ الْمُشْتَرِي وَتَغْيِيطِهَا بِهَا، وَذَلِكَ كُلُّهُ مَذْمُومٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُرْغَبُ الْمُشْتَرِي فِي سِلْعَتِهِ بِأَنْ يَقُولَ لَهُ: إِنَّ مَوْضِعَهَا الَّذِي آتَيْتَ بِهَا مِنْهُ كَذَا وَهِيَ مَعْدُومَةٌ فِيهِ أَوْ قَلِيلَةٌ وَأَنَّهَا تُسَاوِي مِنَ الثَّمَنِ الْعَالِي فِي مَوْضِعِهَا كَذَا وَإِنَّمَا اشْتَرَيْتَهَا مِنْ صَاحِبِهَا بِالْجَهْدِ وَالْمُحَابَاةِ حَتَّى بَاعَهَا لِي. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَوَائِدِهِمُ الَّتِي لَا يَنْحَصِرُ تَفْصِيلُهَا. وَهَذَا إِذَا كَانَ الْحَلْفُ بِاللَّهِ تَعَالَى. وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْحَلْفُ بِالْعَتَقِ أَوْ بِالطَّلَاقِ فَهُوَ أَفْبَحُ وَأَشْنَعُ لَوْ قُوِعَ فِي النَّهْيِ الصَّرِيحِ.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٥) باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ﴾، ومسلم

(١٣٨) باب وعيد من اقتطع حق المسلم بيمين فاجرة بالنار.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦) باب بيان غلط تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩٠٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٦٣) وقال: (وفي لفظ:

«للبركة»).

وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ وَيُؤَدَّبُ مَنْ حَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَوْ بِالْعَتَاقِ.
 وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَمَتَّحُوا الْبَرَكَةَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ اُمْتَحَقَّتْ الْبَرَكَةُ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِالْمَالِ الَّذِي فِي يَدِهِ غَالِبًا ؛ وَلَاجَلِ هَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي هَذَا
 الزَّمَانِ كَانَتْهُمْ وَكَلَاءٌ وَأَمْنَاءٌ فِي أَمْوَالِهِمْ فَلَا يَجِدُونَ السَّبِيلَ إِلَى الصَّرْفِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا
 لِبَطَاعَةِ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْغَالِبِ بَلْ هُمْ خَزَنَةٌ لِغَيْرِهِمْ. فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ لِنَفْسِهِ بَلْ لِغَيْرِهِ
 مِثْلَ الصَّانِعِ وَالْأَجِيرِ وَالْوَارِثِ أَغْنَى فِي أَنْتَهُمْ يَأْخُذُونَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِحْقَاقِ
 لَهُمْ وَهُوَ مَجْبُورٌ عَلَى إِخْرَاجِهِ مِنْ يَدِهِ لَهُؤُلَاءِ وَمَنْ أَشَبَّهُهُمْ طَوْعًا أَمْ كَرْهًا وَعَلَامَةُ
 كَوْنِ الْمَالِ لِلشَّخْصِ تَسْلِيْطُهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ فَمَنْ اتَّصَفَ
 بِذَلِكَ وَقَعَتْ لَهُ الْبَرَكَةُ فَانْتَفَعَ بِهِ لِنَفْسِهِ وَانْتَفَعَ وَرَثَتُهُ بَعْدَهُ بِمَا بَقِيَ لَهُمْ مَعَ الذِّكْرِ
 الْحَسَنِ وَالْبَرَكَةِ فِيمَا بَقِيَ ^(١).



٨- بَيْعُ الرَّجُلِ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ

لَمَّا وَرَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنْ أَنْ يَبِيعَ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ أَوْ يَسُومَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ فَإِنْ فَعَلَهُ كَانَ حَرَامًا وَامْتَحَقَّتْ الْبَرَكَةُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لِمُخَالَفَتِهِ لِلشَّرْعِ الشَّرِيفِ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَا يَسِمُ الْمُسْلِمُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ ^(١). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ» ^(٢).

قال النووي: أَمَّا الْبَيْعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ فَمِثَالُهُ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ اشْتَرَى شَيْئًا فِي مُدَّةِ الْخِيَارِ: إِفْسَخْ هَذَا الْبَيْعَ وَأَنَا أَبِيعُكَ مِثْلَهُ بِأَرْخَصٍ مِنْ ثَمَنِهِ أَوْ أَجُودُ مِنْهُ بِثَمَنِهِ. وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَهَذَا حَرَامٌ. وَيَحْرُمُ أَيْضًا الشِّرَاءُ عَلَى شِرَاءِ أَخِيهِ وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لِلْبَائِعِ فِي مُدَّةِ الْخِيَارِ: إِفْسَخْ هَذَا الْبَيْعَ وَأَنَا أَشْتَرِيهِ مِنْكَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا الثَّمَنِ وَنَحْوُ هَذَا ^(٣).

قال النووي: قَوْلُهُ (لَا يَسِمُ الْمُسْلِمُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ) أَمَّا السَّوْمُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اتَّفَقَ مَالِكُ السَّلْعَةِ وَالرَّاعِبُ فِيهَا عَلَى الْبَيْعِ وَلَمْ يَعْقِدَاهُ، فَيَقُولُ الْآخَرُ لِلْبَائِعِ: أَنَا أَشْتَرِيهِ وَهَذَا حَرَامٌ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ الثَّمَنِ. وَأَمَّا السَّوْمُ فِي السَّلْعَةِ الَّتِي تُبَاعُ فِيمَنْ يَزِيدُ فَلَيْسَ بِحَرَامٍ ^(٤).



(١) أخرجه مسلم (١٤٠٨) بَابُ تَحْرِيمِ بَيْعِ الرَّجُلِ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَسَوْمِهِ عَلَى سَوْمِهِ.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٩٥) بَابُ لَا يَبِيعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلَا يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ أَوْ يَتَرَكَ، ومسلم: (١٤١٢) بَابُ تَحْرِيمِ بَيْعِ الرَّجُلِ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَسَوْمِهِ عَلَى سَوْمِهِ وَتَحْرِيمِ النَّجْشِ وَتَحْرِيمِ التَّصْرِيَةِ.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٨/١٠).

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

٩- الغش

الغش لغة: نقيض النصح، وقد غشه يغشه غشًا، ترك نصحه وزين له غير المصلحة. ^(١)

وقال ابن منظور: الغش نقيض النصح وهو مأخوذ من الغشش المشرب الكدر. ومن هذا الغش في البياعات وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ليس منّا من غشّا» ^(٢).

قال أبو عبيدة: معناه ليس من أخلاقنا الغش وهذا شبيه بالحديث الآخر المؤمن يُطَبَّع على كل شيء إلا الخيانة وفي رواية: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» أي ليس من أخلاقنا ولا على سُنَّتِنَا. وقد غَشَّه غشًا لم يَمَحْضْهُ النَّصِيحَةُ ^(٣).

الغش اصطلاحًا: هو تدليس يرجع لذات المبيع، أو إلى صفته، كأن يصفه بصفات كاذبة، أو إلى أمر خارج، كأن يذكر ثمنًا على وجه الكذب ^(٤).

قال المناوي: الغش ما يخلط من الردىء بالجيد.

وقال الكفوي: الغش: سواد القلب وعبوس الوجه.

وقال ابن حجر الهيتمي: وَضَابِطُ الْغِشِّ الْمُحَرَّمُ أَنْ يَعْلَمَ ذُو السِّلْعَةِ مِنْ نَحْوِ بَائِعٍ أَوْ مُشْتَرٍ فِيهَا شَيْئًا لَوْ اطَّلَعَ عَلَيْهِ مُرِيدٌ أَخَذَهَا مَا أَخَذَهَا بِذَلِكَ الْمُقَابِلِ ^(٥).
وَسَبَبُ هَذَا الْغِشِّ عَدَمُ الْبَيَانِ الْمُعْتَبَرِ فِي الشَّرْعِ الشَّرِيفِ.

أنواع الغش: للغش أنواع عديدة أهمها:

الغش في البيوع وغيرها من المعاملات وهو ما أشار إليه المناوي وابن حجر في تعريفهما للغش.

الغش في النصح، وهو ما أشار إليه الكفوي، ويراد عدم الإخلاص في النصح،

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٠/١٨٤-١٨٥)

(٢) أخرجه مسلم (١٠١) باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ.

(٣) لسان العرب مادة (غشش) (٦/٣٢٣).

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية نفس الصفحة.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر (ج ١/١٦٢).

ومنه قول أبى عبيدة: «غَشَّ غِشًّا» لم يمحهه النصيحة.

الغش للرعية، وهو ما أشار إليه الإمام الذهبي في حديثه عن الكبيرة. السادسة عشرة، وعليه قوله ﷺ: «أبى راع غش رعيته فهو في النار»^{(١)(٢)}.

الغش في المعاملات: يحصل الغش كثيرا في المعاملات المالية التى تتعلق بالمعاوضات.

وقد ذكر بعض الفقهاء صورا للغش الواقع في زمانهم بين التجار والصناع. وللغش صور مختلفة كالغش بالتدليس والخيانة والكذب ونحو ذلك، كما أن للغش آثارا متنوعة كالغبن والغرر ونحوها.

يقع الغش في المعاملات كثيرا بصورة التدليس القولى، كالكذب في سعر المبيع، أو الفعلى ككتمان عيوب المعقود عليه، أو بصورة التصرية كأن يترك البائع حلب الناقة أو غيرها مدة قبل بيعها ليوهم المشتري كثرة اللبن، وإذا وقع ذلك يخدع المشتري، فيبرم العقد وهو غير راض بذلك إذا علم الحقيقة^(٣).

ومن الغش ما يفعله بعضهم وهو أن يكون القماش عنده مختلف الحال فبعضه جيد وبعضه ردىء فيأخذ البائع الجيد فيعرضه على المشتري فإذا تعاقد على ثمن معلوم لكل خرقة منها أخرج البائع الجيد ثم أعقبه بإخراج الردىء ليأخذ المشتري الردىء بمثل ثمن الجيد ظنا منه أنه مثله في الجودة والحسن وهذا أمر لا شك في أنه غش وإذا كان غشا فتمتتحق البركة من المال بسببه والتاجر قد تعب في السفر وخاطر وفارق أهله... لتنمية المال وإصلاحه فيقع له العكس والعياذ بالله.

ثم مع ذلك يدخل في ضمن قوله عليه الصلاة والسلام: «من غشنا فليس منا» ومنهم من يخلط الطيب بالردىء فإذا جاء المشتري وكره ما دفعه له من الردىء يكابره فيه ويقول البائع للمشتري هو مثل الجيد أو يقاربه وهذا من باب

(١) الكبائر/ الذهبي (٧٢)، وانظر نضرة النعيم ص (١١) / ص ٥٠٦٩-٥٠٧٠.

(٢) صحيح: أخرجه ابن عساكر من حديث معقل بن يسار، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٧١٣).

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣١/ ٢٢٠).

الغش أيضا^(١).

عن حكيم بن حزام قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» - أو قال: «حتى يتفرقا فإن صدقا وبينا، بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»^(٢).

ثم ذكر النبي ﷺ شيئا من أسباب البركة والنماء، وشيئا من أسباب الخسارة والهلاك. فأسباب البركة والربح والنماء، هي الصدق في المعاملة، وتبيين ما في المعقود عليه من عيب أو نقص أو غير ذلك. وأما أسباب المحق والخسارة، فهي كتم العيوب، والكذب في المعاملة، والتدليس.

وهي أسباب حقيقية لبركة الدنيا بالزيادة والشهرة بحسن المعاملة، وفي الآخرة بالأجر والثواب، وحقيقة لمحق كسب الحياة، من سيئ المعاملة والابتعاد عنه، حتى يفقد ثقة الناس وإقبالهم، وخسارة في الآخرة، لغشه الناس^(٣).

وهذا الغش البليغ المشتمل على خيانة الله تعالى وخيانة رسوله ﷺ فيما أمر به ونها عنه، وكيف ساغ لمن يعلم أنه يقدم على الله سبحانه وتعالى، ويترك ما جمعه من الحطام الفاني لورثته من غير علم منه أنهم ينتفعون به، بل الغالب في أولاد التجار أنهم يضيعونه في المعاصي والقبائح التي لا تخفى على أحد.

والأحاديث في الغش والتحذير منه كثيرة مر منها جملة، فمن تأملها ووقفه الله لفهمها والعمل بها انكف عن الغش وعلم عظيم قبحه وخطره وأن الله لا بد وأن يمحق ما حصله الغاشون بغشهم^(٤)، ولو لم يكن في الغش من المهالك إلا أن البركة تنزع من بين يدي من فعل ذلك بسبب ضرره للمسلمين وسوء تصرفه في حقهم وعدم نصحه لهم ومن نصح الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فقد فاز

(١) انظر المدخل / لابن الحاج (٥٨/٤).

(٢) تقدم.

(٣) انظر تيسر العلام شرح عمدة الأحكام (١/٤١٤).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر / ابن حجر الهيتمي (ج ١ ص: ١٦٣).

وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]

قال ابن حجر: فبين الله أن التجارة لا تحمد ولا تحل إلا إن صدرت عن التراضي من الجانبين والتراضي إنما يحصل حيث لم يكن هناك غش ولا تدليس. وأما حيث كان هناك غش وتدليس بحيث أخذ أكثر مال الشخص وهو لا يشعر بفعل تلك الحيلة الباطلة معه المبنية على الغش ومخادعة الله ورسوله، فذلك حرام شديد التحريم موجب لمقت الله ومقت رسوله. وقال: ولو تأمل الغشاش الخائن الآكل أموال الناس بالباطل ما جاء في إثم ذلك في القرآن والسنة لربما انزجر عن ذلك أو عن بعضه، ولو لم يكن من عقابه إلا قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللَّقْمَةَ مِنْ حَرَامٍ فِي جَوْفِهِ مَا يَقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَإِنَّمَا عَبْدٌ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ حَرَامٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(١). وقوله ﷺ: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»^(٢).

وقوله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه»^(٣). وليتأمل الغشاشون أيضا قوله ﷺ: «لا يحل لأحد بيع شيئا إلا بين ما فيه ولا يحل لأحد يعلم ذلك إلا بينه»^(٤)، وقوله: «من باع عيبا ولم يبينه لم يزل في مقت الله أو لم تزل الملائكة تلعه»^(٥). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن

(١) **ضعيف جداً:** ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٠٧١) من حديث عبد الله بن عباس.

(٢) **صحيح:** أخرجه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٩) من حديث أبي بكر.

(٣) **صحيح:** أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح من حديث أبي بردة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٥٩٢) وانظر الصحيحة حديث (٩٤٦).

(٤) **حسن:** أخرجه الحاكم والبيهقي وقال الحاكم صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٧٧٤)، وغاية المرام (٣٣٩).

(٥) **ضعيف جداً:** أخرجه ابن ماجه من حديث واثلة بن الأسقع. وقال في الزوائد في إسناده بقية بن الوليد وهو مدلس. وشيخه ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٤٩٠)، وضعيف الجامع: (٥٥٠١).

الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟»^(١).



(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

١٠- التطفيف في الكيل والوزن

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦].

قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفيف، وهو القليل، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن^(١). وقد عدّ العلماء ذلك من كبائر الذنوب^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ يعنى الذين ينقصون الناس ويبخسون حقوقهم في الكيل والوزن. قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ يعنى يستوفون حقوقهم منها قال الزجاج: المعنى إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم وكذلك إذا اتزنوا ولم يذكر «إذا اتزنوا» لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يكال ويوزن فأحدهما يدل على الآخر. ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾. أى ينقصون في الكيل والوزن. وقال السدى: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر. فأنزل الله هذه الآية.

وعن ابن عباس قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك^(٣). قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وعن ابن عباس أيضا قال: هى أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم، كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفى

(١) تفسير القرطبي: (١٩/٢٥١).

(٢) ومنهم الإمام الذهبي في كتاب الكبائر ص: (٢٢٥).

(٣) حسن: أخرجه ابن ماجه (١٨٠٨) وابن حبان في صحيحه (٥٠٠٩) والبيهقى، وحسنه الألبانى في صحيح الترغيب (١٧٦٠).

الناس كيلا إلى يومهم هذا^(١).

وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطفاف، وقال: إن البركة في رأسه. قال: وبلغني أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديد^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس بخمس» قالوا: يا رسول الله وما خمس بخمس؟ قال: «ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا أنزل الله بهم الطاعون» يعني كثرة الموت، «ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»^(٣).

﴿الْأَيْظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ قال الزجاج: المعنى لو ظنوا أنهم مبعوثون ما نقصوا في الكيل والوزن ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ من قبورهم ﴿لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لأمره ولجزائه وحسابه وهم يقومون بين يديه لفصل القضاء. وعن مالك بن دينار قال: دخل على جار لي وقد نزل به الموت وهو يقول: جبلين من نار جبلين من نار. قال قلت: ما تقول؟ قال: يا أبا يحيى كان لي مكيالان كنت أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر وقال مالك بن دينار: فقلت أضرب أحدهما بالآخر فقال: يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد الأمر عظماً وشدة فمات في مرضه. والمطفف هو الذي ينقص الكيل والوزن مطففاً لأنه لا يكاد يسرق إلا الشيء الطفيف وذلك ضرب من السرقة والخيانة وأكل الحرام. ثم وعد الله من فعل ذلك بويل وهو شدة العذاب وقيل: واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره. وقال نافع: كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول: اتق الله وأوف الكيل والوزن فإن المطففين يوقفون حتى أن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم.

(١) تفسير القرطبي: (١٩/٢٥٠).

(٢) تفسير القرطبي: (١٩/٢٥١).

(٣) حسن: أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٨٣٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٤٠)، وصحيح الترغيب (٧٦٥).

وكان بعض السلف يقول: ويل لمن يبيع بحبة يعطيها ناقصة جنة عرضها السماوات والأرض ويويح لمن يشتري الويل بحبة يأخذها زائدة ^(١).

وقد أمر الله تعالى بالعدل في الكيل والوزن وأثنى على الموفين لهما، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ بِالْقَسَاسِ الْمُسْتَقِيمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ [الإسراء: ٣٥]. وإيفاء الكيل والاستقامة في الوزن، أمانة في التعامل، ونظافة في القلب، يستقيم بهما التعامل في الجماعة، وتتوافر بهما الثقة في النفوس، وتتم بهما البركة في الحياة. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾.. خير في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة ^(٢). والرسول ﷺ يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير من ذلك» ^(٣). والطمع في الكيل والوزن قذارة وصغار في النفس، وغش وخيانة في التعامل، تترزعزع بهما الثقة، ويتبعها الكساد، وتقل بهما البركة في محيط الجماعة، فيرتد هذا على الأفراد؛ وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف.

وهو كسب ظاهرى ووقتى، لأن الكساد في الجماعة يعود على الأفراد بعد حين. وهذه حقيقة أدركها بعيدو النظر في عالم التجارة فاتبعوها، ولم يكن الدافع الأخلاقي، أو الحافز الديني هو الباعث عليها؛ بل مجرد إدراكها في واقع السوق بالتجربة العملية. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ^(٤) لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ

(١) الكبائر / الذهبي (٢٢٥) بتصرف.

(٢) قال الطبري: وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾: وأحسن مردوداً عليكم وأولى إليه فيه فعلكم ذلك، لأن الله تبارك وتعالى يرضى بذلك عليكم، فيحسن لكم عليه الجزاء. وقال قتادة، أى خير ثوابا وعاقبة. انظر تفسير الطبري (١٧/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٥/ ٦١) وإسناده صحيح رجاله ثقات إلا أنه من مراسيل قتاده وجاء شاهد له: من حديث أبي قتادة وأبي الدهماء: عن صحابي من أهل البادية لم يسم. أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٧٨، ٧٩، ٣٦٣) وقال الهيثمي في المجمع: ٢٩٦/ ١٠ رواه كله أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح. انظر تخريج الظلال (١/ ٥٣٦)، وانظر كنز العمال: (١٥/ ١٢٠٣) رقم: (٤٣١١٣).

(٤) والميزان: هو العدل والانصاف، وقال: مجاهد وقتادة وغيرهما. تفسير ابن كثير (٧/ ١٩٦).

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ [الشعراء: ١٨٢، ١٨٣]، وهذه الآية وإن كانت في قوم شعيب الذين كانوا ينقصون المكيال لكنها تشمل كل وزن بالقسطاس والعدل في أى أمر حسى أو معنوى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى: «والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس»^(١).

وفى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ١-٣]، وهى وإن كانت في المكيال والميزان لكنها تحذر من التطفيف في كل شيء وتنهى عن أن يكون للرجل معياران: إن كان لنفسه ومن يحب وقى، وإن كان لغيره أو خصمه نقصه وبخسه حقه، وإنما الواجب أن يكون للمرء معيار واحد؛ وهو الميزان العدل مع من يحب ومن يبغض^(٢).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: عند هذه الآية: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل - وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عدوًّا كان أو وليًّا^(٣).



(١) مجموع الفتاوى: (٩٩/١٠).

(٢) انظر وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا - للشيخ عبد العزيز بن ناصر الجليل.

(٣) بدائع التفسير (٢/ ٨١، ٨٢).

١١- استيفاء العمل من الأجير وعدم إيفائه أجره

لقد رغب النبي ﷺ في سرعة إعطاء الأجير حقه فقال: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»^(١).

ومن أنواع الظلم الحاصل في مجتمعات المسلمين عدم إعطاء العمال والأجراء والموظفين حقوقهم ولهذا عدة صور منها:

أولاً: أن يجحده حقه بالكلية ولا يكون للأجير بينة فهذا وإن ضاع حقه في الدنيا فإنه لا يضيع عند الله يوم القيامة فإن الظالم يأتي وقد أكل مال المظلوم فيعطى المظلوم من حسنات الظالم فإن فئت أخذ من سيئات المظلوم فطرح على الظالم ثم طرح في النار.

ثانياً: أن يبخسه فيه فلا يعطيه إياه كاملاً وينقص منه دون حق وقد قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾^(١) [المطففين: ١]، ومن أمثلة ذلك ما يفعله بعض أرباب العمل إذا استقدم عمالاً من بلدهم وكان قد عقد معهم عقداً على أجر معين فإذا ارتبطوا به وباشروا العمل عمد إلى عقود العمل غيرها بأجور أقل فيقيمون على كراهية وقد لا يستطيعون إثبات حقهم فيشكون أمرهم إلى الله، وإن كان رب العمل الظالم مسلماً والعامل كافراً كان ذلك البخس من الصد عن سبيل الله فيبوء بإثمه.

ثالثاً: أن يزيد عليه أعمالاً إضافية أو يطيل مدة الدوام (ساعات العمل) ولا يعطيه إلا الأجرة الأساسية ويمنعه أجرة العمل الإضافي.

رابعاً: أن يماطل فيه فلا يدفعه إليه إلا بعد جهد جهيد وملاحقة وشكاوى ومحاكم وقد يكون غرض رب العمل من التأخير إملال العامل حتى يترك حقه ويكف عن المطالبة أو يقصد الاستفادة من أموال العمال بتوظيفها وبعضهم يرابى فيها والعامل المسكين لا يجد قوت يومه ولا ما يرسله نفقة لأهله وأولاده المحتاجين الذين تغرب من أجلهم. فويل لهؤلاء الظلمة من عذاب يوم أليم.

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٩٣).

وعن أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً وأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » ^(١).

لأنه استوفى منفعته بغير عوض واستخدمه بغير أجره فكأنه استعبده. ^(٢)
قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: هو سبحانه وتعالى خصم لجميع الظالمين إلا أنه أراد التشديد على هؤلاء بالتصريح ^(٣).

وقال المهلب: هذا الحديث مصداقه في كتاب الله، قال الله - تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ **[الفتح: ١٠]**، وقد وبخ الله من عاهده ثم نكث، ومن باع حراً فقد ألزمه الذلة والصغار، ومنعه التصرف فيما أباح الله له، وهذا ذنب عظيم ينافي الله به في عباده، ومن ضيع أجيراً حقه فقد ظلمه حين استخدمه واستحل عرقه بغير أجر وخالف بصيرة الله في عباده؛ لأنه استعملهم ووعدهم على عبادته جزيل الثواب وعظيم الأجر وهو خالفهم ورازقهم. ^(٤)



(١) أخرجه البخاري (٢١١٤) باب إثم من باع حراً.

(٢) فيض القدير (٤/ ٤٧١).

(٣) فتح الباري (٤/ ٤١٣).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٣٩٨، ٣٩٩).

الخاتمة

اللهم يا واسع الخيرات يا كثير البركات اجعلنا من الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه، واجعلنا من الذين يقولون فيفعلون ويفعلون فيخلصون ويخلصون فيقبلون. واعلموا يا إخواني أنه ما سلم من النقص والخلل والخطايا والزلل إلا النبي المفضل والرسول المبجل صاحب الوصف الأكمل والوجه الأنور والجبين الأزهر، وما صح الفضل والكمال إلا لمن جمعت فيه أشرف الخصال، الذي أوتى جوامع الكلم وخص بالفضل والعلم والعقل والأنفال. صاحب النهج السوى والخلق الأسنى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه. وبعد... فهذا جهد المقل. قصدت بذلك رحمة أرحم الراحمين والنفع لكافة المسلمين.

فإن كان من خير فمن الله وإن كان من نقص فمن نفسى ومن الشيطان. تأليف العبد الظالم لنفسه المعترف بذنبه الفقير إلى رحمة ربه، أبو عمرو جاسر بركات عبد الفتاح بركات غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهم بالرحمة والمغفرة آمين. اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم زده صلاةً وسلامًا وبركةً يا رب العالمين. والله أسأل حسن القصد والنية، اللهم أعظم فيه البركة وانفع به من كتبه وقرأه وطبعه وحفظه، واجعله عامَّ النفع والبركة بفضلك ورحمتك إنك على كل شىء قدير.

كتبه

جاسر بركات

الفهارس

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

- ٥ تقديم فضيلة الشيخ العلامة عبد الرزاق عيد
- ٦ تقديم فضيلة الشيخ العلامة : حسني حمدان حمامة
- ٧ شكر وتقدير إلى من أحبهم كل الحب
- ٩ مقدمة المؤلف
- ١٥ البركة من الله عز وجل
- ١٦ معنى تبارك
- ٢١ معنى القدوس يجمع معنى الطهر والبركة لغة وشرعاً
- ٢٣ الباب الأول: أسباب تحصيل البركات والخيرات
- ٢٣ المبحث الأول: بركة الأفعال
- ٢٣ ١ - بركة الإيمان والتقوى
- ٢٤ أولاً: بركة الإيمان
- ٢٤ ومن بركات الإيمان الثواب العظيم للمؤمنين
- ٢٥ ومن بركات الإيمان راحة للبال وهدوء للنفس
- ٢٦ ومن بركات الإيمان كشف الكرب وذهاب الغم
- ٢٧ الإيمان أثقل ما وضع في الميزان
- ٢٧ الإيمان أساس قبول العمل
- ٢٨ مغفرة الذنوب من بركات الإيمان
- ٢٩ المؤمنون شفعاء في الدنيا والآخرة وهم أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ
- ٣٠ من بركات الإيمان التمكين في الأرض
- ٣١ ومن بركات الإيمان أن أهل الإيمان لا يخلدون في النار وإن دخلوها

الموضوع

الصفحة

- البشرى لهم في الحياة الدنيا وعند الممات ٣٥
- وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالتثبيت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ٣٦
- ثانيًا: بركة التقوى ٣٨
- ٢- بركة الطاعة ٤١
- ٣- بركة العمل الصالح ٤٦
- ٤- البركة في العمر ٤٩
- ٥- البركة في الصحة والبدن والسمع والبصر ٥٢
- ٦- البركة في الحفظ ٥٤
- ٧- البركة في الرزق ٥٩
- ٨- البركة في الْقَنَاعَةِ والرضا بعطية الله ٧٣
- مفهوم القناعة ٧٣
- من بركات وفوائد القناعة ٧٥
- ١- امتلاء القلب بالإيمان بالله ٧٥
- ٢- الحياة الطيبة ٧٦
- ٣- تحقيق شكر المنعم ٧٦
- ٤- الفلاح والبُشْرَى لمن قنع ٧٦
- ٥- الوقاية من الذنوب التي تفتك بالقلب وتذهب الحسنات ٧٦
- ٦- حقيقة الغني في القناعة ٧٧
- ٧- العز في القناعة، والذل في الطمع ٧٨
- أسباب تحول دون القناعة ٧٩
- السبيل إلى القناعة ٨١

الموضوع

الصفحة

- ١ - تقوية الإيمان بالله تعالى ٨١
- ٢ - اليقين بأن الرزق مكتوب والإنسان في رحم أمه ٨١
- ٣ - تدبر آيات القرآن العظيم ٨١
- ٤ - معرفة حكمة الله سبحانه وتعالى في تفاوت الأرزاق ٨١
- ٥ - الإكثار من سؤال الله سبحانه وتعالى القناعة ٨٢
- ٦ - العلم بأن الرزق لا يخضع لمقاييس البشر ٨٢
- ٧ - النظر إلى حال من هو أقل منك في أمور الدنيا ٨٢
- ٨ - قراءة سير السلف الصالح وأحوالهم مع الدنيا والزهد فيها ٨٣
- ٩ - العلم بأن عاقبة الغنى شر ووبال إذا لم يكن الاكتساب والصرف منه بالطرق المشروعة ٨٣
- ١٠ - النظر في التفاوت البسيط بين الغني والفقير على وجه الحقيقة ٨٤
- ٩ - البركة في شكر نعم الله وعدم كفرانها ٨٧
- ١٠ - السلام: تحية مباركة طيبة ٩٠
- الحكمة في اقتران الرحمة والبركة بالسلام ٩٤
- ١١ - البركة في النكاح ٩٦
- التهنئة والدعاء بالبركة ١٠١
- التهنئة بالنكاح ١٠١
- صيغة التهنئة بالنكاح ١٠٢
- من بركات الزواج ١٠٤
- أولاً: البعد عن الوقوع في الفواحش والمنكرات التي حرمها الله عز وجل ١٠٤
- ثانياً: الزواج مجلبةً للمال والرزق الحلال ١٠٥

الموضوع

الصفحة

- ١٠٧ ثالثًا: تكثير أمة محمد ﷺ
- ١٠٧ الزواج دعوة قرآنية وسنة نبوية
- ١٠٨ رابعًا: الإعانة الإلهية
- ١٠٨ خامسًا: المثوبة الربانية
- ١٠٩ سادسًا: تحقيق المتعة
- ١١١ سابعًا: طاعة المرأة لزوجها سبب دخولها الجنة
- ١١٢ ثامنًا: التعليم والإرشاد
- ١١٣ تاسعًا: صلة الأرحام التي أمر الله تعالى أن توصل
- ١١٥ عاشرًا: تخفيف الزوجين كل منهم عن الآخر
- ١١٧ حادي عشر: إنجاب الذرية الصالحة المباركة التي تعبد الله
- ١٢١ استحباب تحنيك المولود والدعاء له بالبركة
- ١٢٣ ١٢ - البركة في إقامة الدين وتطبيق شرع رب العالمين
- ١٢٨ شرع الله قائم على الوسطية والتكامل
- ١٣٧ ١٣ - بركة العدل
- ١٤٤ من بركات العدل
- ١٤٤ ١ - العدل هو الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب
- ١٤٤ ٢ - أنه سبب للبركة في الأرزاق
- ١٤٤ ٣ - أنه موصل إلى محبة الله سبحانه وتعالى
- ١٤٤ ٤ - أنه سبب لنيل المنزلة الرفيعة عند الله تعالى
- ١٤٦ ٥ - أنه قرين التوحيد في كتاب الله تعالى
- ١٤٦ ٦ - أنه سبب لقيام الدول والمجتمعات وسر استقرار حالها

الصفحة

الموضوع

- ٧- إذا ساد العدل حُفظت الحقوق، ونصر المظلوم وولت الهموم، وأدبرت الغيوم ١٤٧
- ١٤- بركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٤٩
- معنى المعروف والمنكر لغة وشرعاً ١٥٢
- حكم إنكار المنكر ١٥٤
- تفاوت مسؤولية الناس في إنكار المنكر ١٥٦
- عاقبة ترك إزالة المنكر مع القدرة عليها ١٥٦
- ١- إذا تُركَ النهي عن المنكر استشرى الشر في الأرض ١٥٦
- ٢- الهلاك في الدنيا ١٥٧
- ٣- عدم استجابة الدعاء ١٦٣
- ١٥- بركة الزكاة والصدقة ١٧٠
- أهمية الزكاة ١٧٠
- من بركات الزكاة ١٧٢
- ما أخبر الله تعالى به أن رحمته كتبت للذين يؤتون الزكاة ١٧٢
- وجعل إسلام الكافر لا تتحقق له الأخوة الدينية إلا بعد إقامة الصلاة وإتيائه للزكاة ١٧٢
- الزكاة من أسباب فلاح المؤمن ١٧٢
- الزكاة تزكي صاحبها من دنس الأخلاق كالبلخ والشح ١٧٣
- أنها سبب للحصول على طعم الإيمان ١٧٣
- وهي سبب لرفعة الدرجات ومحو السيئات ١٧٣
- وهي سبب عظيم في قضاء الحوائج وتفريج الكربات ١٧٤

الموضوع

الصفحة

- ١٧٤ أنها من أسباب دخول الجنة
- ١٧٥ أنها تزكي المال وتنميه، وتكون سبباً في البركة
- ١٧٥ أنها سبب لنزول الخيرات
- ١٧٦ نشر المودة والألفة والمحبة بين المجتمع
- ١٧٧ الكرام والجود من أسباب انشراح الصدر
- ١٧٩ ١٦ - بركة الإنفاق وكرهه الإحصاء
- ١٧٩ - استحباب إخراج الزكاة في رمضان
- ١٨٠ أولاً: مضاعفة الأجر والثواب لفضل الزمان
- ١٨٠ ثانياً: ليتمكن الفقراء والمساكين ويتفرغوا لصيامهم وقيامهم واعتكافهم
- ١٨٠ ثالثاً: من فطر صائماً كان له مثل أجره
- ١٨٠ رابعاً: رمضان هو شهر الجود والمواساة
- ١٨١ خامساً: الزكاة حق للفقراء وأحوج ما يكون الفقراء لهذا الحق في رمضان
- ١٨١ سادساً: من واجب الفقراء الدعاء للأغنياء حين يعطونهم هذا الحق
- ١٨١ سابعاً: رمضان يليه العيد الذي يحتاج فيه الفقراء إلى لبس الجديد
- ثامناً: غالباً ما تطيب نفس المسلم بعمل الخير وتجوّد بالنفقة عندما تزكو بالصيام والقيام
- ١٨١ تاسعاً: الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات دخول الجنة
- ١٨٢ عاشراً: الصيام لا بد أن يقع فيه خلل فيحتاج إلى ما يكفره
- ١٨٢ - الصدقات المستحبة
- ١٨٣ ١٧ - بركة الحجامة
- ١٨٤ ١٨ - بركة اتخاذ الخيل

الموضوع

الصفحة

- ١٨٥ ذكر إثبات البركة في ارتباط الخيل للجهاد في سبيل الله
- ١٨٨ ١٩ - بركة الغنم وغيرها من الأنعام
- ١٩٣ ٢٠ - البركة مع أكابركم
- ١٩٤ ٢١ - البركة في البيت
- ١٩٤ - دعاء دخول المنزل
- ١٩٤ - نزع ما في البيت من صور وتماثيل
- ١٩٥ - ذكر الله في البيت
- ١٩٧ ٢٢ - بركة العلم والعمل به
- ٢٠٠ - من بركات العلم:
- ٢٠٠ أولاً: استشهاد الله سبحانه وتعالى بأهل العلم على أجل مشهود وهو توحيده..
- ٢٠٠ ثانياً: أن الله تعالى نفى التسوية بين العلم والجهل.
- ٢٠١ ثالثاً: رفعة درجات أهل العلم في الدنيا والآخرة.
- ٢٠١ رابعاً: أن أهل العلم هم أهل الخشية.
- ٢٠١ خامساً: أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بطلب المزيد من العلم.
- ٢٠١ سادساً: الاستشهاد بأقوال أهل العلم يوم القيامة.
- ٢٠٣ سابعاً: أن أهل العلم هم المنتفعون بأمثال القرآن.
- ٢٠٣ ثامناً: أن العلم سلطان على الناس.
- ٢٠٣ تاسعاً: أن العلم شرط في قبول العمل.
- ٢٠٤ عاشراً: طلب العلم طريق إلى الجنة.
- ٢٠٤ حادي عشر: أن الفقه في الدين سبب من أسباب الحصول على الخير.
- ٢٠٥ ثاني عشر: أن العلم من أجل النعم.

الموضوع

الصفحة

- ثالث عشر: أن العلم كالغيث ٢٠٥
- رابع عشر: أن أهل العلم أحد صنفَي ولاية الأمر ٢٠٦
- خامس عشر: رضا الملائكة بطالب العلم ٢٠٦
- سادس عشر: أن العلم يستثنى صاحبه من اللعن ٢٠٧
- سابع عشر: إيواء الله سبحانه وتعالى لطالب العلم ٢٠٧
- ثامن عشر: أن أهل العلم يغبطون ٢٠٨
- تاسع عشر: دعاء النبي ﷺ لأهل العلم بالنضارة ٢٠٩
- عشرون: مباهاة الملائكة بطلبة العلم ٢٠٩
- الحادي وعشرون: تقديم أهل العلم في الولايات الدينية ٢١٠
- الثاني وعشرون: أن العلم ميراث النبوة ٢١٠
- الثالث وعشرون: استغفار الحيتان وغيرها لطالب العلم ٢١١
- الرابع والعشرون: لا تنجح الدعوة إلا بالعلم ٢١١
- ٢٣ - البركة في من دعا إلى الإسلام ٢١٢
- المبحث الثاني: بركة الأقوال ٢١٣
- ١ - بركة الذكر ومجالسة الصالحين ٢١٣
- مجالس الذكر هي مجالس الملائكة ٢١٣
- إن الله عز وجل، ليباهي بالذاكرين الملائكة ٢١٤
- هُم الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ ٢١٤
- أفضل الذكر لا إله إلا الله ٢١٥
- وهي كلمة النجاة في الدنيا والآخرة ٢١٥
- ٢ - بركة كتاب الله عز وجل ٢١٧

الصفحة

الموضوع

٢٢٤	من بركات القرآن الكريم
٢٢٨	البركة لمن أخذ سورة البقرة
٢٢٩	الرُّقَى والتَّبَرُّكُ بِالْقُرْآنِ وَالْمُعَوِّذَاتِ
٢٣١	٣- بركة أسماء الله الحسنى
٢٣٤	بركة الرقية بأسماء الله تعالى
٢٣٩	٤- بركة تعظيم اسم الله
٢٤٠	٥- بركة « لا حول ولا قوة إلا بالله »
٢٤١	٦- بركة الأذان
٢٤٢	٧- الصلاة على النبي ﷺ وما فيها من البركة
٢٤٥	٨- بركة الاستغفار والتوبة
٢٤٥	تعريف الاستغفار
٢٤٥	الاستغفار شرعاً
٢٤٥	اقتران الاستغفار بالتوبة
٢٤٥	الفرق بين الاستغفار والتوبة
٢٤٧	من بركات الاستغفار والتوبة
٢٥٥	الباب الثاني: أسباب محق البركة
٢٥٥	١- الفساد
٢٥٥	الفساد في الأرض
٢٥٥	حكم الفساد
٢٥٦	من معاني كلمة الفساد في القرآن الكريم
٢٥٨	قِلَّةُ البركة والآفات جاءت من كثرة الفساد

الموضوع	الصفحة
٢- المعاصي	٢٦٠
معنى المعصية	٢٦٠
أضرار المعاصي	٢٦٧
٣- أكل الحرام	٢٧٠
٤- أخذ الرشوة وإعطاؤها	٢٧٥
أدلة تحريم الرشوة	٢٧٦
حكم هدايا العمال والحكام وعامة الناس	٢٧٦
أقوال العلماء في هدايا العمال وغيرهم	٢٧٧
أقوال علماء الإسلام في هذه المسألة	٢٧٨
الرشوة لرفع الظلم	٢٨٠
حكم هدية غير الحكام والعمال	٢٨١
خلاصة القول في المسألة	٢٨٢
٥- أكل الربّا	٢٨٤
الربّا يمحق البركة	٢٨٤
٦- الكذب في البيع والشراء	٢٨٩
٧- الحَلِفُ في البيع والشراء	٢٩٠
٨- يَبِيعُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ	٢٩٣
٩- الغش	٢٩٤
الغش لغة	٢٩٤
الغش اصطلاحًا	٢٩٤
أنواع الغش	٢٩٤

الصفحة

الموضوع

٢٩٥	الغش في المعاملات
٣٠٠	١٠ - التطفيف في الكيل والوزن
٣٠٤	١١ - استيفاء العمل من الأجير وعدم إيفائه أجره
٣٠٦	الخاتمة
٣٠٧	فهرس الموضوعات

